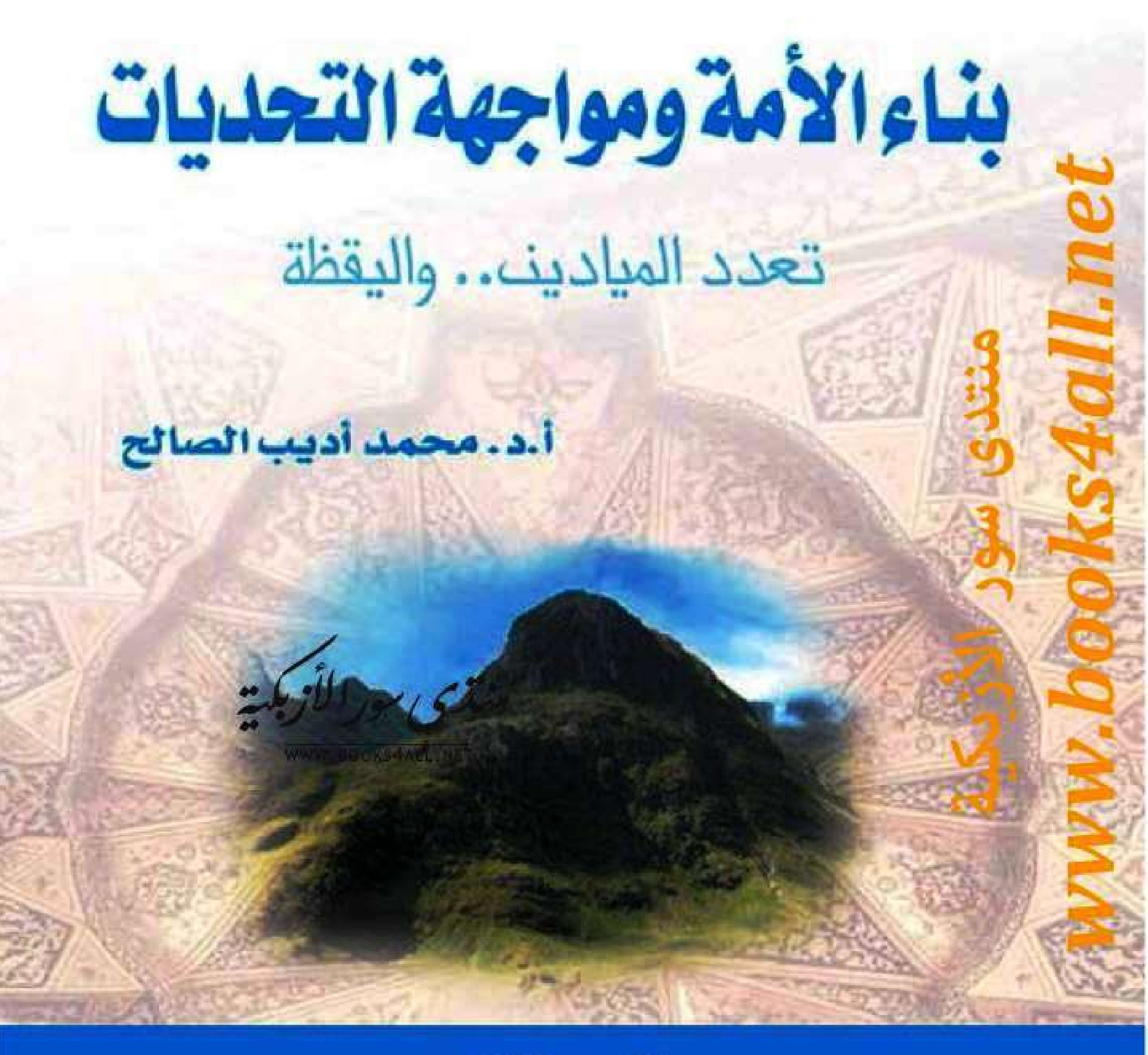
معالم قرآنية في البناء

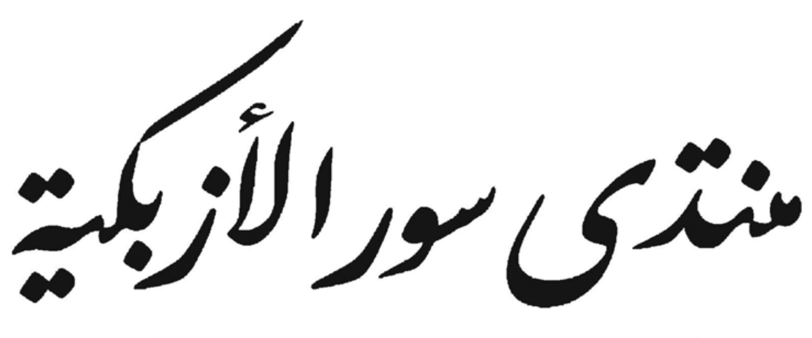
بناء الأمة ومواجهة التحديات

تعدد الميادين.. واليقظة

أ.د. محمد أديب الصالح



العبيكان
Obeikan



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



بناء الأمة ومواجهة التحديات

تعدد الميادين.. واليقظة

أ. د. محمد أديب الصالح

العبيكان
Obeikan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالح، محمد أديب

بناء الأمة ومواجهة التحديات. / محمد أديب الصالح. - الرياض ١٤٢٧هـ

٤٣٨ ص؛ ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٢ - ١٠٠ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ - القرآن - مباحث عامة. ٢ - الأمة الإسلامية. أ. العنوان

ديوي ٢٢٩ ٥٣٩٠ / ١٤٢٧

رقم الإيداع: ٥٣٩٠ / ١٤٢٧

ردمـــك: ٢ - ١٠٠ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشــر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمــز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمــز ١١٥٩٥



توطئة

الحمد لله الذي يسجد له ما في السموات وما في الأرض طوعاً، وكرهاً وظلالُهم بالغدوّ والآصال.

والحمد لله عالمِ الغيب والشهادة الكبير المتعال، القائم على كل نفس بما كسبت وهو شديد المِحال.

والحمد لله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون. وتبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، سبحانه من إله غفورٍ ودودٍ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، أنزله بالحق وبالحق نزل، وهو النور المبين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى بهذا الكتاب المبين إلى خاتم رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبدالله رحمة العالمين: مباركاً ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب، نعم، ونزّله تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين. ويسّره بلسانه ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لدّاً. حيث الغايةُ الكبرى أن يحصل التذكر وتأخذ الهداية سبيلها إلى القلوب ﴿فإنّما يسّرْناهُ بلسانك لعلّهُمْ يتذكَّرُون﴾[1].

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله: أدّى الأمانة في تبليغ ما أنزل إليه من تلكم الآيات البينات، ولم يدَع أن يبيّن - وقد أوتي القرآن ومثله معه - ما يلزم بيانُه خير بيان، عملاً بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكْر لتُبيّن للنّاسِ ما نُزّل إليهمْ ولعلّهُمْ يتفكَّرُون﴾[2].

---

(١) (الدخان: ٥٨).
(٢) (النحل: ٤٤).

فجزاه الله عن الأمة ونصرة الحق خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما اختلف الليل والنهار: أداءً لبعض حقه وقد أنقذنا الله به من التهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الهداة المهتدين، الذين أدَّوا أمانة نقل الكتاب الكريم وبيانه المحمّدي على خير وجه وأكمله للعالمين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم على طريق القرآن المجيد وبيانه من سنة سيد المرسلين.

وبعد: فليس من نافلة القول أو مكروره التذكير بواحدة من المسلَّمات عند أولي الألباب، وهي أن واحداً من أهل النَّصَفة أوتي ولو أثارة من علم، لا يماري في أن من أجلّ نعم الله على الأمة المحمدية، بل على البشرية جمعاء، هذا القرآنُ المجيد الذي أنزله الله على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالحق، وبالحق نزل، أنزله عليه - كما تدلّ معالمه - ولم يجعل له عوجاً، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين وينذر به قوماً لدّاً لعلهم يتذكرون.. هذا الذكر الحكيم - وهو كلام الخلاق العليم - يتبوأ من رفعة القدر وسعة العطاء في كلماته التي لا تنفد، المنزلةَ التي لم يبلغها كتاب ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1]، كما يتبوأ من عظيم المكانة التي لا تجارى في قيمه وحقائقه ومعانيه الناطقة بها معالمه، ناهيك عن أسلوبه وفصاحته، حيث بلغ من سموّه أن الله تبارك وتعالى رقاه إلى مقام دلّ بعظمته أنه المعجز حقاً، وأنه مع دلالاته القاطعة على أنه من عند الله لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته، ولو بالإتيان بسورة من مثله لعجزوا ولم يقدروا ولو تمالؤوا جميعاً على ذلك ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

---

(١) (الكهف: ١٠٩). (٢) (الإسراء: ٨٨).

فسبحان من أنزله تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وجعله مهيمناً على ما سبقه من الكتب، وأغزرَها علماً للعباد ونفعاً، وأجلَّها منزلة وقدراً ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومُهيمنا عليه فاحكُم بينهُم بما أنزل اللهُ ولا تتَّبعْ أهواءهُمْ عمَّا جاءك من الحقِّ﴾(١).

وهكذا شاء ربنا تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب الخاتم - وقد أنزل على صاحب الرسالة الخاتمة - ينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، ولم لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير. ألا إنه الفصل ليس بالهزل، لا يمتري عاقل في أنه كلّي التشريع، وعمدة الملة. فهو أصل الأصول، وحبل الله المتين، لا تزيغ به الأهواء ولا يخلق على كثرة الردّ - أو عن كثرة الردّ - ولا تنقضي عجائبه، فهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنَّا سمعنا قُرآنًا عجبًا ۝١ يهدي إلى الرُّشد فآمنَّا به ولن نُشرك بربِّنا أحدًا﴾(٢) من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وأنت واجد في معالمه النورانية الخيرة، المكيُّ منها والمدني، والتي يطالعك من خلالها عمومُ هدايته.. نهجاً من البناء الحضاريّ القويم، على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغين، الأمر الذي يرقى بالأمة، أن لو عملت به، إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ويوم يقوم الناس لربّ العالمين. ذلك بأن هذه المعالم - وهي من هذا الكتاب وإليه - حقّ كلها، ونور كلها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وبالحقِّ أنزلناهُ وبالحقِّ نزل وما أرسلناك إلاَّ مُبشِّرًا ونذيرًا ۝١٠٥ وقُرآنًا فرقناهُ لتقرأهُ على النَّاس على مُكثٍ ونزَّلناهُ تنزيلًا﴾(٣) وقوله جل شأنه: ﴿والَّذي أوحينا إليك من الكتاب هُو الحقُّ مُصدِّقًا لما بين يديه إنَّ الله بعباده لخبيرٌ بصيرٌ﴾(٤).

---

(١) (المائدة: ٤٨).
(٢) (الجن: ١ - ٢).
(٣) (الإسراء: ١٠٥ - ١٠٦).
(٤) (فاطر: ٣١).

أجل، هو الحق وأنزل بالحق، فليس لشيء من الباطل - كائناً ما كان شأنه وشأن أهله - إلى تلك المعالم من سبيل، مهما افترى المفترون، ومكر الماكرون، وماري السفهاء والملبِّسون، وانتحل العابثون المبطلون. وجلّ شأن ربنا السميع القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

فطوبى لمن تحملهم نورانية هذه المعالم إلى أن يكونوا على الجادة يحسنون اصطحاب هذا القرآن تلاوة وتدبراً وتذكراً، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويدورون معه - وهو كلام العليم الحكيم - حيث دار. وما أعزّها ثمرة مخالطةُ تلك المعالم مخالطة إيمانية واعية، تسمو بأصحابها المهديّين إلى حيث السدادُ في الأقوال والأفعال، والظفر بالسعادة العاجلة، وحسن العقبى يوم الدين، حيث يشهد لهم القرآن بأنهم كانوا في الدنيا لا يدَعون أن يدوروا معه حيث دار.

وكم دعا السلف الصالح إلى التحقق بذلك، وكشفوا لمن يقوم به عن أعظم البشريات. روى صاحب «الحلية» عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أتى أباه عبدالله بن مسعود فقال: يا أبا عبدالرحمن، علّمني كلمات جوامعَ نوافع، فقال رضي الله عنه:

«اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً.»[2] وروى الباجي عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة»[3] ورضي الله عن ابن أم عبد إذ يقول: «إنما هذه القلوب أوعية

---

(١) (فصلت: ٤١-٤٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني: ١ / ١٣٢ . «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ١ / ١٦٥. «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ١٣٢ .

(٣) ينظر تفسير الثعالبي: ٢ / ٢٥٢ .

فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[1]. ولا تعجب ما دام القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس على معارضته ولو اجتمعوا وتظاهروا، والذي صرّف الله فيه دلائل الهدى ونوّعها لتخاطب كل عقل وقلب، وسبحان من أنزله على نبينا المصطفى ليكون للعالمين نذيراً.

وعلى هذا السنن من اصطحاب اللمحة السريعة في هذه العجالة في القول: ما بد من التنويه بوضوح الدلالة على أفضلية هذه المعالم وما تتسم به من الدقة المتناهية، والحكمة - البالغة في وفرة عطائها الذي لا يستثني ساحة من ساحات البناء، ذلك البناء الذي لا ينأى عن العبودية لله والحفاظ على إنسانية الإنسان ونصرة الحق وتوفير ما يثمر الحضارة المثلى، لما أن هذه الحضارة من نور القرآن الذي هو المعجزة الحقة الباقية إلى يوم الدين، وسداها ولحمتُها هديه الربانيّ وبناؤه الحق المكين.

وجماع ذلك على صعيد الهداية والبناء الشامل المتكامل للفرد والجماعة والأمة - ناهيك عن البناء الحضاري القويم - قول الله تعالى في سورة الإسراء - وهي سورة مكية -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[2]، وأقوم من القَوام وهو العدل والاعتدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[3]، وفلان أقوم كلاماً من فلان: أي أعدل.

فهذا الكتاب المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم وآخرتهم لأقوم الحالات وأصوبها، وأفضل الطرق وأسدّها، وأوضح السبل وأعدلها: فالهداية به قائمة أبداً للحالة التي هي أسدُّ وأعدل

(1) «الربانيون قدوة وعمل» ١٧١، وانظر «الحلية» ١ / ١٣١ .
(2) (الإسراء: ٩).
(3) (الفرقان: ٦٧).

واصوب، ويمكن أن نقول: يهدي للملّة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. وهذا مبنيّ على أن كلمة (أقوم) نعت لموصوف محذوف ذهب كثير من العلماء إلى تقديره على الوجوه التي ذكرنا أو بعضها. ومثل هذه الكناية كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[1]. أي بالخصلة التي هي أحسن. فكان أفعل التفضيل (أحسن) صفة لكلمة الخصلة المقدرة.

ولا علينا أن نذكر أن فريقاً من العلماء ذهب إلى أن (أقوم) ليست للتفضيل: فالمعنى: يهدي للتي هي قيّمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[2]. وكما قال سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[3]، أي مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على كلا الوجهين في كلمة (أقوم) فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يأتي على وجه الإطلاق في تقرير أن هذا الكتاب الكريم يرشد للطريقة التي هي أسدّ وأعدل فيمن يهديهم وفيما يهديهم له، فيشمَل الهدى - كما يقول صاحب الظلال - أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلَّ منهج وكل طريق، وكلَّ خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي ما أوضحه الزمخشري من عظمة الإعجاز ورفعة الذوق البلاغي في حذف الموصوف بقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في «الكشاف»: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملّة أو الطريقة، وأيّما قدّرت لم تجد مع الإثبات - أي إثبات الموصوف - ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقَد مع إيضاحه».

وفي خاتمة المطاف: لقد قدمت هذه اللمحة الوجيزة من القول الذي هو في سموّ موضوعه عن القرآن ومعالمه الخيّرة قليل قليل من كثير كثير،

---

(١) (فصلت: ٣٤). (٢) (البينة: ٥). (٣) (البينة: ٣).

قدمتها وأنا بسبيل الإشارة العجلى إلى أن الصفحات القادمات هنا ثمرةٌ من ثمرات رحلة ميمونة طالت بعض الشيء، منَّ الله بها عليّ - وهو ذو الفضل العظيم - صحبت من خلالها عدداً وافراً من المعالم القرآنية المكي منها والمدني، الهادية إلى كل ما هو أسدُّ وأعدل في مختلف الأحوال والشؤون، لما أنها من محكم التنزيل وإليه.

وقد كنت حريصاً - من خلال التدبّر المستطاع - على تناولها بأمانة علمية منهجية والكشف قدرَ الطاقة عن معانيها ومنارات الهداية في كل منها حسب موقعه على الصعيد المطروق في ساحة البناء الشامل المتكامل بمعناه الإسلامي الحضاري، البناء الذي تناول - مع العقيدة والعبادة والأخلاق - شؤونَ الحياة بأكملها، لما أن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيِّرة وبيانها من السنة المحمدية، ثم فهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان. وأينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فثَمّ شرعُ الله ودينه.

واللهَ أسأل أن يتقبل بقبول حسن هذا العمل النيِّر بجوهره وعطائه، المتواضع بتناوله والكلام فيه، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه، وأن يتفضل بالعفو عما يكون من زلل. إنه سميع مجيب الدعاء، لا ربَّ غيرُه ولا خير إلا خيرُه، منه التيسير والعون وإليه المرجع والمآب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة وصفوة الله من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهادين المهتدين: أجمعين.

أ. د/ محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم السنة وعلومها في جامعة الإمام محمد بن سعود، وأستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق سابقاً

رئيس تحرير مجلة حضارة الإسلام



البناء.. في شموله والأجر عليه

كان من فضل الله على أمة الإسلام أن أوسع لها في ميادين العمل، وأعطى لساحات البناء حجماً لا ينحسر دون أي لون من ألوان الجهد في النفس والمال أو غيرهما، وحكم على ذلك كله بأنه من العمل الصالح ما دام قائماً على العقيدة الصحيحة التي ينبغي أن تكون الأساس لكل تصرف؛ وأكثر من ذلك تجد أن هذا العمل الصالح قد شمل حتى المعاناة الطبيعية، وفي آيات من سورة التوبة نقع على واحد من المعالم القرآنية يضيء لنا أمر هذه القضية، ويوضح أبعادها بما لايدع ريبة لمستريب.

ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿١٢٠﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴿١٢١﴾ ﴾[التوبة: ١٢٠- ١٢١].

يذكر العلماء أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فالله تبارك وتعالى يعاتب هؤلاء المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب على تخلفهم عن النبي الكريم، ورغبتهم بأنفسهم عن نفسه وعن مواساته فيما حصل له ولجنده من المشقة لطول المسافة وشدة الحر وقلة العدة، ويبين لهم أنهم بتخلفهم قد نقصوا أنفسهم من الأجر وفاتهم خير كثير. وإنما فاتهم ما فاتهم من الأجر والمثوبة لأن ساحة الخير متسعة، والعمل الصالح ذو ألوان وشعب، فبعد العتاب الذي نجده في قوله تعالى: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ جاء التعليل بأنه لايصيبهم عطش ولا تعب ولا جوع في سبيل الله، بل ولا ينزلون منزلاً يرهب عدوهم، ولا ينالون ظفراً أو غلبة عليه إلا كتب لهم به عمل صالح.

والملاحظ أن الله يكتب هذه الأعمال من الصالحات مع أنها أعمال ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هي ناشئة، فالثواب الجزيل حاصل على كل حال، وإنهم بذلك لمحسنون. والله لا يضيع أجر المحسنين. نقرأ في ذلك قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)﴾ [التوبة: ١٢٠].

إن من دلالة هذا المعلم القرآني، أنه لا عذر لمعتذر في التخلف عن عمل يستطيعه مما أبان الله عز وجل. وإن القرآن يجند الأمة بكل طاقاتها بل ومشاعرها لعملية البناء التي حملت أمانتها بوحي من السماء، وكم في هذه الميادين المتسعة من تنمية للانطلاقة الجادة بنية خالصة تضمن سلامة العمل والاستمرار. والله ذو فضل على العالمين.



الفصل الأول

شمولية البناء

البناء، وفرة ميادينه.. والأجر عليه

لقد دلنا المعلم القرآني من خلال الآية العشرين بعد المائة من سورة التوبة أن أولئك الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قد فاتهم خيرٌ كثيرٌ، ولو حضروا لرأوا أبواب العطاء الإلهي مفتحة على مصاريعها أمامهم. والأمر ليس مقصوراً على القتال، بل إن العمل الصالح يكتب للغازي إذا أصابه الظمأ أو التعب أو المجاعة، ما دام ذلك في سبيل الله، كما يكتب لمن يطؤون موطأ يغيظ الكفار، ولاينالون من عدو نيلاً من ظفر أو غلبة مهما كان شأنه إلا كتب لهم به عمل صالح، إذ إن ذلك كله من الإحسان في الطاعة؛ لأنه في سبيل الله، والله لا يضيع أجر المحسنين.

أما الآية الحادية والعشرون بعد المائة من السورة نفسها: فقد أضافت إلى شُعب البر المذكورة شعبتين أخريين، فهؤلاء الغزاة في سبيل الله لا ينفقون قليلاً أو كثيراً، ولا يقطعون وادياً في السير إلى الأعداء أو العودة من قتالهم إلا كتب لهم، ذلكم قوله تعالى: ﴿ولاينفقون نفقة صغيرة ولاكبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم﴾[التوبة:١٢١].

ومن البلاغة القرآنية ما يرى من أنه لم يقل ههنا: كتب لهم به، كما جاء في الآية السابقة: لأن الإنفاق وقطع الوديان من الأفعال الصادرة عنهم: ولذلك قال في ختام الآية: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾[التوبة:١٢١].

وهكذا ما دام الأمر في سبيل الله، فالعمل الصالح يكتب بالأفعال الصادرة عن أولئك الذين خرجوا في سبيل الله، وبالأفعال الناشئة عن أعمالهم وليست داخلة تحت قُدرهم.

هل لي بعد هذا أن أدعو إلى التذكير بأن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ؟ ومعنى هذا أن الآيتين الكريمتين وإن نزلتا بشأن المتخلفين عن تبوك، فإن دلالتهما فيما أعطى المعلم القرآني من تعداد أبواب العمل وصنوف الجهاد: واضحة كل الوضوح.

وإذا كان البناء الذي ينشده الإسلام لا يقتصر على ميدان دون ميدان ولا يهمل جانباً لجانب آخر: لأن البنى الفكرية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع كلٌّ متكامل لا يتجزأ.

أقول: إذا كان البناء على هذا المستوى من الشمول، فإن المعلم القرآني في سورة التوبة يدعو إلى تجنيد الطاقات كلها، وبذل الإمكانات جميعها، فلكلٍّ مكانه في الصف، وساحته في العمل ودربه المسلوك في ضوء تخصصه وما يتقن، والأجر ينتظر هؤلاء جميعاً ما داموا يتحركون في مرضاة الله، وينمُّون طاقاتهم ووسائل إحكامهم للبناء بنية خالصة يبتغون من ورائها صالح الأمة، والحق أن طبيعة البناء اليوم تقتضي وعي هذه القاعدة النورانية التي يطرحها المعلم القرآني، حيث يكتب العمل الصالح حتى بوطءٍ يغيظ الكفار.

هكذا مجرد الإغاظة مدعاة للأجر والثواب، فما بالك بالأعمال البناءة المثمرة وما أكثرها، وبوسائل التنمية على كل صعيد في المجتمع وما أغزرها.

وغير خاف أن الإنسان الذي يُطمَأنُّ به للقيام بهذا الدور البنّاء والظفر بهذا العطاء الرباني مع كل عمل خلصت فيه النية.. مهما كان يسيراً، وعلى كل حركة خلصت فيها النية مهما كان شأنها ما دام في ذلك لون من المواجهة الحيَّة لأعداء الله.. غير خاف أن هذا الإنسان هو الفرد الذي صنعته التربية المتزنة ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على عينها، فهو يمارس واجباته في الحياة أداءً للرسالة ولا يغفل عن صلته بالله مهما كانت العقبات والصوارف: فهو سعيد دائماً بعبوديته لله، متحرر من كل عبودية لسواه.

إنه الإنسان الذي توافرت لطاقاته عوامل البروز إلى ساحة البناء، كما توافرت له مقومات أن يكون تلك اللبنة القوية التي تأخذ مكانها في البناء على خير وجه.

وهكذا قد يقول قائل قبل تبيُّن الأمر: ولم كان ذلك التنويه بعلاقة هذا الإنسان بإحكام البناء؟ والجواب أن الإنسان الذي يعدُّه الإسلام ليبني حضارة إنسانية عالمية في ظل عقيدة التوحيد: هو ذلك الإنسان الذي يمتلك حريته ـ وهو مؤمن ـ وإرادته، هو الإنسان الذي يظل على مستوى التكريم الذي زان الله بني آدم به، ولا يكون ذلك إلا بالعبودية الخالصة لله عز وجل وعدم الخضوع لسواه.

أما الإنسان الذي ينزل عن رتبة التكريم والتحرر من العبودية للعباد، إلى المستوى الهابط مستوى الشرك أو التشكك فيعبد وثناً، ويقدس خرافة، ويستهين بحقائق الوحي، ويضرب على عقله بالأسداد: فذلكم هو المخلوق الذي لا يصلح للبناء الذي ينشده الإسلام: ولذا فكل عمل يعمله في هذه الدنيا ينال جزاءه عليه في الدنيا وماله في الآخرة من نصيب، إذ لا وزن له عند الله يوم القيامة ولو كان سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. كالذي فاخر به الجاهليون وهم يسيئون إلى بيت الله الذي عمروه ـ وهو بيت التوحيد ـ بعبادة أوثان أحاطوه بها والعياذ بالله. لقد كان وضع القضية موضعها المناسب واضحاً كل الوضوح في مسيرة التوحيد عبر الصراع مع الوثنية. فقال الله تعالى خطاباً لجاهليي قريش: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [التوبة:١٩].



تنمية قدرة الأمة... وميادين البناء

رحلة الصراع التي تخوضها أمتنا مع التخلف ومع أعدائها الظاهرين والمستترين.. وهذه الرحلة التي لا يغني تجاهلها أو التهوين من شأنها: قد تكون من بعض الوجوه نافعة نفع المصيبة تفجر الطاقات وتستثير المشاعر، وتستخرج الإمكانات المخبوءة، وذلك كائن ـ بعون الله ـ إذا صحّت الأمة على حقيقة أنها أمة الكتاب الذي جعل منها خير أمة أخرجت للناس.

وأراني مسوقاً بعد هذه الكلمات لأصل الحديث بما هدانا إليه المعلم القرآني في سورة التوبة، والذي رأينا من أمره ذلك الإعلان العام المبدوء بقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولاينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح﴾[التوبة:١٢٠].

وهو إعلان ـ كما أشرنا من قبل ـ يتسق تمام الاتساق مع حاجة الأمة اليوم على صعيد الفرد والجماعة إلى حركة في خلاياها، لا تدع ميداناً من الميادين إلا أولته اهتمامها عن عقيدة راسخة، ووثوق بنصر الله عز وجل.

فهي حين تولي الميدان العلمي، أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو غيرها من تلك الميادين اهتمامها الموضوعي العملي ضمن إطار الإسلام وبوحي من عقيدته النيرة الخالصة: تكون قد عملت في سبيل الله.

وأنى لهذا الحافز أن يكون له مثيل في كل حوافز الدنيا التي تصطنع اصطناعاً!! إن الأمة التي طوقها الله كرامة أن تكون خير أمة أخرجت للناس، عملت في ماضيها بما دل عليه المعلم القرآني في سورة التوبة، فكنت تعجز أن ترى بؤرة خمول أو ساحة معطلة عن دائب الحركة، ووعي المرحلة.

ولذلك كان البناء والنماء على خطين مطّردين، ولا بد لمعالجة واقعنا اليوم من جسر جديد ـ تصنعه العقيدة والعلم والجهاد ـ بين الماضي والحاضر، كيما نظل على الوعي الذي أنشأ القوة، فنفيد منه بوسائل العلم الحديثة، ذات الصلة بالعقيدة والسلوك القويم.

وعلى خط من الحديث الموصول بالمعلم القرآني في سورة التوبة نرى في هذا المعلم أمانة في عنق كل مسلم ومسلمة لا يُخرج من عهدتها إلا انطلاقه للعمل في كل ميدان، واستشعار أن ذلك في سبيل الله، وأن كل قول أو عمل أو ممارسة، أو سعي، مهما قل ذلك أو كثر، فهو في ميزان الله مكتوب به عمل صالح ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[التوبة:١٢١].

إنه العطاء الكبير الذي يجعل الرحلة في خاتمة المطاف مضمونة النتائج بعون الله، وينمي قدرة الأمة في الدنيا، كما ينمي لها الأجر الجزيل في الآخرة والله لايضيع أجر من أحسن عملاً.



البناء.. بين الماضي والحاضر

الحديث عن المتخلفين عن غزوة تبوك كما رأيناه في المعلم القرآني من سورة التوبة، يجعل المسلم على يقين من أمره في أن القضية آخذة طابع التوجيه غير المحدود بزمن الغزوة أو مكانها أو أشخاصها: لأن تبوك وغيرها مما حصل في عهد رسولنا محمد ﷺ إنما كانت مؤشرات في أول طريق طويلة مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي طريق البناء.. بناء الوجود الإنساني ـ كما أراد الله ـ بناء حضارة الإنسان كما ينبغي أن تكون اتساقاً مع الفطرة، ووضعاً للأخلاق موضعها عند ممارسة الإنسان ما سخر الله له في هذا الكون من خيرات الأرض والسماء، واستخدامه ما تفتَّح له من أبواب العلم الذي يمكّنه من النظر في هذا الكون والإفادة من ذلك التسخير.

أقول هذا والمفروض أن يكون الرواد والمصلحون على يقظة من أمر الاتصال الموضوعي بين حاضر الأمة وماضيها، ليكون ذلك ـ بإذن الله ـ عامل استبدال الذي هو خير بالذي هو أدنى، وإضاءة دروب المستقبل حيث المأمول أن لا تتكرر المأساة، فتكون أمتنا في موقع الضعف بعد أن كانت صاحبة الكلمة في العالمين.

إن الكلام في المعلم القرآني عن الظمأ والتعب، والجوع، والنيل من العدو، وبعض الأمور العادية كالمشي على أرض تغيظ الكفار، وعن الإنفاق قلَّ أو كثر، وعن قطع أية مسافة قصرت أو امتدت، وأن ذلك كله كتب به العمل الصالح عند الله ما دام في سبيل الله، إن الكلام على هذه الشاكلة يعطيك صورة الخلية التي لا تنقطع عن الحركة: فهي في كل أبعادها طاقة فاعلة على ساحة البناء، ومحور مؤثر في النماء وإثراء كل جوانب الحياة.

هذه القضية الكبرى: قضية (في سبيل الله)، جعلت كل حركة مهما كان نوعها ووزنها، حين تكون على منهج البناء وتنمية الوجود الذاتي الذي يمكّن الأمة من أداء رسالتها، قيمة مذكورة عند الله تعالى.

ومن هنا رأينا مثلاً كيف أن عثمان بن عفان رضي الله عنه يحظى بنصيب وافر وحظ عظيم من الخير عند الله بتجهيزه جيش العسرة يوم تبوك، وكان ذلك من مؤشرات الضياء في التاريخ.

روى عبد الله بن الإمام أحمد أن عبد الرحمن بن حبان السلمي قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان رضي الله عنه: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم حثّ فقال عثمان: علي مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حثّ، فقال عثمان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها كالمتعجب: (ماعلى عثمان ما عمل بعد هذا).



بناء الوجود الذاتي

تعدد ميادين البناء ..

وقراءة جديدة مبصرة لمصدر الهداية

هذا القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، تدفعنا خصائص العطاء فيه إلى أن نرتاد معالمه الهادية ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

وفي ضوء ذلك إني داع كل أولئك الذين يقعون فريسة الغفلة، فيتوهمون غير الحقيقة في أمر الصلاح والإصلاح، وقد يبتعدون ولكن بنسب متفاوتة عن هدي القرآن والاستنارة بمعالمه.. إني داع كل أولئك ـ وهم من أهل الإسلام والحمد لله ـ أن يقتحموا عقبة الوهم، ويعودوا إلى قراءة جديدة واعية متدبرة لكلمات الله، ولسوف يجدون إن خلصت النيات، وواجهوها بتجرد دونما رواسب أو اقتناع مسبق مضاد: أن حبل النجاة هنا، وأن هذا الكتاب الذي أعطى أمتنا وجودها الحقيقي الذاتي في الماضي: هو الكفيل ـ بإذن الله ـ تحويلها في أفرادها ومجتمعاتها إلى أن تتمتع من جديد بوجود ذاتي حقيقي، وتكون لها الكلمة المسموعة والنصر المبين. وهانحن أولاء قد جرّبنا وأكثرنا التجارب فماذا كان الحصاد؟!

ولئن كان من البدهيات الأولية في الإصلاح، أن من واجب الأمة إذا أرادت النهوض أن تستخدم العلم، وترصد كل إمكاناتها البشرية والاقتصادية، وتوجهها وجهة البناء والنماء.. فإنّ واحداً من المعالم القرآنية والذي نعمنا بضيائه في حلقات قريبة، لم يَدَع أن يحكم العلاقة بين الإيمان وبين تعدد دروب الجهاد والعمل، فللجهاد شعبه وصوره وألوانه بدءاً من ميدان القتال إلى الإنفاق، إلى العلم إلى كل إسهام قل أو كثر في إعداد القوة، إلى تنمية القدرة الاقتصادية التي تمكّن من العالم التقني، والقدرة الذاتية الأصيلة على المواجهة دون أن تكون الأمة عالة على الآخرين.

والمهم في الموضوع: سلامة العقيدة وإخلاص النية لتكون كل حركة في سبيل الله.

ويتبع ذلك أن لا يحاول المتقاعسون إخفاء تقاعسهم بتحميل الإسلام ما هو منه براء.

ولعل من الخير أن نذكّر هنا بأن السنة كشفت عن تعدد ميادين الجهاد، وكثرة شعبه على نحوٍ يستقطب كل الطاقات والكفاءات ويضعها موضع البناء المتكامل المتناسق، وينميها يوماً بعد يوم لتعطي عطاءها في كيان الأمة الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: « من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في اهله بخير فقد غزا» أرأيت: أصبح الغزاة ثلاثة هنا: الغازي الأول، ومن جهّزه، ومن خلفه في أهله بخير.

وانظر يا أخي إلى هذه الرائعة الأخرى فيما روى ابو داود بسنده أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في خدمته الخير والرامي به، ومُنبله ».

إنه لعنوان عظيم يفترض أن يحرك العزائم ـ في ظل التطور الحديث ـ لتحصيل العلم الذي يضع السلاح وتنمية الاقتصاد الذي يمكّن منه، والتدريب الدقيق على استخدامه في معاركنا الفاصلة، وكل أولئك طريق الجنة إن شاء الله مادام في سبيل الله.



من وحي ترتيب الآيات على صعيد البناء

لعل في متابعة آيات القتال التي بدأنا بإيرادها في الماضي القريب، ما يزيد الأمر وضوحاً بشأن الترابط بين الجهاد وبين خامس ركن من أركان الإسلام.

فبعد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة:١٩١] قال جل وعز: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة:١٩٢]. وإنما كان ذلك لأن هدف القتال في الإسلام ليس تسلطاً ولااستعباداً، وإنما هو إنقاذ الإنسان من وهدة الظلم والتخلف ووضعه الموضع الذي يتسق مع فطرته ورسالته في تحقيق العبودية لله عز وجل.

ثم قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:١٩٤].

المسلم ـ وهو صاحب رسالة تخوض معركة الحياة بكل ألوانها ويستخدم لذلك كل الوسائل التي يرتضيها الإسلام ـ ينبغي أن يجمع إلى الإيمان والاستقامة: يقظةً تباعد بينه وبين الغفلة لكيلا يؤخذ بما يثيره الأعداء من ضجيج إعلامي وقلب للحقائق.

فالمعلم القرآني يعطي هنا مبدأ المقاتلة بالمثل وينمي في نفوس المسلمين حس الترقب والانتباه، فالكفار قاتلوا في الشهر الحرام: فقتال المسلمين لهم فيه غير مستنكر، والحرمات يقتصُّ بمثلها إذا انتهكت.

وما أحوج الأمة اليوم إلى هذه اليقظة، وهي تواجه فيما تواجه حملات إعلامية تستخدم سلاحاً ضد كل ما فيه خير المسلمين أو دفع العدوان عنهم، بل إن الحملات الإعلامية كثيراً ما تستهدف إضفاء الشرعية على الظلم وعمل الظالمين

والمغتصبين، وما أمرُ اليهود ومن يدور بفلكهم عنا ببعيد، ولا الضجة التي تثور على كل بلد إسلامي يحاول أن ينفض عن كاهله ثقل الاستعمار بألوانه المعلنة والمستخفية وأذى نصبوا من أنفسهم أوصياء على الدول والشعوب: بخافٍ على أحد.

إن الاهتداء بمعالم الكتاب العزيز، ووضع مضموناتها موضع التطبيق بمنهجية وواقعية: يبدو ضرورة من ضرورات المرحلة: فالإصرار على أن يأخذ البناء طريقه إلى كل ميدان اقتصادياً كان أو فكرياً، والحرص على أن تكون سمة هذه المرحلة إنماءً يزيد من فرص الطاقة الذاتية للأمة...

كل هذا يشدنا ـ إذا روعيت بجانبه المعوقات، وظروف المواجهة، ورواسب التآكل التي أصابت الأمة في مستهل هذا القرن ـ إلى الأخذ بما هو اليقين الذي لااحتمال معه، وعطاء المعالم القرآنية هو اليقين الذي لا يخضع لتجربة الخطأ والصواب ﴿ومَنْ أصْدَقُ من الله حديثًا﴾[النساء:٨٧] .

إن المعلم القرآني في سورة البقرة، بما يكشف عن الترابط بين الحج وهو عبادة بدنية ومالية ونقلة تربط الماضي بالحاضر وبين الجهاد وللجهاد شعبه ومقدماته ونتائجه.. إن هذا المعلم لآكد دليل على ضرورة الاستمساك الواعي بحبل الله وعطائه اليقيني، في رحلة لعلها من المراحل الفاصلة في تاريخ هذه الأمة ﴿إنَّ في ذلك لعِبْرة لأُولي الأبْصار ﴾ [آل عمران:١٣].



من صور المنهج القرآني في البناء والتنمية

في خاتمة الآيات المتعلقة بالقتال والتي توسطت آيات نزلت بشأن الركن الخامس من أركان الإسلام، نقرأ قوله تعالى في الآية الخامسة والتسعين بعد المائة من سورة البقرة قوله جل وعز: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[البقرة:١٩٥].

وليس علي من بأس في أن أذكّر ـ والذكرى تنفع المؤمنين ـ بأني عرضت لهذه الآية بمناسبة أخرى فيما أسلفت من القول، وألمحت بإيجاز إلى ما تدل عليه من وجوب الإنفاق في سبيل الله تذليلاً للسبل أمام دعوة الله، وحماية للمسلمين والمجتمع الإسلامي من العدوان.

وفي معرض الكلام عن أهمية سبب النزول في تحديد أبعاد المعلم القرآني، ذكرت موقف أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي رواه أصحاب السنن وغيرهم، حين أصلح الخطأ لمن قالوا في ذلك الجندي المسلم يخوض صفوف الكفار ببسالة: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال لهم أبو أيوب: لقد نزلت الآية فينا معشر الأنصار حيث قلنا: لقد نصر لله نبيَّهُ وأعز دينه فلنلتفت إلى دنيانا، فكان ترك الإعداد للجهاد والإنفاق في سبيل الله، هو الإلقاء باليد إلى التهلكة لأن في ضعف الأمة قوة العدو لا محالة.

والواقع أن هذه الآية وهي تجمع إلى ما حفلت به آيات القتال السابقة من بذل النفس والأحكام المتعلقة بذلك، والكلام عن بذل المال في سبيل الله، وبيان أن ترك ذلك إلقاء باليد إلى التهلكة، أمر يجب أن تتفتح له البصائر ليتم إدراكه بعمق.

ففي شعائر الحج بذلٌ للمال ومعاناة للمشقة وجهاد النفس بترك المألوف ومايناك الجسم من أوضار ومتاعب، وآيات القتال هنا لم تدع بمجموعها أن تضع بذل النفس وبذل المال كلاً في موضعه من الجهاد في سبيل الله. وطابع التحرك الجماعي في ظل أخوة الإسلام قائم في كل منهما، وتلك واحدة من روابط النسب بين الجهاد وبين تلك الفريضة المباركة، الأمر الذي يؤكد ما أسلفنا من ضرورة بناء المسلم بناء يجعل من صلته بالله عز وجل، أكرم حافز للجهاد وخوض ميادين البناء في ظل دعوة الإسلام.

وإذا كان بذل النفس وبذل المال أمرين أساسيين في الجهاد، فالعناية ببناء الإنسان في جسده وروحه ومشاعره، لا بد أن يرافقه الحفاظ على المال وتنمية القدرة الاقتصادية للأمة، لتضع ذلك على طريق الجهاد بدءاً من الوسائل التي لا بد منها في ضوء معطيات العلم.

فإذا وجد الإنسان وتوافرت له العقيدة الصحيحة والجسم السليم، ونمت في جو من الحرية والكرامة مشاعر الرغبة في الجهاد والاستشهاد، وسيّر المجتمع ثرواته المادية وما أعطاه الله من إمكانات في إطار من التكامل والتنسيق: حق للأمة يومذاك أن تطمئن بأنها دخلت ساحة البناء الذاتي بعيداً عن العناوين البراقة التي تفتقد المضمونات، والعاقل من علم فعمل، وذكّر فتذكر. والله لا يضيع أجر المحسنين.



ميادين الحياة.. والبناء

على جسر يصلنا بما سبق من قريب: نتابع اليوم حديث الصلة الوثيقة بين القتال فيما يتطلب من إعداد معنوي ومادي، وبين الركن الخامس من أركان الإسلام، حيث هدانا المعلم القرآني من خلال ترتيب الآيات إلى أن الكلام عن الأهلة وبيان أن البر إنما يكون بتقوى الله والالتزام بما جاء به الدين الحنيف، لا بالاستمساك بعادة جاهلية أو عادات، وأن العمل بشريعة الله هو طريق الفلاح.. أجل.

هدانا هذا المعلم القرآني في سورة البقرة إلى أن الكلام في هذه القضايا بآية واحدة ثم إتباعها بآيات ست من آيات القتال، والعودة بعد ذلك إلى الكلام عن الحج وأحكامه في سبع آيات بدأت بالآية السادسة والتسعين بعد المائة وانتهت بالآية الثانية بعد المائتين.. ذو مغزى واضح في تشابك الميادين وأن على المسلم أن يواجهها كلها بدعوة الحياة. ولقد كانت الآية الأولى بعد آيات القتال قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾[البقرة: ١٩٦] وكانت الآية الأخيرة قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾[البقرة:٢٠٣].

امر الله المسلمين في هذه الآية أن يكبروه عند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة، فمن استعجل فنفر من منى في ثاني أيام التشريق بعد رمي جماره فلا إثم عليه بالتعجيل، ومن تأخر حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره فلا إثم عليه بذلك، ونفي الإثم كائن لمن اتقى الله في حجه، لأن من اتقى الله في حجه فهو الحاج في الحقيقة، وختمت الآية بهذا التوجيه العظيم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

ولقد ألمحت إلى معاني هذه الآية بإيجاز كما فعلت في آية الأهلة، لأني أردت ذلك في الآية الأولى قبل آيات القتال وفي الآية الأخيرة، لنكون مع الموضوع من أطرافه قدر المستطاع.

وهكذا تتوحد ميادين الحياة عند المؤمن ـ كما يُلهم المعلم القرآني ـ وهكذا يواجهها، كل حلقة تدفع إلى أختها، وكل ميدان يمهِّد السبيل إلى الميدان الآخر، فلا تنافر ولا انفصام، وإنما توحيد في الوجهة إلى الله، وتوحيد في الغاية، ليكون العمل في سبيل الله دون تفريق بين ميدان وآخر.

وذلكم هو عنصر النماء الذي شهدته الحضارة الإسلامية في الماضي حين كان أبناؤها رهباناً في الليل أسوداً في النهار، وحين رأت الوجود الذاتي هو الأصل في ميادين الاقتصاد والفكر والاجتماع، كما هو في ميادين العبادة والجهاد، بل كل ذلك على الحقيقة ـ إذا خلصت النية ـ عبادة في الإسلام.

ولسوف تبرهن المجتمعات الإسلامية على نظراتها الواقعية حين تأخذ وجهة الإسلام في هذا التوحد في بنية الإنسان، وفي بنية المجتمع حيث تتوحد الميادين ـ على تعددها ـ من حيث التصور ثم الرغبة في البناء والحرص على الإنماء بكل وسائله ومقوماته وخصائصه، وما أعظم ما يترتب على ذلك من ثمرات!!



بناء الوجود الذاتي.. وصلة الأمة بالقرآن

كلما ازدادت صلة الأمة الإسلامية بكتاب ربها، وبيانه من سنة نبيها عليه الصلاة والسلام ثم ما تبينه أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان من ذينك الأصلين العظيمين الكريمين.. كان ذلك إيذاناً بأن هذه الأمة على الجادة في تطلعاتها المستقبلية، وما يحمله المصلحون من رغبة في التغيير إلى ما هو الأفضل، والانتقال بها إلى ساحة الوجود الذاتي حيث التحرر من القيود الطارئة، والقدرة على توجيه حركة الحياة وجهة البناء والنماء على هدي الرسالة الخاتمة ونور الكلمة الطيبة، التي لا سعادة للإنسانية إلا بها تصديقاً وعملاً بما تقتضيه، وهي كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

والقرآن الكريم هو أصل الأصول، والنبع السلسبيل الذي لا ينفد عطاؤه، فهو الكتاب الذي لاتنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد، وقد أشرت من قبل ـ وهذا من الأبجديات التي يفترض بالمسلم أن يكون دائماً على ذكر منها ـ إلى أن معالم الكتاب العزيز ليست مجموعة من المواعظ الأخلاقية المؤقتة، متروكٌ للإنسان أن يختار العمل بها أو لا يختار، ولكنها منهج الله الذي انزله جلت حكمته من لدنه على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، وعليهم أن يلتزموا به ويعملوا بأحكامه عقيدة وشريعة وسلوكاً لأنه المنهج الذي يقيم بناء الإنسان على اقوم وجه وأكمله، كما يتسع للحياة بميادينها جميعاً، يعمرها بالخير وينميها بالقدرة الذاتية ويظلها بالفضيلة والهدى كما يوصل ـ إن عمل به ـ إلى مرضاة الله وجنة عرضها السماوات والأرض في الآخرة.

وفي وقت مبكر من عمر الدعوة في ظل الرسالة الخاتمة، جاء الإعلان الواضح في العهد المكي عن المهمة العظيمة التي ينطوي عليها إنزال القرآن العظيم، ألا وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

وهي مهمة لا يحاصرها زمان ولا مكان ولا قوم ولا جنس ولا لغة، وذلك ما جاء في فواتح سورة مكية هي سورة إبراهيم من قول الله تبارك وتعالى: ﴿الٓرۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [ابراهيم:١-٣].

أرأيت!! لتخرج: الخطاب للنبي ﷺ، والإخراج للناس، كما هو صريح اللفظ في الآية وكما تقتضيه طبيعة الرسالة الخاصة من كونها للناس كافة، وهذا الإخراج من الظلمات في كل ناحية وفي كل ميدان.. إلى النور في هذه جميعها كذلك.

والذي يدرس بعناية ما كان عليه العالم والجزيرة العربية بخاصة يومذاك، يدرك ولو بعضاً من المراد بالظلمات التي تنزل القرآن ليخرج الناس منها.

وإذن: فما بد من أن يثوب الناس إلى رشدهم، ويستمسكوا بذلك المنهج الرباني الذي يخرجهم من الظلمات التي يشكون منها على صعيد الإنسان والحياة، وعلى مستوى المجتمع والأمة، إلى النور: النور الذي يبصر بالحقيقة ويزيل ركام الجاهلية والظلم، ويحقق للإنسان وجوده الذاتي الكريم في تنمية لطاقاته التي يراد لها أن تبني الحضارة المبرأة من الأذى والتي لا تفصل ـ وهي تبني ـ الدنيا عن الآخرة ويوم الحساب.

من أجل هذا جاء الوعيد المبكر أيضاً على الإعراض عن ذكر الله، ونبه المسلمين إلى سوء العاقبة في الدنيا والآخرة إن هم اتخذوا كلمات الله وراءهم ظهرياً، والعياذ بوجه الكريم.

نقرأ في ذلك على سبيل المثال ما جاء في سورة طه وهي سورة مكية بدءاً من الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من قول الله تعالى:

﴿ومَنْ أعْرَضَ عن ذِكْرِي فإنَّ لهُ معيشةً ضَنكًا ونحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمىٰ ﴿١٢٤﴾ قال ربِّ لمَ حشرْتني أعمىٰ وقدْ كُنتُ بصيرًا ﴿١٢٥﴾ قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها وكذلك اليومَ تُنسىٰ ﴿١٢٦﴾ وكذلك نجزي منْ أسرفَ ولمْ يُؤمنْ بآياتِ ربِّه ولعذابُ الآخرة أشدُّ وأبقىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٤- ١٢٧] .



الفصل الثاني

البناء في القرآن الكريم

ساحة الهداية القرآنية.. والبناء

أنى نظرت في كتاب الله تعالى: تستوقفك على ساحة الهداية ـ بإحاطتها وعمقها ـ تلك المنهجية التي تجمع الجزئيات تحت كلياتها العامة، وتقرر كل قضية بدليلها وتربط بين المقدمات والنتائج.. وفي أثناء ذلك تأخذ بيد المسلم إلى حيث يستثار عقله ووسائل المعرفة عنده، للعمل المنضبط والاعتبار بالتجربة والتاريخ والسعي لتنمية الملكة القادرة على تبين الأمور وإصدار الأحكام المناسبة، كل أولئك في جهد دائب على أن يكون بين العقيدة والسلوك تواؤم يفرضه التذوق لحلاوة الإيمان ولا يعوزه الاقتناع العقلي.

كان علي أن أسوق هذه الكلمات بين يدي قبسات أخرى من عطاء المعلم القرآني في قول الله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف:٣١-٣٢].

الأمر الذي يستوقف الناظر المتأمل أن الآية الثانية ختمت بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وقد جاء ذلك بعد تقرير حقيقتين هامتين: أولاهما ـ أن أحداً لا يملك أن يحرِّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ـ كما كان يفعل أهل الشرك في تحريم بعض أنواع من الحرث والثمار والأنعام.

أما ثانيتهما - فهي أن زينة الله والطيبات من الرزق هي للذين أمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، وقد أسلفنا من قبل أن الكلمات الهاديات في الآية تدل على أن المؤمنين، وإن كان يشركهم غيرهم في الاستمتاع بزهرة الحياة الدنيا وطيباتها غير أن الجنة في الآخرة خاصة بهم لا يشركهم فيها الكافرون، لأن الجنة

محرمة عليهم بالنص القرآني. ها نحن أولاء نقرأ في سورة الأعراف نفسها تبياناً لهذه الحقيقة والقاعدة التي قامت عليها في كشف أنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بجحودهم الخالقَ ونسيانهم له بجحودهم ذلكم قول الله تعالى: ﴿ونادىٰ أصْحابُ الأعْراف رجالاً يعْرفُونهُمْ بسيماهُمْ قالُوا ما أغْنىٰ عنكُمْ جمْعُكُمْ وما كُنتُمْ تسْتكْبرُون ﴿٤٨﴾ أهؤُلاء الذين أقْسمْتُمْ لا ينالُهُمُ اللهُ برحْمةٍ ادْخُلُوا الْجنّة لا خوْفٌ عليْكُمْ ولا أنتُمْ تحْزنُون ﴿٤٩﴾ ونادىٰ أصْحابُ النّار أصْحاب الْجنّة أنْ أفيضُوا عليْنا من الْماء أوْ ممّا رزقكُمُ اللهُ قالُوا إنّ الله حرّمهُما على الْكافرين ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف:٤٨- ٥٠] ثم جاء تعليل ذلك بقوله تعالى: ﴿الّذين اتّخذُوا دينهُمْ لهْوًا ولعبًا وغرّتْهُمُ الْحياةُ الدُّنْيا فالْيوْم ننساهُمْ كما نسُوا لقاء يوْمهمْ هذا وما كانُوا بآياتنا يجْحدُون ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥١].

وهكذا يبدو ختام الآية التي نحن بصددها وهو قوله تعالى: ﴿كذلك نُفصّلُ الآيات لقوْمٍ يعْلمُون﴾ متسقاً تمام الاتساق مع المضمون الذي قدّم لنا تلكما الحقيقتين اللتين أتينا على ذكرهما آنفاً. فالعلم مدعاة لإدراك ما يفصل الله من آيات.. أما الذين لايدركون تلك الآيات ولايضعون الحقيقة القرآنية موضعها من الاهتمام بها والانقياد لمقتضياتها فهم قوم لا يعلمون مهما أحاطوا أنفسهم بالدعاوى وزخرف التمويه. ولنعد إلى الآية بتمامها ﴿ قُلْ منْ حرّم زينة الله الّتي أخْرج لعباده والطّيّبات من الرّزْق قُلْ هي للّذين آمنُوا في الْحياة الدُّنْيا خالصةً يوْم الْقيامة كذلك نُفصّلُ الآيات لقوْمٍ يعْلمُون ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف:٣٢].

ألا: كم تكون البنية الثقافية عند الفرد وفي المجتمع مؤهلة للنماء والضياء إذا أخذت حظها من عطاء التنزيل الحكيم وكان لمعالمه الخيّرة مكانها في التربية والإعداد. والله الهادي إلى سواء السبيل.

واحدة من سمات المنهج الرباني
في ظل الهداية القرآنية

وقفنا المعلم القرآني وهو بصيرة من بصائر الكتاب العزيز ـ من قريب ـ على حقيقتين هامتين دلت عليهما الآية الثانية والثلاثون من سورة الأعراف، وأكد أهمية هاتين الحقيقتين ما ضُمْنَتْهُ الآية الكريمة من تقرير لمكانة العلم في فهم الحقيقة القرآنية، وأن العلم الحقيقي هو الذي يوصل إلى إدراك مرامي الكتاب العزيز والعمل بمقتضى ما يطرح من قضايا مُحالٌ أن يقوم البناء السليم للفرد والمجتمع دون الأخذ بها، لأن الله تعالى هو العليم بخلقه وهو العليم بما يصلحهم ﴿ألا يعْلَمُ منْ خلق وهُو اللّطيفُ الْخبيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

والآية المشار إليها في سورة الأعراف هي قول الله تعالى: ﴿ قُلْ منْ حرّمْ زينة الله الّتي أخْرج لعباده والطّيّبات من الرّزْق قُلْ هي للّذين آمنُوا في الْحياة الدُّنْيا خالصةً يوْم الْقيامة كذلك نُفصّلُ الآيات لقوْمٍ يعْلمُون ﴿٣٢﴾ ﴾.

وعلى صعيد الاهتمام بالبنية الثقافية للفرد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ والمجتمع المسلم، ما بدّ من إضاءة الذهن بأن من سمات المنهج الرباني في الكتاب العزيز أن كل ما هو من حقائقه: مصحوب بالدليل لا يفتقر إلى تكلّف إيصال القناعة لمن أراد مَقتَنعاً ﴿كذلك نُفصّلُ الآيات لقوْمٍ يعْلمُون﴾.

ومما يؤكد هذه المقولة: ما أوردنا هناك من آيات كريمات ذات علاقة بما هو قضاء الله في شأن كل من المؤمنين والكافرين في الآخرة وأن حرمان الكافرين من عطاء خُص به المؤمنون: إنما كان بسبب ما كانوا يتمرغون به من الجحود ونسيان يوم اللقاء، وأن عطاءه كائن لأحبابه يوم الدين والآيات التي نلمح إليها هي قول الله تعالى في سورة الأعراف بدءاً من الآية الثامنة والأربعين ﴿ونادىٰ أصْحابُ الأعْراف

رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴿٤٨﴾ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأعراف:٤٨-٤٩].

ففي الآية الأولى إخبار عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد قريش وقادتهم ـ يعرفونهم في النار بسيماهم ـ بأنه لن ينفعهم من عذاب الله، لا جمعهم المال أو كثرتهم ولا استكبارهم عن الإيمان، ويقولون لهم مشيرين إلى ضعفاء المسلمين: أهؤلاء الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمة..؟ لقد كان عطاء الله لهم عظيماً، فقد قيل لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

أما أصحاب النار: فقد حرم الله عليهم أيَّ شيء من طعام الجنة وشرابها: ذلكم ما تلا الآيتين المشار إليهما من قوله تعالى: ﴿ونادى أصحابُ النار أصحاب الجنة أنْ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف:٥٠].

ولمَ كان هذا التحريم والله لا يظلم مثقال ذرة؟ والجواب أن علة الحكم هي الكفر نفسه، ونقرأ التفصيل بشأن صنيع هؤلاء الكافرين ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا﴾.. وماذا بعد ذلك؟ ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ [الأعراف:٥١] تلك هي واحدة من سمات المنهج الرباني ـ كما اشرنا في مستهل هذا الحديث ـ كل قضية يصحبها دليلها والحكم على الكافرين ـ كما نرى ـ بأن تحريم الجنة عليهم طعامها وشرابها، اقترن بتفصيل العلة التي هي زمرة من جناياتهم، فهم الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا، وهم الذين كانوا بآيات الله يجحدون.

وهذا الذي نشهده في هذه الآيات كما أنه إعلان عن عدل الله المطلق، هو في الوقت نفسه دعوة إلى أن يأخذ الإدراك لسمات المنهج الرباني في بناء الإنسان خطه من البنية الثقافية.

كما أن ذلك ينعكس على تصورات الفرد والجماعة والحوافز التي تحفز إلى أن تتحول المعرفة إلى وجود ناطق، وخلايا تمور بالحركة في كل ميدان من ميادين البناء والإنماء والله ولي التوفيق.

البنية الثقافية ..
وانعكاس آثارها على مسيرة البناء

للبنية الثقافية آثارها التي لا تنكر على تصورات الفرد والجماعة والروح التي تحكم مسيرة المجتمع الفكرية، ولذلك ما له من انعكاسات على الحركة وما تفتقر إليه ميادين البناء من طاقات فاعلة هنا وهناك.

وإذا كان الأمر كذلك: فما بد من أن يكون ملحوظاً في تلك البنية عند الجيل المعد للبناء: أن تكون على نسب أصيل إلى مقومات الوجود الذاتي لأمتنا، والرسالة الخاتمة التي كانت بها خير أمة أخرجت للناس.

قادني إلى التذكير بهذه الحقيقة ما أسعدنا به المعلم القرآني من قريب، في آيات من سورة الأعراف من الكشف عن واحدة من سمات المنهج الرباني التي تتمثل في أن كل قضية من القضايا التي يطرحها الكتاب العزيز في تقرير لحكم من الأحكام أو الكشف عن حقيقة من الحقائق.. لابد أن تكون مقترنة بالدليل الواضح النير. وكل ذلك مسوق بالأسلوب المعجز، الأمر الذي يزيد من يقين المؤمن بأن هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ليس من كلام البشر في شيء ولكنه تنزيل الحكيم الحميد.

والآيات التي صحبنا المعلم القرآني فيها هي قول الله جلت قدرته في سورة الأعراف: ﴿ ونادىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف:٤٨-٥٠] وبمزيد من

البيان لما جناه هؤلاء الكافرون على أنفسهم فحل بهم ما حلَّ من حرمانهم عطاء الله في الآخرة جاء قوله تعالى بعد ذلك:﴿ الَّذين اتَّخذُوا دينهُمْ لهْوًا ولعبًا وغرَّتْهُمُ الْحياةُ الدُّنْيا فالْيوْم ننساهُمْ كما نسُوا لقاء يوْمهمْ هذا وما كانُوا بآياتنا يجْحدُون (٥١)﴾ [الأعراف:٥١].

ارأيت إلى قوله تعالى: ﴿ فالْيوْم ننساهُمْ كما نسُوا لقاء يوْمهمْ هذا وما كانُوا بآياتنا يجْحدُون (٥١)﴾ إنهم هم الجناة على أنفسهم. لقد جحدوا بآيات الله، ونسوا لقاء يومهم هذا بين يدي الله واتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا زينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة.. فعلوا ذلك كله فنسيهم الله وحلّ بهم ما حلّ من النقمة، إذ إنه عاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيء ولا ينساه. كما في قوله تعالى: ﴿ نسُوا اللَّه فنسيهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] وقوله جل شأنه: ﴿كذلك أتتْك آياتُنا فنسيتها وكذلك الْيوْم تُنسى (١٢٦)﴾ [طه:١٢٦] وفي آية أخرى: ﴿وقيل الْيوْم ننساكُمْ كما نسيتُمْ لقاء يوْمكُمْ هذا﴾ [الجاثية:٣٤].

وهكذا يكون المؤمن ـ فيما وراء العقيدة والمسلمات ـ على بينة من أمره فيما يحمل من قناعات وأفكار. وكلما عاود النظر في هذا المنهج الرباني الحكيم، ازداد يقيناً بأحقية الطريق التي يسلكها وهو ينشد البناء في ميادينه ومجالاته كلها، على هدي ما تمليه عقيدة التوحيد وما تنتظمه الشريعة السمحة المنبثقة عنها، غير غافل عن خطورة النسيان المومى إليه.

على صعيد الواقع: ما أشد الحاجة إلى محاصرة العوامل التي توقع في النسيان الذي يؤول بالأمة إلى ضياع الدين والدنيا!! وسبحان العليم الحكيم.



البناء.. وتغيير ما في الأنفس وسورة الرعد

«١»

أهل الإيمان الصادق والغيرة على أمة الإسلام، يؤرقهم الحرص على أن تستأنف هذه الأمة مسيرتها الخيِّرة في بناء الفرد والمجتمع على هدي كتاب اللّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأن تنمي قدرتها العلمية ومواردها البشرية والاقتصادية، وتضعها بوعي ومنهجية على الطريق الذي يسمو بها ـ بإذن اللّه ـ إلى القوة الذاتية والوجود المتميز، لتعود إلى أداء رسالتها في العالمين إعلاءً لكلمة الله. ونشراً للقيم التي تسعد الإنسان وتحفظ عليه وجوده وكرامته وترتفع به ـ في ظل بنيان حضاري سليم بقيمه الإسلامية ـ إلى حيث يسعد في الدنيا ويوم الدين ﴿ إن تنصُرُوا الله ينصُرْكُمْ ويُثبِّتْ أقْدامكُمْ ﴾ [محمد :٧].

والحق أنَّ هذه القضية الكبرى يرتبط تحقيقها بسلوك السبل المؤدية إليها والأخذ بالأسباب من أطرافها، على السنن الذي درج عليه أولئك الذين حملوا العبء وارتادوا الطريق عقيدة وعلماً وعملاً وجهاداً في سبيل اللّه.

ولذلك ما بدَّ من أن تغير الأمة ما هي عليه من أسباب الضعف: حتى يغير اللّه ما بها.

في ظل هذه المقولة درج الكثير من أولئك المؤمنين الغيورين على الاستشهاد بداهة بقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿إنَّ اللَّهَ لا يُغيِّرُ ما بقوْمٍ حتَّى يُغيِّرُوا ما بأنفُسهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وقوله في سورة الأنفال: ﴿ ذلك بأنَّ اللَّه لمْ يكُ مُغيِّرًا نِّعْمةً أنْعمها علىٰ قوْمٍ حتَّىٰ يُغيِّرُوا ما بأنفُسهِمْ وأنَّ اللَّه سميعٌ عليمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[الأنفال:٥٣].

ولكن الدلالة في الآيتين الكريمتين كلتيهما لا تعطي هذا الذي يراد الاستشهاد له، وحين أقول هذا لا أقوله تثبيطاً أو تخذيلاً لا سمح الله فهنالك الكثير من النصوص والوقائع التي تعطي أن نصر الله للأمة مرتبط بأن تنصر الأمة ربها بالاستمساك بأهداب الدين اعتقاداً من داخل النفس وقولاً وعملاً، وتستأنف الحياة على سنن السلف الصالح به كما في قول الله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[محمد:٧] وقوله جل شأنه: ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠].

ولكني أحرص على الوقوف عند الذي تدل عليه ألفاظ الآية الكريمة وسياقها وما ورد في شأنها أو قاله العلماء على وجه العموم: ففي سورة الرعد وفي سورة الأنفال: ما تعطيه الكلمات القرآنية في هذا الصدد، أن الله، وهو المنعم المتفضل، لايغير ما بقوم من النعمة فيسلبها عنهم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم من التقوى والاستقامة والإخلاص له عز وجل.

وهاكم ما ورد في سورة الرعد نذكره هنا ونثني عليه من بعد فيما يأتي بما ورد في سورة الأنفال إن شاء الله. ذلكم قوله تعالى بدءاً من الآية الثامنة: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴿٨﴾ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴿٩﴾ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴿١٠﴾ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴿١١﴾﴾ إن البنية الثقافية التي تنشئ التصورات بين يدي العمل: لا بد أن تكون سليمة الارتباط عند المسلم بالأصول الأولى في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وتحرير الخطوة الأولى على طريق البناء على ذلك: ضرورة ملحة: لأن هذه الخطوة لها مابعدها في إنشاء التصور - كما أشرنا - وفي الحوافز التي تحفز إلى العمل والإسهام فيما يعود على الفرد والمجتمع بالنفع. ولله عاقبة الأمور.

مع البناء.. وسنة الله في التغيير

«٢»

لا يعوز الناظرَ في معالم الكتاب العزيز وما لها من أبعاد في بناء الإنسان والمجتمع.. أن يقع على واحدة من ركائز المنهج الرباني كما هو في الفرقان الحكيم وبيان من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وهي أنه لا يقتصر على الدعوة إلى البناء على الوجه المطلوب، ولكن يضم إلى ذلك دعوة إلى التذكر والتبصر عند النوازل والنكبات، من أجل أن يتبين الفرد والجماعة في حال انحسار العطاء عن الأمة وتغيير الله ما بها من النعم.. أن يتبينوا الأسباب التي أدت إلى الانحسار والتغيير. فحلّ بالأمة ما حل من الضعف والتراجع عن موقعها القيادي في العالمين.

وصدق ربنا جل شأنه إذ يقول في سورة «هود»: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

وتبيُّن الأسباب بصدق وشجاعة: يسلم إلى قراءة جديدة متدبرة لمنهج البناء وطريقة القضاء على عوامل الهدم من داخل النفس ومن خارجها في توجيه وحركة الحياة، ذلك بأن لله سنة لا تتخلف في أمر التغيير ـ وهي أنه لا يغير ما بقوم ما يحبون من النعمة والإمداد بمقومات الخير والنماء إلى ما يكرهون من انحسار ذلك عنهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الطاعة والإنابة إليه سبحانه.

فطالما كانوا على الجادة استقامة على الطريقة، وسلوكاً لايخالف عن أمره، فالفضل مستمر لاينقطع، تغمرهم خيراته وثماره الطيبة في كل ميدان من ميادين الحياة.. حتى إذا غيروا ما بأنفسهم، فظلموا، وبدّلوا سوءاً بعد حسن حلت بهم النقمة، فغيّر الله ما بهم ووكلهم إلى أنفسهم والعياذ بالله.

وحرصاً على أن يكون المؤمنون على بينة من أمرهم وهم يقطعون رحلة البناء على أرض التاريخ: جاء التصريح بالسنة الإلهية المشار إليها في أكثر من موضع من كتاب الله كما نرى في سورتي الرعد والأنفال وذلك بجانب دلالات لنصوص نقع عليها في عدد من المواطن.

ففي سورة الرعد نقرأ قول الله تعالى - كما أشرنا في كلام سبق: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد :٨-١١].

وتطالعنا سورة الأنفال بقوله جل شانه: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[الأنفال:٥٢-٥٣].

وإلى أن نلتقي على ضياء البصيرة القرآنية في هذه الآيات من سورة الرعد، وفيما نقرأ في سورة الأنفال إن شاء الله: أودُّ الإشارة إلى أن الحرص على تجاوز الواقع الذي يعيشه كثير من المسلمين، وإنشاء واقع جديد تستعلن فيه كلمة الله في كل ميدان، إقامة لشرع الله، وجهاداً في سبيل الله، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وموالاة لله ورسوله والمؤمنين: يقتضي ـ كما تدل الآية ـ مراجعة الأسباب الحقيقية للتخلف، والعمل على سلوك السبيل التي تعود بها النعمة والعطاء الإلهي وذلك بالبناء الصحيح على العقيدة، وطاعة الله بكل ما للطاعة من أبعاد، ثم الأخذ بأسباب العلم والعمل والجهاد وتنمية الطاقات الفاعلة المنتجة على هذه الساحات كلها، ولله عاقبة الأمور.



البناء.. ولازم الرغبة في التغيير

«٣»

يقودنا المعلم القرآني وما تهدي إليه آيات سورة الرعد التي رأيناها من قريب إلى متابعة الرحلة المباركة مع تلكم الآيات، حيث يتضح ـ كما أشرنا في خطوة سبقت ـ أن سنة الله في أمر التغيير ـ أعني تغيير ما بالناس من النعمة على كل صعيد ـ : منوط بتغيير ما بأنفسهم من الطاعة والإنابة إليه سبحانه.. فإذا غيروا ما بأنفسهم من طاعته وتجاوزوا الحق إلى الباطل في العمل والسلوك، جانحين عن دين الله وشرعه: غيّر الله ما بهم، وحلّت الكارثة والعياذ بالله. وإنها للكارثة التي تنعكس آثارها على الفرد والجماعة والوجود الذاتي للأمة.. في أمور الدنيا والآخرة جميعاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فإذا أرادت الأمة أن يعود إليها ما كان قبل أن يغير الله ما بها من النعمة ومقومات الرقي والنصر: فما عليها إلا أن تعود بإيمان وصدق عزيمة إلى ما كانت عليه قبل أن يتغير ما بالأنفس، فالله لم يغير ما بها حتى غيّرت ما بأنفسها.. فإن رجعت عن ذلك، عاد الله عليها بفضله وخيره العميم.

وهكذا يكون من لازم الصدق في رغبة الأمة أن يرجع إليها ما حجب عنها من التمكين وتأييد الله سبحانه.. أن تحزم أمرها وتعمل على بناء الإنسان بناء سليماً يعيد إلى الفرد والجماعة ما به يستدر نصر الله وعونه، وفي الوقت نفسه لا بدّ من أن يصاغ المجتمع في حركته ومسالك النماء في جوانبه جميعاً وفق هذا النهج الذي تدعو إليه السُّنة الإلهية الحكيمة.

والآيات الكريمات صريحة في هذا الذي نقول. ولنعد مرة أخرى إلى آيات سورة الرعد حيث يقول الله جلت قدرته: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾[الرعد :٨- ١١].

تشير الآيات كما نرى إلى عدد من مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، ثم تشير إلى بعض من نعمه جل شأنه على الإنسان، وذلك في قوله سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فلكل ممن أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، ملائكة يحفظونه من الأسواء والحادثات، يتعاقبون في ذلك، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر...

وبعد هذا البيان جاء تقرير السنة الإلهية التي عمادها أن الله لا يغير ما بقوم، فيحوّل عنهم مايحبون من النعم ومقومات الخير والنماء، إلى ما يكرهون من انحسار ذلك عنهم: حتى يغيروا مابأنفسهم.

وتبارك ربنا الحكيم في سننه التي لا تتحوّل، العليم بما هو الأصلح لعباده، الذي نزّل الفرقان على مصطفاه من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله ولم يجعل له عوجاً.



البناء.. والقراءة المتبصرة لمعادلة التغيير

«٤»

أشرت في واحدة أو أكثر فيما سلف من القول: إلى أن ما يهدي إليه المعلم القرآني بشأن سنة الله الحكيمة في التغيير، أنه ـ سبحانه ـ لايغير ما بقوم من النعمة والفضل والتمكين حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعته والإنابة إليه، فإذا حلت بهم النقمة فليتحسسوا الأسباب، وليعودوا إلى الله.. وذلك ما جرى عليه علماؤنا الأولون في تفسير ما ورد في ذلك من النصوص في تلك السنة الإلهية بالعبارة أو الإشارة أو الفحوى كالذي رأينا في سورة الرعد من قول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾[الرعد:١١].

فقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بعد التذكير ببعض من نصحه سبحانه وتعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

والمقصود بالمعقبات ـ هنا ـ الملائكة ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ. وبعد هذا التذكير تأتي الإشارة إلى بعض من مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته في أنعمه وذلك بدءاً من قوله جل شأنه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ الآيات.. ومما يؤكد هذا الذي نقول، من أن المقصود أن ما يحدث للناس من تغيير الله ما بهم من النعمة: مردُّه ما جنته أيديهم بتغيير ما بأنفسهم من طاعته سبحانه والإنابة إليه... مما يؤكد ذلك أنه بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن

دُونه من والٍ ﴾. جاء التذكير من جديد ببعض الأنعم التي تحمل ما تحمل من مظاهر قدرة الله تعالى وحكمته فيما يعطي وفيما يمنع وببَعْضِ النذر التي يصيب بها من يشاء ويصرفها عمن يشاء. ذلكم قوله تباركت أسماؤه: ﴿ هُو الَّذي يُريكُمُ الْبرْق خوْفًا وطمعًا ويُنْشئُ السَّحاب الثِّقال ﴿١٢﴾ ويُسبِّحُ الرَّعْدُ بحمْده والْملائكةُ منْ خيفته ويُرْسلُ الصَّواعق فيُصيبُ بها من يشاءُ وهُمْ يُجادلُون في اللَّه وهُو شديدُ الْمحال ﴿١٣﴾﴾[الرعد:١٢-١٣] ثم جاء تقرير أن دعوة التوحيد هي دعوة الحق، وأن موقف المناهضين لها المتخذين من دون الله أنداداً: موقف مجاف للعقل السليم والفطرة، فقال تعالى: ﴿لهُ دعْوةُ الْحقِّ والَّذين يدْعُون من دُونه لا يسْتجيبُون لهُم بشيْءٍ إلاَّ كباسط كفَّيْه إلى الْماء ليبْلُغ فاهُ وما هُو ببالغه وما دُعاءُ الْكافرين إلاَّ في ضلالٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤].

فكأن الذين لا يوقظهم ما حلّ بهم من النقمة، إذ غيَّر الله ما بهم من الأنعم والتمكين يوم غيروا ما بأنفسهم من الانقياد لأمره والتوجه الصادق إليه في كل شأن من شؤونهم، كأن هؤلاء يسلكون السبيل التي قد تؤدي بهم ـ والعياذ بالله ـ إلى ماوقع فيه أولئك الذين عطلوا عقولهم وجفوا فطرتهم فاتخذوا من دون الله أنداداً. وبدل أن يكونوا مع دعوة الحق: كانوا من سدنة الكفر والضلال. إن القراءة المتبصرة اليوم المشار إليها والتي اقتضتها واحدة من سنن الله وما أقام عليه الإنسان وعلاقته بالحياة.. إن هذه القراءة من خلال واقع مرير يراد تجاوزه وعدم الركون إليه: تبدو ضرورة من ضرورات الحركة البناءة القويمة، ومن علامات التبصر والتدبر في هذه القراءة: أن تأخذ أبعادها في مناهج البناء والإعداد وأن يكون لمدلولات الكتاب والسنة في شأنها: الوجود الحقيقي في صياغة الفرد والمجتمع من أجل واقع يرضى الله عنه ورسوله، ويكون صورة مشرقة لتمكين المؤمنين في الأرض يعمرونها بالخير ويأخذون بيد الإنسان إلى ما فيه (سعادة الدارين).

وسبحان من بيده الخير كلُّه، وإليه يرجع الأمر كلُّه، وهو على كل شيءٍ قدير!!.



البناء.. والشجاعة الأدبية في مواجهة الحقيقة

«٥»

الشجاعة في التنقيب على جذور البلاء كيما تُعرف على حقيقتها، فيعمل العاملون على تجنبها وبناء الفرد والمجتمع بناءً منزهاً عنها.. هذا التنقيب ظاهرة الصدق فيما يراد من استئناف الطريق الخيرة التي تقود الأمة إلى سابق عزها ومجدها وأن يكون لها التمكين في الأرض والكلمة المسموعة في العالمين..

كل أولئك على هدي كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. حيث يوجه هذا الهدي الكريم إلى الأخذ بأسباب النصر والتمكين علماً وعملاً وجهاداً في سبيل الله.

وهذا الذي نقول قبس مما وقفنا عليه المعلم القرآني ونحن نصحب آيات من سورة الرعد في حلقات قريبات من تلك السنة الإلهية الحكيمة ـ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ـ وهي أن الله ـ وهو المنعم المتفضل سبحانه ـ لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة، أو يغيروا ما تقتضيه الفطرة التي فطرهم الله عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِمْ﴾.

ويلزم من ذلك أنه عندما يسلب هؤلاء القوم تلك النعمة: أن يراجعوا أنفسهم وينظروا في الوقائع على بصيرة، فيعودوا إلى طاعة الله منيبين صادقين، كيما يعود إليهم ما انحسر عنهم بسبب أنهم غيّروا ما بأنفسهم.

والآيات التي أسعدتنا صحبتها من سورة الرعد هي قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وما تَغِيضُ الأَرْحامُ وما تَزْدادُ وكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدارٍ ﴿٨﴾ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ الكَبِيرُ المُتَعالِ ﴿٩﴾ سَواءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ القَوْلَ ومَن جَهَرَ بِهِ ومَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ

بالليل وساربٌ بالنهار ﴿١٠﴾ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴿١١﴾ هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ﴿١٢﴾ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴿١٣﴾ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴿١٤﴾﴾[الرعد:٨-١٤].

فالله القادر الحليم العليم، والمنعم المتفضل: هو سبحانه الجدير بأن يُتوجه إليه ويفرد بالعبادة ويطاع فلا يعصى ـ وطاعة رسوله من طاعته ـ وتوضع النعم حيث أراد .. فإذا أخل قوم بهذا النهج وغيروا ما بأنفسهم من ذلك، غير الله ما بهم من النعمة والعافية والفضل.

وإلى أن نلتقي على مجموعة من آيات سورة الأنفال تزيد هذه المعادلةَ التي اقتضتها السنة الإلهية جلاءً في العقول والقلوب: أود أن أشير إلى أن من الشجاعة الأدبية بمكان أن يتعرف العاملون على الحقيقة، كما هي.

وفي المراجعة الصادقة لسنن الله في العطاء والمنع والتمكين والانحسار: ما يمد مسالك البناء بالكثير من الضياء الذي يوصل إن شاء الله إلى بنية سليمة للفرد والجماعة، وكيان ذاتي يطبع وجود الأمة في بنائها الحضاري ومواجهتها للتحديات.

وإذا حصل ذلك: فالتوفيق هناك. ذلك فضل الله والله ذو الفضل العظيم.



خطوة أخرى... مع البناء وسنة الله في التغيير

«٦»

كنا من قريب مع تلك المجموعة المباركة من آيات سورة الرعد التي بدأت بالآية الثامنة وختمت بالآية الثالثة عشرة والتي كان منها قول الله تبارك وتعالى ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾[الرعد: ١٠-١١].

وقد وقفنا المعلم القرآني من خلال تلكم الآيات المباركات في سياقها وسباقها ودلالة ألفاظها وما ورد في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وقفنا على واحدة من سنن الله الحكيمة ـ وكل سنن الله مبارك حكيم ـ وهي أن الله سبحانه ـ وهو المنعم المتفضل العليم بما يصلح عباده ـ لا يسلب قوماً ما أعطاهم من الأنعم والتمكين في الأرض. حتى يغيروا ما بأنفسهم من الطاعة والإنابة إليه ويستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. فيتبعوا السبل التي تفرّق بهم عن سبيله.

ويلزم من ذلك أنهم إذا رغبوا صادقين في أن يعود الله عليهم بما كان من فضله قبل أن يستخفهم الشيطان والهوى فيغيروا ما بأنفسهم... إذا رغبوا حقاً في ذلك أن يعودوا هم بصدق عزيمة إلى سابق استقامتهم على طاعة الله وتوجيه حركة الحياة وفق المنهج الرباني في كل شأن من الشؤون.

وإدراك تلك السنة الإلهية ببصيرة نافذة وشجاعة أدبية واعية. والعملُ بما هو لازم المعادلة التي نطرحها بمنهجية وتنظيم لعلاقة المقدمات بالنتائج والمسببات بالأسباب.. كل أولئك يبدو ـ على صعيد الواقع اليوم ـ ضرورة لا يماري فيها إلا

غافل أو متغافل. خصوصاً وأن الأمة على عتبة يقظة جديدة يراد لها أن تأخذ طريقها إلى بناء متكامل يتسع لميادين الحياة كلها في ضوء العقيدة الصحيحة والعلم النافع والجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام.

ولعل من الخير أن نذكر بما يزيد الأمر تجلية ووضوحاً ويضع كل قادر على الإسهام في البناء الخيِّر وتنمية طاقات الأمة: أمام مسؤولية دونما تخلخل أو تلكؤ.

لعل من الخير أن نذكر بقول الله تعالى في سورة هود: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾[هود: ١١٦].

وأنت واجد حقاً أنه بعد هذا الحض على النهي عن الفساد الذي هو نقيض الصلاح والإصلاح، والتنديد بصنيع الظالمين المجرمين: جاء تقرير ما جرت عليه سنة الله العادلة الحكيمة في خلقه: أنه لا يأخذ القرى بظلم وأهلها الصالحون على الطاعة مستقيمون.

وفي ذلك ما فيه من البشارة للعاملين المصلحين والنذارة للهدامين المفسدين. ذلكم قوله جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[هود :١١٧].

وسبحان من قوله الحق، وحكمه العدل، وهو الهادي إلى سواء السبيل.



البناء.. وسنة الله في التغيير وسورة الأنفال «١»

نحن اليوم على موعد مع طاقة مشرقة من آيات سورة الأنفال - وكل آي الكتاب العزيز هدىً ونور - تنقلنا البصيرة القرآنية من خلالها إلى مزيد من التجلية للأبعاد التي يحملها ما جرت عليه سنة الله الحكيمة العادلة في عباده الذين وهبهم الفطرة والعقل، وأرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب: من أنه لا يسلب قوماً ما أعطاهم ما يحبون من النعمة والعافية والأمن والتمكين.. حتى يقعوا هم في مهواة الانحراف، فيغيروا ما بأنفسهم من طاعة وانقياد لأمر الله في ممارستهم لشؤون الحياة، وذلك ما رأيناه في قوله تعالى ضمن مجموعة من الآيات المباركات في سورة الرعد: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾[الرعد: ١١].

أما الآيات التي نلمح إليها من سورة الأنفال فهي قول الله تعالى بدءاً من الآية الخمسين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

والملاحظ هنا أمور ثلاثة لا بد من الإشارة إليها.

أما الأمر الأول: فهو أن ما جاء في سورة الرعد تعبيراً عن تلك السنَّة الإلهية التي نشير إليها، والمعادلة التي تطرحها فيما يلزم على الأمة أن تصنعه إذا أرادت أن يعود لها ما حسر عنها من الخير: جاءت فيه إن بصيغة الفعل: إن الله لا يغير، ذلكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] أما هنا في سورة الأنفال: فجاء التعبير باسم الفاعل: لم يك مغيراً نعمة، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

الأمر الثاني: أن ما جاء في سورة الأنفال ـ كما نرى ـ صريح بالتعليل، تعليل أن ما أصاب آل فرعون والذين من قبلهم: إنما كان بما جنته أيديهم، وتلكم هي سنة الله وهو العادل الحكيم الرحيم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا ...﴾ ولم يرد هذا التصريح في سورة الرعد بل جاء تقرير تلك السنة الحكيمة دون التعبير بالباء..

والأمر الثالث: أن لا بد من التساؤل عما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غيَّر الله نعمته عليهم ولم تكن لهم حال ترضيه. فيغيروها إلى حال مسخوطة. واجيب عن هذا بانه كما تُغيِّر الحال المرْضيَّة إلى الحال المسخوطة، تُغيِّر الحال المسخوطة إلى أسخط منها، وأولئك ـ كما يقول صاحب الكشاف رحمه الله ـ كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات البينات، فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغيَّر الله ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجلهم العذاب.

هذا إلى ما يلاحظ من جو الآيات هنا وجوِّها هناك، والكل يتحرك على محور الهداية خصوصاً إذا ذكرنا ما لسورة الأنفال من عطاء على ساحات الأحكام الخاصة بالجهاد الذي به تستمر الدعوة ويحرس كيان الأمة والحمد لله رب العالمين.



مع البناء.. وسنة الله في التغيير

سورة الأنفال.. وخطوة أخرى

«٢»

نلتقي في هذه العجالة من القول على رحلة عجلى مع آيات مباركات من سورة الأنفال، أشرنا إليها في كلمات سلفت وقادنا إلى الحديث عنها. ما وقفنا عليه المعلم القرآني في تلكم الزمرة من الآيات في سورة الرعد التي كان منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد: ١١].

والآيات التي نعني من سورة الأنفال هي قول الله جل شأنه بدءاً من الآية الخمسين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأنفال: ٥٠-٥٤].

والملاحظ أنه ما بد من النظر في جملة هذه الآيات وما تدل عليه بمجموعها. لإدراك الموقع الذي يأخذه الحديث عن السُّنة الإلهية العادلة التي ينطق بها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[الأنفال:٥٣].

والتي تقوم كما أشرنا ونحن نصطحب آيات سورة الرعد، على أن الله بعدله المطلق لا يسلب عباده نعمة وهبهم إياها وتفضل بها عليهم من رزق وأمن وتمكين في الأرض؛ حتى يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم، فيتحولوا عن الطاعة والإنابة والشكر إلى عكس ذلك من انحراف وظلم وكفران.

ولكن قد تكون التجلية أوضح، إذا تبينا أبعاد الآية الكريمة لا من خلال موقعها من هذه الآيات هنا بخاصة، ولكن من خلال موقعها من سورة الأنفال بعامة.

من هنا يبدو لزاماً أن نذكر أن السورة التي جاء فيها قول الله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أن نذكر أن السورة التي ضمت في ثناياها هذا الكلام عن سبب هلاك آل فرعون والذين من قبلهم، والسُّنة الإلهية الحكيمة في ذلك، هي سورة الأنفال التي نزلت في غزوة بدر الكبرى، الغزوة التي كانت فرقاناً بين الحق والباطل والتي خاضتها الفئة المؤمنة، فكان ذلك عنوان أهليتها - على قلة العدد والعدة - للنصر المبين، وهي تحقق - على طريق البناء الذاتي - الوجود العملي المبتغى للإنسان المسلم والمجتمع المسلم، حيث شرع البناء على العقيدة يعطي ثماره الطيبة نماءً في كل جانب من جوانب الحياة، تتعاظم معه قدرة المسلمين على إنشاء الواقع الذي يريدون من خلال الظروف الصعبة التي استطاعوا بإذن الله أن ينتصروا عليها ويحققوا الغاية الكبرى، ويواجهوا تحديات الشرك والنفاق واليهودية ورواسب الجاهلية، صابرين مجاهدين.

لقد كانوا مع الله بالجهاد والصبر والمصابرة والمرابطة، فكان الله معهم بالتأييد المكين، والنصر المبين، وأصبحت انتصارات بدر درة في جبين التاريخ.



عودة إلى سورة الأنفال.. وسنة الله في التغيير «٣»

نعود اليوم لاصطحاب البصيرة القرآنية في آيات كريمات من سورة الأنفال، تبدأ بالآية الخمسين وتعطي فيما تعطي ذلك التبيان الواضح لواحدة من سنن اللّه التي تحكم علاقة العباد بالقدر، وأن المؤاخذة بسلب النعمة كائنة بسبب ما يجنيه العباد انفسهم.. ولازم هذه الحقيقة التي ما بدّ من بناء الإنسان المسلم والجماعة المسلمة عليها: أن على هؤلاء العباد الذين غيّر اللّه ما بهم من نعمة بسبب ما غيروا من نواياهم وما بدّلوا من سلوكهم بجانب اللّه عز وجل.. أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الاستقامة كيما يعود اللّه عليهم بالرزق والأمن والتمكين.

ذلكم قول اللّه جل شانه: والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل من هو أهل للخطاب والإدراك: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الأنفال: ٥٠-٥٤].

وكما نرى يبدو الارتباط واضحاً بين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[الرعد: ٥٣]. وبين ما سبقها من الآيات والآيات التي تلتها، إذ إن الآية الكريمة حملت التعليل الواضح لإهلاك آل فرعون والذين من قبلهم، وهي أن ما أصابهم إنما كان بكفرهم بآيات اللّه وتكذيبهم بالحق الذي جاءهم من عند اللّه، فتلك سنة اللّه الحكيمة العادلة في

خلقه، وعلى المشركين الذين يخوضون معركة الصراع مع الحق وأهله: أن يستذكروا هذه الحقيقة فلا يفتروا ويظلموا ويجحدوا أنعم الله... بل يستجيبوا لدعوة الحق ويشكروا ماأعطاهم الله من نعمة الرزق والأمن، وإلا حلّ بهم ما حلّ بأولئك الذين غيروا مابأنفسهم فغيّر الله ما بهم من النعمة والفضل ومن حال مسخوطة عند الله إلى حال أسخط منها والعياذ بالله.

﴿ كدأب آل فرْعوْن والّذين من قبْلهمْ كفرُوا بآيات الله فأخذهُمُ اللهُ بذُنُوبهمْ إنّ الله قويٌّ شديدُ الْعقاب ﴿٥٢﴾﴾ لقد كفروا وضموا إلى ذلك أنهم طغوا وبغوا بما أُعطوا، فأصبحوا جبابرة ظالمين لأنفسهم وللآخرين. فإذا سألت ما سبب ذلك رأيت الجواب في قوله سبحانه: ﴿ذلك بأنّ الله لمْ يكُ مُغيّرًا نّعْمةً أنْعمها علىٰ قوْمٍ ...﴾ الآية.

وفي نظرة واقعية ومع إطلالة مرحلة يستشرف لها البناة العاملون المجاهدون، يبدو بناء الإنسان المسلم على إدراك هذه الحقيقة بشأن تلك السنة الإلهية الحكيمة والمعادلة التي تطرحها: من لوازم التكامل والسلامة لهذا البناء، لما أن ذلك منعكس يقيناً على بنية الجماعة بما يحفظ طاقاتها ويوجهها وجهة الجد والنماء وهي تعمل على تخطي الصعاب في طريقها إلى الأمل المرتجى، والله وليُّ العاملين على رفعة هذا الدين، الصابرين على تخطّي الصعاب ولأواء الطريق!!.



إغناء دروب المؤمنين.. على طريق البناء

وسورة الأنفال

«٤»

أسلفنا غير مرة أن الفئة المؤمنة وهي تقطع رحلة البناء مرحلة بعد مرحلة، كان من زادها في تلك الرحلة ما جرى عليه الكتاب العزيز من كشف الزيف الذي يغمر أعداء الحق وسدنة الضلال، وما تحمل الآيات من وعيد لهم في الدنيا والآخرة.. إذ إن ذلك كان يعمل عمله دائماً في إبعاد المؤمنين عن تلك المزالق الجاهلية التي قوامها الهدم، ومجافاة الفطرة ووضع الطاقات والجهود في غير موضعها الطبيعي. نقرأ في ذلك قول الله تعالى في سورة هود: ﴿وما كان ربُك ليُهلك القُرى بظُلمٍ وأهلُها مُصلحُون ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]. ومن قريب صحبنا واحداً من المعالم القرآنية في آيات في سورة الأنفال تتوعد المشركين الذين كانوا لدعوة الحق بالمرصاد، وتنذرهم بأن ينالهم من سوء العاقبة ما نال آل فرعون والذين من قبلهم من كل أولئك الأناسي الذين كفروا وجحدوا النعمة ووجهوها وجهة الظلم ومجاهرة الله بالعداوة.

إذ إنهم بدلاً من أن يشكروا ويجعلوا من الأنعم وسيلة للتحول عن الحال المسخوطة التي هم فيها مقيمون مقعدون إلى حال تصلهم بالإيمان والطاعة والإنابة إلى الله.. ازدادوا جحوداً وكفروا أنعم الله واستكبروا وظلموا فوقعوا في حال أسخط منها، وقد كشفت الآيات أن ما حصل لهم ولأمثالهم قد جرى على سنة إلهية حكيمة محورها أن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والفضل والتمكين حتى يغيروا ما بأنفسهم من صادق النية وطاعة الله والإنابة إليه في كل شأن من الشؤون.

فما أصاب آل فرعون والذين من قبلهم إنما كان بسبب ما قدمت أيديهم ولايظلم ربك أحداً.

والآيات الكريمات هي قول الله تعالى في السورة المشار إليها سورة الأنفال:

﴿ولَوْ ترىٰ إذْ يتوفَّى الَّذين كفرُوا الْملائكةُ يضْربُون وُجُوههُمْ وأدْبارهُمْ وذُوقُوا عذاب الْحريق ﴿٥٠﴾ ذلك بما قدَّمتْ أيْديكُمْ وأنَّ اللَّه ليْس بظلاَّمٍ لِّلْعبيد ﴿٥١﴾ كدأْب آل فرْعوْن والَّذين من قبْلهمْ كفرُوا بآيات اللَّه فأخذهُمُ اللَّهُ بذُنُوبهمْ إنَّ اللَّه قويٌّ شديدُ الْعقاب ﴿٥٢﴾ ذلك بأنَّ اللَّه لمْ يكُ مُغيِّرًا نِّعْمةً أنْعمها علىٰ قوْمٍ حتَّىٰ يُغيِّرُوا ما بأنفُسهمْ وأنَّ اللَّه سميعٌ عليمٌ ﴿٥٣﴾ كدأْب آل فرْعوْن والَّذين من قبْلهمْ كذَّبُوا بآيات ربِّهمْ فأهْلكْناهُم بذُنُوبهمْ وأغْرقْنا آل فرْعوْن وكُلٌّ كانُوا ظالمين ﴿٥٤﴾﴾[الأنفال: ٥٠-٥٤].

وواضح أن السنة الإلهية الحكيمة التي نلمح إليها قد أعلن عنها قوله تعالى: ﴿ذلك بأنَّ اللَّه لمْ يكُ مُغيِّرًا نِّعْمةً أنْعمها علىٰ قوْمٍ حتَّىٰ يُغيِّرُوا ما بأنفُسهمْ وأنَّ اللَّه سميعٌ عليمٌ ﴿٥٣﴾﴾[الأنفال: ٥٣].

وقد جاءت الآية تكشف عن أن السبب فيما حصل لأولئك المنحرفين، هو أن العدل الإلهي اقتضى أن يكون من سننه سبحانه في علاقة الإنسان بالله: أنه ليس من شأنه ـ وهو العادل الرحيم بعباده ـ أن يسلب ما أنعم به وتفضل إلا إذا جنح أولئك المنعم عليهم عن الجادة فبدلوا نعمة الله كفراً وتنكبوا الطريق القويم.

هذا بجانب أنه سبحانه سميع بما يقولون، عليم بما يفعلون، لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وإذا كان هذا هو الوجه الأول لدلالة الآية من حيث تحذير المشركين من أن يقع لهم ما وقع لآل فرعون ومن قبلهم، فإن الوجه الثاني لدلالتها: إغناء لطريق المؤمنين وهم يصوغون الوجود الإسلامي على صعيد الفرد والمجتمع، إذ إن مما يضمن سلامة البناء، وقدرته على العطاء، أن يحال بينه وبين عوامل الضعف والانحلال وأن تتاح له دائماً فرص النماء التي تغني ميادينه الاجتماعية والاقتصادية وغيرها..

ومن دعائم ذلك مع الأخذ بالأسباب المتاحة ـ شكر المنعم سبحانه بأداء حقوق الله وحقوق العباد وتثمير ما أعطى الله من نعم وطاقات، وتسخيرها لصالح الفرد والجماعة وفق النهج الرباني الحكيم. وكل هذا لا بدَّ له من الإحسان في بناء المسلم ذكراً كان أو أنثى، بناء لا يفتقد معه شيء من هذه العوامل الأساسية التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالإيمان وقواعد التعامل مع النعم بأداء الحقوق وشكر المنعم سبحانه!.



آلية التغيير.. على ساحة البناء

وسورة الأنفال

«٥»

أشرنا فيما سبق من القول في رحلتنا العجلى مع واحدة من البصائر القرآنية، إلى أن الآية الثالثة والخمسين من سورة الأنفال وهي قول الله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[الأنفال: ٥٣]. أشرنا إلى أن مما يساعد على تجلية الأبعاد التي تأخذها هذه الآية على طريق البناء في شتى الميادين، واستمرار هذا البناء سليماً معافى قادراً على العطاء مؤهلاً للنماء.. أن لا يُقتصر في النظر إليها على مراعاة ما سبقها بدءاً من الآية الخمسين والآية التي لحقتها هي الآية الرابعة والخمسون في الآيات التي أوردناها من قريب..

ولكن ينظر إليها أيضاً من خلال أن السورة، التي كانت هي إحدى آياتها، سورة نزلت بشأن معركة الفرقان معركة بدر التي كانت فيصلاً بين الحق والباطل، وعنواناً على نصر الله الذي رافق بذل الفئة القليلة المؤمنة كل ما يستطاع على أرض المعركة للمعركة التي كانت حلقة مضيئة مباركة من حلقات تنتظمها رحلة البناء بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، والتي كان من أهدافها بناء الإنسان على الوجه الذي شاءه الله يوم خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرّم بني آدم ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً. كما أن من أهدافها بناء المجتمع والأمة. البناء الذي يعكس إشراق عقيدة التوحيد، وهي عقيدة الفطرة ومفتاح الخير لبني البشر، ويُظهِرَ بجلاء تام أن شريعة الإسلام شريعة تنتظم شؤون الدنيا والدين جميعاً،

وترتفع بمن يستمسكون بها على بصيرة: إلى التمكين في الأرض وتحقيق القوة الذاتية في الدنيا وإلى الفوز بالحسنى يوم الدين.

إن هذا الإبراز لتلك السنة الإلهية الحكيمة العادلة في تعليل ما أصاب آل فرعون والذين من قبلهم من أولئك المكذبين الكافرين بأنعم الله.. وما هو مصير اهل الشرك الذين كانوا يقارعون دعوة الإسلام.

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾[الأنفال: ٥٢].

إن هذا الإبراز الذي نراه في قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٢]. كما يزيد من يقين المؤمن بعدالة الله المطلقة وحكمته في سنته التي لن تجد لها تبديلاً.. يبدو مؤشراً ضخماً على طريق البناة الذين لا يفتؤون يبذلون ما أمكن البذل في حالات السلم والحرب، كيما يكونوا على سنن أولئك الذين كانوا وهم يصنعون التاريخ بقيادة محمد بن عبد الله ﷺ على اليقظة التامة في حالات النصر والهزيمة، والمنشط والمكره، والعسر واليسر، فلا يغيِّرون ما بأنفسهم ولا يحيدون عن الجادة لأنهم إن وقعوا في ذلك ـ لا سمح الله ـ حلّ بهم ما حلّ بأولئك الذين غيروا بأنفسهم وحادوا، فغيّر الله ما بهم.. وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

هكذا نرى أن مزيداً من الوضوح في أبعاد الآية الكريمة يمكن أن تحظى به عقولنا وقلوبنا إذا كنا على ذكر من عطاء سورة الأنفال التي نزلت بشأن معركة الفرقان، لأن غزوة بدر الكبرى ـ بملابساتها وبما ترتب عليها من نتائج في تاريخ الحركة الإسلامية البانية، وفي تاريخ الإنسان ـ تقوم معلماً هادياً في طريق تلك الحركة البانية بشمولها وتعدُّد ميادينها وفي طريق هذا التاريخ، وقد كان يومها بحق يوم الفرقان يوم التقى الجمعان كما سماه القرآن الكريم..

ولكيـلا يكون أبناء الأمـة كـالنظارة الذين همُّـهم أن يمضـوا بعض الوقت مع مـا يشـاهدون: عليهم أن يذكـروا وهم على واقع لا يغبطون عليـه ـ: أن التنبـه إلـى تلك السنة الإلهية بأن الله لا يغير مـا بقوم حـتى يغيـروا مـا بأنفسـهم: يتخطى حدود الزمـان. وأن حتماً لازمـاً تبيُّن الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء انحسار الأمـة عن موقع القيادة إلى غيره..

فذلك جوهر القضية في تحويل الأماني إلى حقائق. وتسيير طاقات الأمة بذاتية وفق المنهج الذي رسمته معالم الكتاب. وحوّله إلى وجود عملي مشرق رسول الله ﷺ ومن سار على هديه عبر العصور.

صلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخيـر سيـد الهـداة وإمـام المجـاهدين محمد بن عبدالله وعلى أولئك الذين آمنوا به وعزروه ونصـروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم اللقاء.



درس الجزاء على العمل.. في سورة الأنفال
«٦»

كثيرة هي القبسات المضيئة التي تدعونا إلى اصطحاب تلك الزمرة الميمونة من آي سورة الأنفال ـ وكل آي الكتاب خير وهدى ـ والاستزادة من عطاء البصيرة القرآنية فيها، مضموماً إلى ذلك ملاحظة الموقع الذي يأخذه قول اللّه تعالى في الآية الثالثة والخمسين - وهي واحدة منها - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[الأنفال: ٥٣].

علماً بأن الآيات المومى إليها تبدأ بالآية الخمسين وتنتهي بالآية الرابعة والخمسين. وفي دنيا الواقع، وما يتطلع إليه البناة العاملون، من بناء سليم للإنسان والمجتمع والأمة وسلوك السبل الموصلة إلى ذلك: ما يؤكد الذي تدعو إليه تلك القبسات.. ها نحن أولاء نقرأ قول اللّه تعالى في الآية الأولى مما نعنيه ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال:٥٠].

يقول تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام ـ والصراع على أشده بين المؤمنين والكافرين، وغزوة بدر بثقلها ونتائجها تأخذ أبعادها شيئاً فشيئاً في النفوس وعلى أرض الواقع ــ: ولو عاينت يا محمد حال توفّي الملائكة أرواحَ الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق وذلك ـ كما يقول مجاهد ـ يوم بدر. وفي تجلية للحقيقة وتربية المسلمين على مزيد من اليقين بأن ما ينال الكافرين إنما هو بسبب ما اجترحوا من الضلال وما قدمت أيديهم من الفساد والإفساد.. نقرأ بعد هذا قوله تعالى:﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾[الأنفال:٥١].

فهذا الجـزاء أصـابكم بسـبب مـا جنته أيديكم من الأعـمـال السيئة في حـيـاتكم الدنيـا، من محـاربة الله ورسـوله والمؤمنين ووضـعكم نعم الله التـي تفضل بهـا عليكم في طريق الجحود والضلال ﴿وأنّ الله ليس بظلّامٍ للعبيد﴾ .

أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل المنزه عن الجور تبارك وتعالى وتقدس.. ولهذا جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم من رواية أبي ذر رضي الله عنه عن رسـول الله ﷺ أن الله تعـالى يقـول: (يا عبـادي إني حـرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي اعمالكم احصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيـراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه).

وما نجده في الآيتين الكريمتين والحديث القدسي يقودنا إلى قول الله جل شانه في سورة محـمد بدءاً من الآية السـابعـة والعشـرين: ﴿ فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿٢٧﴾﴾ [محمد: ٢٧]. ﴿ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل اللهُ فأحبط أعمالهم ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٩].

إن الرحلة الشاقة التي على الجيل المؤتمن على البناء أن يخوضها بوعي وصدق نيـة وعزيمة، مدعـاة لمزيد من التبصـر في هذا الربط بين النتائج والمقدمات، وإن العدل الإلهي هو الأصل فيما ينال أهلَ الضلال من الجزاء، فما ينالهم من العقاب هو جزاء ما عملوا .

ومن ثمرات هذا التبصر: عدم الركون إلى ما يسوله حب العافية والهروب من المسؤولية من قعود عن الأخذ الحقيقي بالأسباب، وتحميل كل ما ينشأ عن ذلك للقدر فالمؤمن مع إيمانه بالقـدر مـؤمن بما تدل عليـه مـعـالم الكتـاب من ترتيب المسببات على الأسباب ـ بإرادته سبحانه ـ وربط النتائج بالمقدمات، وأنه سبحانه ـ وراء ذلك ـ الفعال لما يريد .

الفصل الثالث

الإعداد للتغيير



فهم السنن الإلهية.. وأثره في البناء والإعداد وسورة الأنفال

«٧»

كنا في كلام سبق مع الآيتين الخمسين والحادية والخمسين من سورة الأنفال وهما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ولوْ ترىٰ إذْ يتوفَّى الَّذين كفرُوا الْملائكةُ يضْربُون وُجُوههُمْ وأدْبارهُمْ وذُوقُوا عذاب الْحريق ۝ ذلك بما قدَّمتْ أيْديكُمْ وأنَّ اللَّه ليْس بظلَّامٍ لِّلْعبيد ۝ ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

وقد وقَّفنا المعلم القرآني فيهما على الحقيقة التي ما بدَّ من بناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو انثى عليها، وهي أن الله هو العدل المنزه عن الجور سبحانه، وأن ما يصيب الذين كفروا يوم القيامة هو جزاءُ ما عملوا في حياتهم الدنيا، والآية الثانية ـ فيما تنطق بالباء السببية ـ صريحة في هذا الذي تقول: ﴿ذلك بما قدَّمتْ أيْديكُمْ﴾ أي ما يحصل لكم حال توفي الملائكة لكم ايها الكافرون ﴿وأنَّ اللَّه ليْس بظلَّامٍ لِّلْعبيد﴾ إنما بسبب ما قدمت أيديكم وهو منتهى العدل.

وإنها لسُنَّة ماضية تكشف عن هذا العدل الإلهي، حيث العقوبة التي تنال الكفار منوطة بالجنايات التي يتمرغون في أوحالها كفراً ومحاربة للحق وأهله.

فما يفعله هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسل به محمد عليه الصلاة والسلام، هو ما فعله أولئك الذين كذبوا رسل الله من أمثال آل فرعون ومن قبلهم، ذلكم قول الله جلت حكمته بعد الآيتين المشار إليهما.

﴿ كدأْب آل فرْعوْن والَّذين من قبْلهمْ كفرُوا بآيات اللَّه فأخذهُمُ اللَّهُ بذُنُوبهمْ إنَّ اللَّه قويٌّ شديدُ الْعقاب ۝ ﴾ [الأنفال: ٥٢].

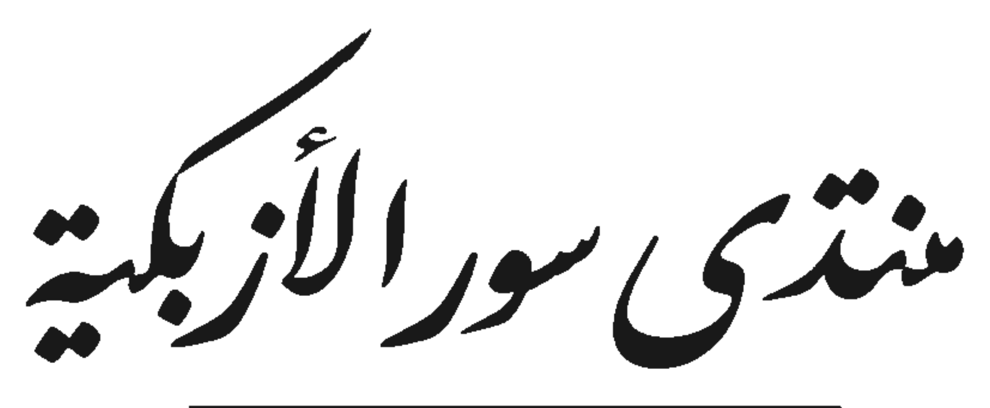
إن ما أصاب المشركين يوم بدر من العقاب، يوم كانت ضربات المسلمين تنزل بهم والملائكة يتوفونهم كما دل قوله تعالى: ﴿ ولوْ ترىٰ إذْ يتوفَّى الَّذين كفرُوا الْملائكةُ يضْربُون وُجُوههُمْ وأدْبارهُمْ وذُوقُوا عذاب الْحريق ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٠]. إن ما أصاب هؤلاء هو ما يصيب المشركين في كل وقت، وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم.. وبماذا كان ذلك؟ بما قدّموا في حياتهم الدنيا من كفر بآيات الله وعداء للحق الذي جاء به المرسلون ﴿كفرُوا بآيات الله فأخذهُمُ اللهُ بذُنُوبهمْ﴾. وعلى كل جبروتهم وطغيانهم وما توافر لهم من الوسائل لم يعجزوه سبحانه ولم يتخلف عنهم عقابه وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إنَّ الله قويٌّ شديدُ الْعقاب﴾ فهو لا يغلبه غالب ولا يفوته طاغية هارب.

وهذه الحقيقة جاء النص عليها في العديد من آيات الفرقان الحكيم، وعلى سبيل المثال لا الحصر نقرأ في سورة الزمر والكلام وعيد لمشركي قريش بعد إشارة إلى ما أصاب أولئك الذين جحدوا نعمة الله من قبل، نقرأ قوله ﴿ فأصابهُمْ سيِّئاتُ ما كسبُوا والَّذين ظلمُوا منْ هؤُلاء سيُصيبُهُمْ سيِّئاتُ ما كسبُوا وما هُم بمُعْجزين ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر:٥١]. كما نقرأ في سورة النور قوله سبحانه: ﴿لا تحْسبنَّ الَّذين كفرُوا مُعْجزين في الأرْض ومأْواهُمُ النَّارُ ولبئْس الْمصيرُ ﴿٥٧﴾﴾[النور:٥٧]. وتطالعنا سورة الأنفال نفسها بقول الله جلت قدرته: ﴿ولا يحْسبنَّ الَّذين كفرُوا سبقُوا إنَّهُمْ لا يُعْجزُون ﴿٥٩﴾﴾[الأنفال:٥٩].

غير أن هذا كله - وهو جار على سنة الله العادلة الرحيمة - لا يعني إعفاء المسلمين - وهم يتحركون تحت راية الحق - من العمل والأخذ بأسباب القوة والتمكين، فبعد قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ولا يحْسبنَّ الَّذين كفرُوا سبقُوا إنَّهُمْ لا يُعْجزُون ﴿٥٩﴾﴾[الأنفال: ٥٩] يعلن القرآن إعلانه بوجوب الإعداد فيقول تعالى: ﴿وأعدُّوا لهُم مَّا اسْتطعْتُم مّن قُوَّةٍ ومن رّباط الْخيْل تُرْهبُون به عدُوَّ الله وعدُوَّكُمْ وآخرين من دُونهمْ لا تعْلمُونهُمُ اللهُ يعْلمُهُمْ وما تُنفقُوا من شيْءٍ في سبيل الله يُوفَّ إليْكُمْ وأنتُمْ لا تُظْلمُون ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠].

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول من كتابك وسنة نبيك فيتبعون أحسنه. ووفِّق أمتنا - وهي تعاني ما تعاني - لما تحبه - سبحانك - وترضاه من تحقيق الإعداد الذي أمرتَ به يارب العالمين.




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

التكامل بين الإعداد.. وفهم السنن.. وسنة الله في أخذ الكافرين

تمهيد

كنا من قريب مع واحدة من البصائر القرآنية حيث الدلالة على بعض من عطاء قول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٥٠-٥٢].

فقد أضاءت هذه الآيات الكريمات طريق المؤمنين، وهم يزاولون عملية البناء الكبرى ويبذلون لها في ميادين الحرب والسلم.. أضاءت طريقهم كيما يتبينوا ـ وهم يصنعون التاريخ ـ أن من يقارعهم من المشركين ينتظمهم مع من سبقهم من المكذبين بآيات الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ـ سنة من سنن الله، وهي إنزاله العقاب بالكافرين بسبب أنهم كذّبوا بآيات الله، وانهم مهما طغوا وبغوا فإنهم لا يعجزونه، بل هو القادر دائماً على أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهذا واضح في قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾[الأنفال: ٥١-٥٢].

وقد أشرت فيما مضى من بيان ذلك، إلى أن الحقيقة التي ختمت بها الآية الأخيرة وهي أنه جل شأنه قادر دائماً على أخذ الكافرين وإنزال العقوبة بهم في الآخرة ولن يعجزوه أبداً ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾.. أشرت إلى أن هذه

الحقيقة قد جرى التصريح بها في مواطن كثيرة من القرآن الكريم رأينا منها ما جاء في سور الزمر والنور والأنفال نفسها، والإيمان بها لبنة مضيئة في بناء شخصية المؤمن، كما أشرت إلى أن ذلك لا يعفي المؤمنين - في حال من الأحوال - من العمل والأخذ بأسباب القوة والتمكين.

وبيان ذلك أنهما خطان لكل منهما مقوماته، ويحدث منهما التكامل في حركة أهل الإيمان على هذه الأرض، فالله تعالى قادر على أخذ الكافرين بذنوبهم وهم لايُعجزون.

والمؤمنون مطلوب منهم على صورة الوجوب أن يسلكوا السبل التي توصل إلى إعلاء كلمة الله والتمكين في الأرض، تلك سنة إلهية ماضية، ولا يجوز التخلف عن الإعداد اتكالاً على ما يوجَّهُ إلى أعداء الله من وعيد.

ثم إن ترتيب القوة على الإعداد لهذه القوة والأخذ بأسبابها، من بناء على العقيدة وارتياد لميادين العلم والعمل والبذل: سنة إلهية ماضية أيضاً.

وبعد: فهذه قضية كبرى تلامس كل خطوة يخطوها الجيل على طريق البناء والإنماء: فعلى صعيد التثقيف وإنشاء التصور بين يدي العمل والتطبيق، ما بد من أن يكون هذا التكامل واضحاً في الأذهان وانعكاس ذلك مع الخطوات العملية إيماناً صادقاً وأخذاً بالأسباب من أطرافها لا يخفى على ذي بصيرة.

والنصوص والواقع التاريخي كل أولئك دال عليه.

قائم بالحجة الدامغة على المقصرين والمتواكلين والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والخير كل الخير في أخذ النفوس بهدي السماء.



التكامل بين التصور والعمل

اعتقاد أخذ الله للكافرين.. بصحبة الأخذ بالأسباب

«١»

تعالوا نتابع الرحلة القريبة العجلى مع الحقيقة التي رأينا فيها معلماً قرآنياً مشرقاً على طريق التصور الصحيح لعملية البناء، التي من مقتضياتها ما يقوم من الصـراع بين أهل الحق وأهل البـاطل، حيث يرمي أهل الحق الذين خـالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، إلى الإحسان في بناء الإنسان وفق فطرته وعلى هدي ما شاء الله له، من أن يكون لبنة فاعلة في بنيـة المجتـمع.. كمـا يرمـون إلى بناء المجتمع في ضوء المنهج الرباني في شموله وعمقه ودعوته إلى الأخذ بأسباب القوة والتمكين، وتوجيه الإنسان إلى ما فيه سعادةُ الدنيا والفوزُ بما أعد الله لعباده الصالحين في الآخرة.

وعماد الحقيقة التي نومىء إليها: أن الله تعالى ـ وهو الغالب على أمره ـ لايعجزه أن يأخذ الذين يكفرون بآياته ويتحركون وهم معاول هدم للفرد والجماعة ـ أن يأخذهم بالعذاب وينزل بهم عقابه بما أجرموا وكانوا ظالمين ولكنه يبتلي عباده بالعمل والأخذ بالأسباب، ليعلم الذين استجابوا لربهم وجاهدوا ويعلم الصابرين.

ذلكم قول الله تعالى في سورة هود: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[هود: ١٠٠-١٠٢].

وهذا مما يزيد يقين المؤمنين بأحقية ما هم عليه وأن العاقبة للمتقين الذين يصلحون ولا يفسدون، ولا يفتؤون يضربون في ميادين الحياة بناءً وإنماءً لكل مقومات الخير والحضارة المثلى، التي يجد الإنسان في ظلها نفسه ويحقق ذاته كما أراد الله، وإذا هدموا فإنما يهدمون معاقل الباطل ليرفعوا على أنقاضها قواعد البناء القويم.

وكيما يكون المؤمنون على بينة من أمرهم، وأن منهجهم ـ وهم يبنون الإنسان ويوجهون حركة الحياة فيشيعون في ميادينها مقومات الخير والنماء ـ هو المنهج الحق.. كيما يكونوا على هذا المستوى من اليقين: تكرر التذكير في السور المكية والمدنية من الكتاب العزيز على السواء، بأن الله لا يعجزه أن يأخذ أولئك الكافرين الظالمين الأخذ الأليم الشديد.

نقرأ على سبيل المثال في سورة هود ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثامنة عشرة قول الله تعالى: ﴿ ومَنْ أظْلَمُ ممَّن افترىٰ علىٰ الله كذبًا أُولَٰئك يُعْرضُون علىٰ ربّهمْ ويقُولُ الأشْهادُ هؤُلاء الّذين كذبُوا علىٰ ربّهمْ ألا لعْنةُ الله على الظّالمين ﴿١٨﴾ الّذين يصُدُّون عن سبيل الله ويبْغُونها عوجًا وهُم بالآخرة هُمْ كافرُون ﴿١٩﴾ أُولَٰئك لمْ يكُونُوا مُعْجزين في الأرْض وما كان لهُم مّن دُون الله منْ أوْلياء يُضاعفُ لهُمُ الْعذابُ ما كانُوا يسْتطيعُون السّمْع وما كانُوا يُبْصرُون ﴿٢٠﴾﴾[هود: ١٨-٢٠].

ونقرأ في سورة العنكبوت، وهي سورة مكية أيضاً، قوله تعالى في الآية الثانية والعشرين خطاباً للكافرين المكذبين: ﴿وما أنتُم بمُعْجزين في الأرْض ولا في السّماء وما لكُم مّن دُون الله من وليّ ولا نصير ﴿٢٢﴾ ﴾[العنكبوت: ٢٢].

وإلى أن نلتقي على نماذج من آيات مدنية تزيد الأمر جلاءً، أود أن أذكر بما أشرت إليه من قبل، من أن هذه الحقيقة على أهميتها العظيمة في بناء التصور عند أهل الإيمان، قد صحبتها في الكتاب الكريم مقولة تشد إلى العمل والأخذ بالأسباب

والخطوة الواثقة التي يخطوها أولئك الذين يصنعون التاريخ: هي تلك التي تجمع إلى الاعتقاد الجازم بما أخبر الله وبما وقع من أخذه للكافرين أخذ عزيز مقتدر.. تجمع إلى ذلك، استكمال شرائط البناء السليم للدنيا والآخرة جميعاً من عقيدة صحيحة وعلم نافع، وعمل صالح وجهاد في سبيل الله.



مع البناء... والتكامل بين التصور والعمل «٢»

الحقيقة التي وقفنا عليها المعلم القرآني في منهج البناء على صعيد التصور عند الفرد والجماعة وفي ساحات العمل والتطبيق، من أن الله قادر لا يعجزه شيء عن أخذ أهل الكفر: دلت عليها وعلى ما يجب أن يصحبها ـ مع الاعتقاد ـ: من العمل والأخذ بالأسباب، تلك المجموعة من الآيات المباركات في سورة الأنفال المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عند الله الَّذين كفروا فهُمْ لا يُؤْمنُون ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنفال:٥٥]. وكان آخر ما رأينا منها قوله تعالى:﴿ولا يحْسبنَّ الَّذين كفرُوا سبقُوا إنَّهُمْ لا يُعْجزُون ﴿٥٩﴾ ﴾[الأنفال:٥٩].

ولعل مما يزيد الأمر تجلية ووضوحاً وترسيخاً للتكامل بين اعتقاد المؤمن بقدرة الله تعالى، وأنه الغالب على أمره الذي لا يحول دونه ودون عقاب الكافرين على بغيهم وظلمهم شيء، وبين واحدة من البدهيات في حركة الإسلام، وهي وجوب الالتزام بالعلم والعمل والجهاد لإنشاء الوجود الإسلامي الحقيقي في نفس الإنسان وفي كل ميدان من ميادين المجتمع... لعل مما يزيد الأمر تجلية أن ننظر في الآية التي تلت: فبعد تقرير ما عليه الكفار من الجحود وخيانة المواثيق والعهود، وبيان زمرة مضيئة من أحكام التشريع الدولي التي تقيم وزناً للأخلاق حتى مع الأعداء الذين يدبرون الخيانة: جاء الأمر بإعداد القوة المستطاعة، مع الإشارة إلى ما يحقق ذلك من خير على ساحة الصراع بين الحق والباطل، بين البناة العاملين المخلصين الذين يرتادون طرائق الحضارة الإسلامية المثلى، وبين أولئك الهدامين الذين يخالفون الفطرة في معتقداتهم، وديدنُهم استخدام ما أعطوا من وسائل: على ساحة

الهدم الحقيقي للإنسان وتغيير وجهته التي من أجلها خلقه الله في أحسن تقويم.. ومع هذه الإشارة جاءت البشارة لأهل الإنفاق في سبيل الله من أجل إعداد القوة للجهاد.

فبعد قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴿٥٩﴾﴾[الأنفال:٥٩]. نقرأ قوله سبحانه: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴿٦٠﴾﴾[الأنفال:٦٠].

نعود إلى القول بأن القراءة المتبصرة للحقائق التي يطرحها القرآن على طريق البناء، بناء الإنسان والمجتمع والأمة وتنمية ما لدى هذه الأمة من طاقات وإمكانات بشرية واقتصادية وغيرها.. نعود إلى القول بأن القراءة المتبصرة لتلك الحقائق: ضرورة يمليها ـ بعد الإيمان الصادق ـ واقع ما بد من تجاوزه إلى واقع آخر تتشنه مقومات إيجابية من العقيدة والعلم النافع والعمل المخلص الدؤوب، والجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام. وصدق ربنا جلَّ شأنه إذ يقول: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].



بناء الحياة.. وصياغتها
وفق الكلمة الطيبة (العقيدة)

رأينا فيما سبق من القول بعض الآيات المكية التي تعمق في حسّ المؤمن ووجدانه على صعيد التصور والاعتقاد، أن الله تعالى لا يعجزه أن يأخذ الكافرين الظالمين أخذاً أليماً شديداً، جزاء ما تكسب أيديهم وما يجترحون.. الأمر الذي ينمي عند المؤمن طاقات الخير والاندفاع الذاتي إلى صياغة الحياة وفق الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» لأنه على الحق الأبلج الذي لايقبل الاحتمال. ولما أن الحقيقة المشار إليها يصحبها دائماً دعوة إلى امتثال أمر الله في العمل والأخذ بالأسباب، بعيداً عن التواكل والقعود الأبله، بانتظار ما يحل بالكافرين من أوخم العواقب.

ومما رأينا من الآيات هناك قول الله تعالى في سورة مكية هي سورة هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود:١٨-٢٠].

ولقد كانت حصيلة النهج الذي انتهجه هؤلاء الكفرة الظالمون، أنهم خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون. ذلكم قول الله تعالى في أعقاب الآيات الآنفة الذكر ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود:٢٠].

ونحن اليوم على موعد مع بعض من الآيات المدنية التي تغني طريقنا إلى الحقيقة، وتنبه بالتكامل الذي يرمي إليه المنهج الرباني في تحديد المسار الذي على المسلمين أن يسلكوه تصوراً وتطبيقاً. وهم يزاولون عملية البناء الكبرى ويقفون على أرض التاريخ، صورة لنفاذ قدر الله وعظيم حكمته فيما يكون من الصراع بين الحق والباطل، وعاقبة كل من أنصار الحق وأنصار الباطل، إذ لا يستوي من يرتادون للبشرية طرائق الخير وسعادة الدارين، ومن همُّهم الهدم واستخدام الوسائل المتاحة للضلال والافساد.

ها نحن أولاء نقرأ في سورة الأنفال آيات ـ أشرنا إلى بعضها من قبل ـ وهي قول الله تعالى: بدءاً من الآية الخامسة والخمسين ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال:٥٥-٥٨].

تلا ذلك قوله جل شأنه: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[الأنفال: ٥٩] لاتحسبن يا محمد أن الذين كفروا فاتونا بما توافر لهم من أسباب، وما يصطنعون من المكر والحيلة.. لا تحسبنَّهم فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت سلطان قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا.

أجل إنهم لا يعجزون الله وهو الغالب على أمره.. ولكن على المؤمنين، وهم أصحاب رسالة تزيل ركام الأذى وتبني الحياة على وجهها الأكمل... عليهم أن يكونوا كفاء المهمة الكبرى فيجعلوا من انفسهم جنوداً لله ينفذ من طريق قولهم وجهدهم قدر الله في أولئك الكافرين في الدنيا، اما في الآخرة: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[الشعراء: ٢٢٧].



التكامل بين التصور والتطبيق وآيات من سورة الأنفال

في توجه إلى عطـــاء المعلم القرآني في تلكم الآيـــات التي رأيناهـــا من قريب من ســـورة الأنفـــال، نعـيـد إلى الأذهان أن الحـقـيـقـة التي نبـه إليـهـا قـول الله تعـــالى: ﴿ ولا يحسبنّ الّذين كفرُوا سبقُوا إنّهُمْ لا يُعْجزُون ﴿٥٩﴾﴾[الأنفال: ٥٩] والتي عـمـادها أن الله لايعـجـزه أن يأخـذ الذين كفـروا بظلمهم وجحـودهم.. هذه الحـقـيـقـة قد سـبـقت بالحكم بتقـرير أن شـر مـا دب على وجـه الأرض هم الذين كفـروا فهـم لا يؤمنون، الذين كلمـا عـاهـدوا عـهـداً نقضوه مـسـتـهـينين مـسـتـهـترين، وكلمـا أكدوا ذلك العهد بالإيمان نكثوه متابعين مامردوا عليه من الهدم والضلال ﴿وهُمْ لا يتّقُون﴾ أي لا يخافـون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام.. كل أولئك كان صنيعهم مع محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿ إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الّذين كفرُوا فهُمْ لا يُؤْمنُون ﴿٥٥﴾ الّذين عاهدتّ منْهُمْ ثُمّ ينقُضُون عهْدهُمْ في كُلّ مرّةٍ وهُمْ لا يتّقُون ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنفال:٥٥-٥٦]

ثم جاءت الآيات على توجيهات وأحكام تتعلق بالحرب والسلم.. فمن أجل النصر وإدْخال الرعب في قلوب الأعداء الهدّامين البادئين بالأذى الذين هم وراء سـاحـة المواجهة، جاء هذا التوجيه الرباني ﴿ فإمّا تثْقفنّهُمْ في الْحرْب فشرّدْ بهم مّنْ خلْفهُمْ لعلّهُمْ يذّكّرُون ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال :٥٧].

﴿فإمّا تثْقفنّهُمْ في الْحرْب﴾ تغلبـهم وتظفـر بهم فـي حـرب، والخطاب للنبي عليـه الصـلاة والسـلام ﴿ فشرّدْ بهم مّنْ خلْفهُمْ لعلّهُمْ يذّكّرُون﴾. فـأثخنهم قـتـلاً ليـخـاف من سـواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، وهذا لون من الحرب

النفسية التي تدخل الروع في قلوب الأعداء القريب منهم والبعيد ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل الذي صنع بغيرهم. لأن هذه اللغة هي اللغة المجدية في خطاب العدو الذي لا يني يخون وينكث العهود.

ولكن هذا كله لا يعني أن يقع المسلمون ـ على ساحة الحقوق الدولية والتعامل مع الأعداء ـ في الغدر أو الخيانة، بل إن الوفاء هو الأصل ولكن مع الحذر والبعد عن الغفلة، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

تخاطب الآية الكريمة قيادة المسلمين التي تتمثل في محمد عليه الصلاة والسلام، وإما تخافن من قوم عاهدتهم خيانة، نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، وخروجاً على ما اتفق عليه، فانبذ إليهم على سواء أي فانبذ إليهم عهدهم على سواء، أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم: فلا يجوز نقضه سراً دون إعلامهم، بل لا بد من إعلامهم بذلك وإن كانوا هم يسلكون سبيل الخيانة، وذلك حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك. وعلة ذلك في شريعة الإسلام أن الله لا يحب الخائنين، فالخيانة حتى ولو كانت في حق الكفار: لا يحبها أيضاً تباركت أسماؤه وتعالى وتقدس.

وبعد هذا التوجيه إلى ما هو من عمل الإنسان وجهده فكراً وتصوراً وتطبيقاً في حالات السلم والحرب، والأخذ بالأسباب المناسبة، كيما يتحقق انتصار الحق وأهله دونما حيف على الأخلاق، فلا خيانة ولا غدر حتى مع ألد الأعداء.. بعد هذا التوجيه جاء ما يدل على التكامل الذي ارتضاه المنهج الرباني للمؤمنين البناة فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال: ٥٩].

إن على المسلمين اليوم أن يكونوا على شجاعة تامة في قياس المسافة التي تفصل واقعهم عن الحقيقة القرآنية. كيما يعملوا على تجاوزها بإيمان وموضوعية. فيجمعوا، إلى اعتقاد ما يجب اعتقاده: سلوكاً جاداً يتسم بارتياد منابع القوة: علماً وعملاً وحرصاً على الجهاد في سبيل الله، والحمدُ لله الذي هدانا إلى ما فيه سعادة الدنيا والنجاة يوم الدين.



البناء.. ومواجهة التحديات

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق، على أن الحقيقة التي طرحها الكتاب العزيز، والتي عمادها أن الله تعالى لا بد آخذ أهل الكفر الظالمين أخذاً يتناسب مع جحودهم وظلمهم كفراً وتكذيباً بآيات الله ومحاربة للحق وأهله في كل ميدان...

هذه الحقيقة يصحبها في المنهج الذي على المسلمين أن يأخذوا أنفسهم به، على صعيد التصور وفي ساحات العمل والتطبيق، حيث الصياغة المتكاملة لشخصية الفرد وبُنى المجتمع ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عند الله...﴾ .. يصحبها أنه لا تنافي بين الإيمان بأن الله لا يعجزه أن يأخذ الكافرين بآثامهم وظلمهم، وبين ما هو مطلوب من أهل الإيمان الذائدين عن الحق: من أخذ أنفسهم بما يمليه المنهج الرباني من ضرورة العمل والجهاد واستنفاد الطاقة على طريق البناء السليم للفرد والمجتمع، بل إن ذلك هو الواجب.

والمخالفة عن هذا النهج عدول عن الصواب، وتناقض بين المعتقد والسلوك. والآيات التي وقفنا المعلم القرآني من خلالها على هذا الذي نقول، هي آيات من سورة الأنفال بدأت بالحكم على الكفار وأنهم شر ما دب على الأرض، فهم لايؤمنون، ولا يفتؤون ينقضون العهود والمواثيق.

ثم أوضحت للرسول عليه الصلاة والسلام الطريق التي عليه أن يسلكها معهم في حالات الحرب والسلم، وهي طريق تضمن النصر بإذن الله، وتلقي الرعب في قلوب من هم وراء الساحة المواجهة المباشرة من الأعداء. وفي الوقت نفسه نراها طريقاً لاتجفو الأخلاق الإسلامية في قليل ولا كثير.

ذلكم قول الله تبـــــارك وتعـالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال:٥٥-٥٨].

وبعد هذا جاءت الإشارة إلى أن هؤلاء الكفار لن يفلتوا من عذاب الله في الآخرة، وإن كل ما يتوافر لهم في الدنيا من أسباب لن تحول دونهم ودون غضب الله وعقابه فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[الأنفال: ٥٩].

وريثما نلتقي في خطوة قادمة مع استكمال عطاء البصيرة القرآنية في هذه القضية الكبرى، أودُّ الإشارة إلى هذا الإعجاز القرآني في تقرير الحقائق بتكامل منقطع النظير. فالتصورات كلٌّ لا يتجزأ من خلال المنهج الرباني، وشريعة الإسلام نظام كامل للحياة في السلم والحرب وفارق ما بينها وبين القوانين التي يضعها البشر في العلاقات الدولية ـ كما نرى هنا ـ أن شريعة الإسلام ـ كما أنها حرب على الباطل ـ فهي حربٌ على الانحراف الخلقي حتى مع الأعداء، ولكن توجه أبناءها إلى الحذر البالغ واليقظة التامة واستنفاد الطاقات الممكنة في الإعداد والاستعداد، بناءً للقوة الذاتية التي ترفع راية الحق وتمكن لأهله في مواجهة الباطل والظلم وما تحمله الأيام من تحديات.

والمهم أن يكون المسلمون على وعي للواقع بكل أبعاده، وأن يكونوا - بعون الله - قادرين دائماً على استخدام اللغة المناسبة في مواجهة التحديات، ولله عاقبة الأمور.



صورة التكامل.. في توجيه حركة البناء وسورة الأنفال

في معرض الحديث عن التكامل في منهج البناء ـ كما تدل عليه معالم الكتاب العزيز ـ بين الاعتقاد بقدرة الله القاهرة وأنه لا يعجزه شيء ـ كائناً ما كان ـ أن يأخذ الكفار بظلمهم أخذ عزيز مقتدر، وبين ضرورة الأخذ بالأسباب وامتثال أمر الله في العلم والعمل والجهاد..

في معرض الحديث عن هذا التكامل من خلال آيات مباركات ست من سورة الأنفال بدءاً من الآية الخامسة والخمسين.. هدانا المعلم القرآني فيما وقفنا عليه من عطائها إلى بعض الأحكام المتعلقة بالتشريع الدولي والتي تضبط شؤون المعاهدات والمواثيق بين المسلمين وأعدائهم، وتنبه المسلمين على مكامن الخطر وما ينبغي لهم أن يفعلوه حين يخافون الخيانة ونقض المواثيق من أولئك الأعداء.. تنبههم على ما ينبغي أن يفعلوه ضمن الحدود التي لا تتجافى قيد أنملة مع أخلاق الإسلام.

وتتضح أهمية هذا النوع من البيان، حين نضعه في إطاره الصحيح حيث بُنَاةُ المجتمع الجديد الأمثل يتحركون في حالات السلم والحرب بإيمان راسخ، وصبر لايعرف السآمة، لإنجاز كل ما من شأنه ضمان السلامة للبناء، ودفع العاديات عنه، وتنمية طاقات العطاء والبذل على كل صعيد، وفتح الأبواب الموصدة دون دعوة الله ـ أن تنتشر وتُسعد البشرية ـ في كل صقع من أصقاع الأرض.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى في السورة المشار إليها: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ

من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال:٥٥-٥٨].

هكذا تبدو الحركة الفاعلة المنتجة على هذا الوجه من التكامل: كشف عميق عن مكامن الخطر في تصرفات الأعداء خيانة وغدراً، وفي الوقت نفسه: توجيه إلى مايجب عمله في هذا الميدان من العلاقات الدولية دونما عدوان على الأخلاق.. وماأعظم أن تتسم تصرفات أهل الحق بالأخلاق، وهم أقوياء لا تفوتهم صغيرة ولاكبيرة من صنيع أعدائهم ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٨]. من أجل هذا كان لا بد من حراسة الأحكام، وحماية النهج الأخلاقي المراد، كيما يكون السلوك المنسجم معها: عنوان سمو في التعامل حتى مع الأعداء، لا صورة استكانة وغفلة يتوهمها أولئك الأعداء. وفي الآية التي تلت توعد الله الكافرين بأنهم لا يعجزونه: ما أعطى الصورة الصحيحة للحركة كما يجب أن تكون، وإنها لآية مظلومة الدلالة عند المسلمين إلى حد الفجيعة.. حتى كأنه قد حيل بين تلك الدلالة والواجب الذي تُحملهم إياه، وبين أن تأخذ أبعادها الحقيقية في حياتهم تأثيراً وفاعلية وحراسة للوجود الذاتي في الداخل والخارج.

تلكم هي قول الله تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴿٦٠﴾ ﴾[الأنفال: ٦٠] وفي أعقاب ذلك إني مذكر، والأمة على أعتاب يقظة جديدة تبدو تباشيرها في الأفق على صعيد العلم والعمل والجهاد، إنّي مذكر بقوله تعالى: ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق : ٣٧].



البناء.. ونظرات أخرى إلى سنة التغيير

فيما سعدنا به من قبل من صحبة آيات من سورة الرعد وأخر من سورة الأنفال: قادنا عطاء تلك الآيات إلى واحدة من السنن الإلهية في حكمتها وعدلها ورحمتها. وهي أن الله تبارك وتعالى لا يغير ما بقوم من النعمة والفضل والتمكين، حتى يغيروا ما بأنفسهم من إخلاص النية وطاعة الله تعالى والإنابة إليه، والتساوق مع الفطرة التي فطرهم الله عليها. وقد كان محور الدلالة على ذلك ما جاء في سورة الرعد من قول الله جل وعز: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾[الرعد: ١١].

وما جاء في سورة الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال:٥٣-٥٤].

هذا بجانب ما سبق الآيات في كلتا السورتين المباركتين وما لحقها، الأمر الذي يزيد الحقيقة وضوحاً ويكشف عن أبعاد تلك السنة الإلهية الحكيمة في رحلة البناء الكبرى، التي تحدد الغاية وترسم الطريق الموصلة إليها بإذن الله.

ولما كان الواقع الذي تعيشه أمتنا صورة تطبيقية لتلك السنة، إذ إن الله لم يغير ما بهذه الأمة التي خصها بما خصها به حتى غيّرت وبدّلت، وأعرضت في كثير من ميادين حياتها، عما لا يجوز الإعراض عنه: عقيدة هي حجر الزاوية في البناء السليم للإنسان، وشريعة تنظم شئون الحياة كلها على أفضل وجه وأكمله، وسلوكاً لايدع في الاستقامة وصدق الوجهة زيادة لمستزيد.

أقول: لما كان الأمر كذلك، وتباشير يقظة جديدة تطل ولو على استحياء... فمن المفيد أن تكون لنا نظرة أخرى إلى ما ورد في سورة الأنفال بشأن السنة الإلهية المشار إليها، إذ إنها اقترنت بنماذج موضحة فيما حصل لأولئك الذين انحرفوا عن الصراط السوي فغيّر الله ما بهم وحرموا من ذلك الخير العظيم.

ثم جاءت الكلمات الهاديات على ذكرها تعلل بها ما وقع، وتنذر المشركين المعاندين للحق وأهله أن يقع بهم ما وقع لغيرهم، ها نحن أولاء نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال:٥٠-٥٢].

والمطلوب اليوم: وقفة شجاعة في مواجهة الواقع والأبعاد التي ترسمها سنة الله في التغيير.. وقفة شجاعة يمدها يقين لا يقبل الشك، في أن العمل على تغيير الواقع هو الذي يعود بالأمة إلى ما كانت عليه قبل أن تغير ما بها، ويحلّ بها ما حل من التخلف والانحسار عن موقع الريادة والقيادة، فمن لوازم السُّنة الإلهية والمعادلة التي طرحتها وصدَّقها الواقع التاريخي في الماضي والحاضر.. من لوازم ذلك: أنَّ الأمة إذاعادت إلى منابع الخير التي حولها ندندن، مصحوباً ذلك بإخلاص النية في العلم والعمل والإقبال على الجهاد في سبيل الله: عاد الله عليها بالعناية والتمكين، فهل نحن فاعلون؟!.



الفصل الرابع

البناء وبعض آيات القرآن



بعض آخر من أبعاد آيتي التغيير في الرعد والأنفال

أشرنا في كلمات سلفت إلى ما يهدي إليه المعلم القرآني الذي صحبنا بعضاً من عطائه في الآية الثالثة والخمسين من سورة الأنفال، من أنه لا محيص عن وقفة شجاعة في مواجهة الواقع والأبعاد التي ترسُمها هذه الآية الكريمة، والآية هي قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال :٥٣].

ولا يعجزك أن ترى أن للآية أبعاداً ينبغي تبينها واتخاذها زاداً على طريق البناء الثقافي القويم، كيما يكون الجيل قادراً في تصوره وحوافزه الحقيقية على خوض معركة التحويل إلى ما هو الأفضل والعمل على صياغة المجتمع الجديد، والتحرر من ربقة الواقع الذي هو صورة تطبيقية لتلك السنة الإلهية الحكيمة. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[الأنفال:٥٣].

ها هو ذا المعلم القرآني يقفنا من خلال الآية الكريمة على أن الله تعالى عدل في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة تفضل بها عليهم، إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويجفوا فطرتهم، ويستبدلوا الانحراف وقلب الأوضاع بالاستقامة وطاعة الله ورسوله. فيكونوا مستحقين لأن يغير الله ما بهم مما أنعم به عليهم ابتلاءً واختباراً فلم يقدروا تلك النعم ولم يشكروها.

هذا من جانب، ومن الجانب الآخر تراه جل وعز يكرم الإنسان أعظم تكريم، حين يجعل قدر الله ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وما تكسب يداه، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في الوجهة والنوايا

والأعمال. وما يختارونه هم لأنفسهم من أوضاع. وترتيب هذا على ذلك واضح في الآية ﴿ذلك بأنَّ الله لمْ يكُ مُغيِّرًا نِعْمَةً أنْعمها على قوْمٍ حتَّى يُغيِّرُوا ما بأنفُسهمْ﴾: يغيرون مابأنفسهم فيغير الله ما بهم. ومن الجانب الثالث: تلقي الآية هنا وأختها في سورة الرعد تبعة عظيمة ـ تقابل التكريم الذي أشرنا إليه ـ على هذا الكائن البشري وإن كان تحميل التبعة من التكريم أيضاً لأنه لا يسأل إلا من هو أهل لحمل التبعة والتكليف.

فهو يملك ان تبقى انعم الله عليه وأن تزداد وتنمو إذا هو استقام وشكر ﴿لئن شكرتُمْ لأزيدنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]. وإذا غيّر وبدّل، فبطر وكفر النعمة زالت تلك النعمة بسبب منه والعياذ بالله.

وهكذا تحملنا الكلمات الهاديات إلى ما به تتبين فاعلية الإنسان على طريق البناء وترتيب النتائج على المقدمات، فيبدو عنصراً إيجابياً في صياغة مصيره ومصير الأحداث من حوله بإذن الله وقدره الذي يجري ـ كما شاء سبحانه ـ من خلال نيته وعمله وسلوكه ـ وينتفي عنه أن يكون عنصراً سلبياً ـ كما تريد له المذاهب المادية ـ يخضع لحتميات تتوالد وتتكاثر. في التاريخ والاقتصاد والتطور.. وغير ذلك إلى آخر تلك الحتميات التي تبدو ـ كما يريد أصحابها ـ وليس للإنسان إزاءها حول ولاقوة. ومع الكلام المعسول والدعاوى العريضة بشانه: لا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه وهو ضائع، لأنه ولّى وجهه إلى غير ما تمليه الفطرة..

أيها الرواد: وتحملنا الكلمات الهاديات أيضاً بسناها وعطائها إلى قضية بالغة الأهمية على طريق التكوين الفكري والتصور الا وهي التلازم بين العمل والجزاء، وكيف ان الله جعل من هذا التلازم سنة يجري بها قدره، فهي عين الحكمة والصواب، ولا يظلم فيها عبد من عبيده، ذلكم قوله تعالى: ﴿ وأنَّ الله ليْس بظلَّامٍ لِّلْعبيد ۝٥١﴾ [الأنفال:٥١].

جيء بـ (أن) المفتوحة هذه عطفاً على قوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنفال:٥١].

والمعنى الذي هو تعليل للحكمة الإلهية فيما سبق من التصفير يظهر بهذا العطف. عطف (أنَّ) هنا بقوله: (وأنَّ) على قوله (بأنَّ) فيما سبق. وسبحانه من أنزل هذا الكتاب المعجز على عبده معلم الناس الخير صلوات الله وسلامه عليه، ولم يجعل له عوجاً.



البناء.. واقتران الاعتقاد بأخذ الله الكافرين بوجوب الأخذ بالأسباب

«١»

كان مما أشرنا إليه في كلمات قريبات ما هدتنا إليه واحدة من البصائر القرآنية: من أن على المؤمن، وهو يصارع الباطل وأهله ويواجه التحديات في ساحات الإصلاح والبناء.. اعتقاد أن الله ـ وهو الغالب على أمره ـ قادر دائماً على أن يأخذ الذين كفروا بظلمهم وجحودهم، وأنه لا يعجزه عن ذلك شيء في الأرض ولا في السماء. الأمر الذي يزيد هذا المؤمن يقيناً بسلامة الطريق التي اتخذها لنفسه سواء من حيث العقيدة والتصور أو العمل على توجيه حركة الحياة وفق ما تمليه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وبأن الله معه في الأخذ على يد الكافرين الظالمين.

وقد أسعفنا في ذلك آيات مباركات: منها ما تنزل في العهد المكي ومنها ما تنزل في العهد المدني: نذكر منها قول الله تعالى في سورة الأحقاف وهي سورة مكية: ﴿ومن لا يُجبْ داعيَ الله فليس بمُعْجزٍ في الأرْض وليْس لهُ من دُونه أوْلياءُ أُوْلَئك في ضلالٍ مُبينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف:٣٢].

وفي سور مكية أخرى نقرأ في سورة العنكبوت قوله سبحانه خطاباً للكفار ﴿وما أنتُم بمُعْجزين في الأرْض ولا في السّماء وما لكُم مّن دُون الله من وليٍّ ولا نصيرٍ ﴿٢٢﴾ والّذين كفرُوا بآيات الله ولقائه أُولَئك يئسُوا من رّحْمتي وأُولَئك لهُمْ عذابٌ أليمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت:٢٢- ٢٣]. وفي سورة الشورى يطالعنا قوله جل وعز: ﴿ وما أنتُم بمُعْجزين في الأرْض وما لكُم مّن دُون الله من وليٍّ ولا نصيرٍ ﴿٣١﴾﴾[الشورى:٣١].

وفي سورة هود، نجد ما هو أكثر تفصيلاً لحقيقة ما عليه أعداء الحق الكافرون من ظلم وتعنت وجحود وافتراء على الله وصد عن سبيله، وأنهم يؤخذون بآثامهم، والله لا يعجزه ذلك، وما لهم من دونه من أولياء يصرفون عنهم ما أراد الله سبحانه، ذلكم قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود: ١٨-٢٠].

ومما ورد في المدني من القرآن تقريراً لتلك الحقيقة قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال: ٥٩]. وقوله في سورة النور: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور: ٥٧].

ومن تكامل المنهج الرباني في البناء المصحوب بهذه الحقيقة التي على المؤمنين أن يعتقدوها ـ وقدر الله نافذ ـ ما يشعر المؤمنين دائماً بأن قدرة الله على عقوبة الكافرين لا تعني القعود عن الواجب والأخذ بالأسباب من أطرافها: وقد ضربنا مثلاً لذلك: ما جاء في سورة الأنفال: فقد أحيطت الآية التي ألمحنا إليها بما يؤيد هذا الذي نقول: إذ سبقها ما يبيّن بعضاً من أحكام التشريع الدولي في ضبط التعامل بين المسلمين وبين أعدائهم والحيطة لكل طارئ، دونما عدوان على الأخلاق. ولحقها بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ونحن اليوم على موعد مع آيات من سورة النور تزيد هذه المقولة تجلية وتشير إلى أهمية الموقع الذي تأخذه تلك اللبنة المباركة في منهج البناء، فالآية التي أتينا على ذكرها من قريب وهي قوله تعالى في سورة النور: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

مُعجزين في الأرْضِ ومأواهُمُ النّارُ ولبئس المصيرُ ﴿٥٧﴾ - وهي الآية السابعة والخمسون من هذه السورة - سبقها بدءاً من الآية الخامسة والخمسين قوله عز وجل:

﴿وعد اللهُ الّذين آمنوا منكُمْ وعملُوا الصّالحات ليستخلفنّهُمْ في الأرْضِ كما استخلف الّذين من قبلهمْ وليُمكّننّ لهُمْ دينهُمُ الّذي ارتضى لهُمْ وليُبدّلنّهُم مّنْ بعْد خوْفهمْ أمْنًا يعْبُدُونني لا يُشْركُون بي شيْئًا ومن كفر بعْد ذلك فأُولئك هُمُ الْفاسقُون ﴿٥٥﴾ وأقيمُوا الصّلاة وآتُوا الزّكاة وأطيعُوا الرّسُول لعلّكُمْ تُرْحمُون ﴿٥٦﴾﴾[النور: ٥٥- ٥٦].

فالمؤمن مع اعتقاده أنّ الله لا بد آخذ الكافرين بظلمهم وأنه لا يعجزه شيء عن إنزال العقوبة بهم في الآخرة: يجدُّ ويسعى ويستنفد الطاقة والوقت في امتثال أمر الله بالعمل الصالح والأخذ بالأسباب، ذاكراً قوله تعالى في سورة العنكبوت:

﴿والّذين جاهدُوا فينا لنهْدينّهُمْ سُبُلنا وإنّ الله لمع الْمُحْسنين ﴿٦٩﴾﴾[العنكبوت: ٦٩].



البناء.. والاقتران بين الإيمان والأخذ بالأسباب

«٢»

صحبنا فيما سلف من كلمات قريبات: آيات من سورة الأنفال دلت ـ فيما دلت ـ على أن الحقيقة التي لا تقبل الاحتمال في قدرة الله على أخذ الكافرين المكذبين بظلمهم وجحودهم: ما بدَّ من أن يصحب اعتقاد المؤمن بها: امتثال لأمر الله في الأخذ بالأسباب وارتياد لميادين الحياة يشيع فيها هداية الله التي تنظم الشؤون وتسعد في الدنيا والآخرة.

وكان آخر ما رأينا في سورة الأنفال من تلكم الآيات التي تُجلِّي بمجموعها تلك الحقيقة الكبرى على طريق البناء وتنمية القدرة الذاتية عند الأمة تصوراً ومزاولة لتوجيه حركة الحياة.. كان آخر ما رأينا قول الله تعالى: ﴿ ولا يحسبنَّ الَّذين كفرُوا سبقُوا إنهُمْ لا يُعجزُون ﴿٥٩﴾ ﴾[الأنفال: ٥٩]. تلا ذلك مباشرة ـ ولذلك ما له من الدلالة ـ قوله سبحانه: ﴿ وأعدُّوا لهُم مَّا استطعتُم مّن قُوَّة ومن رّباط الْخيْل تُرْهبُون به عدُوَّ اللَّه وعدُوَّكُمْ وآخرين من دُونهم لا تعْلمُونهمُ اللَّهُ يعْلمُهُمْ وما تُنفقُوا من شيْءٍ في سبيل اللَّه يُوفَّ إليْكُمْ وأنتُمْ لا تُظْلمُون ﴿٦٠﴾ ﴾[الأنفال: ٦٠]

وهذا الذي نرى: يقودنا ـ مرة أخرى ـ إلى آيات مباركات من سورة النور أشرنا إليها بالأمس. حيث «يقفنا» المعلم القرآني من خلالها على مزيد من تأكيد الحقيقة التي نلمح إليها، وأن واجباً على المؤمنين أن يجمعوا دائماً إلى اعتقادهم بقدرة الله الغالبة على أخذ الكافرين أخذ عزيز مقتدر ـ كما دلت على ذلك آي الكتاب مكية ومدنية ـ أن يجمعوا إلى ذلك سلامة الوعي لتلك الحقيقة وطاعة الله ورسوله في الأخذ بالأسباب وتطويع مناهج العمل والسلوك لشريعة الله: والآيات التي ننوه بها هي قول الله تعالى بدءاً من الآية الخامسة والخمسين: ﴿ وعد اللَّهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ

وعملُوا الصَّالحات ليستخلفنَّهُمْ في الأرْض كما استخْلف الَّذين من قبْلهمْ وليُمكِّننَّ لهُمْ دينهُمُ الَّذي ارْتضىٰ لهُمْ وليُبدِّلنَّهُم مِّنْ بعْد خوْفهمْ أمْنًا يعْبُدُونني لا يُشْرِكُون بي شيْئًا ومن كفر بعْد ذلك فأُولٰئك هُمُ الْفاسقُون ﴿٥٥﴾ [النور:٥٥].

تلا ذلك شيء من التفصيل نشهده بالأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ـ في ذلك وفي غيره ـ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ـ وبيان أن رحمة الله كائنة للمؤمنين إن هم امتثلوا في فعل ما يؤمرون به واجتناب ما ينهون عنه، فقال سبحانه:

﴿ وأقيمُوا الصَّلاة وآتُوا الزَّكاة وأطيعُوا الرَّسُول لعلَّكُمْ تُرْحمُون ﴿٥٦﴾﴾[النور:٥٦].

تلا ذلك كله ما يُغني يقين المؤمنين بأحقية ما هم عليه، وأن الله معهم فيما يعملون وفيما يجاهدون ويأخذون بما يوجبه الاستخلاف في الأرض والتمكين. وإن الكفار الظالمين مهما طغوا وبغوا في هذه الدنيا ومهما توافر لهم من الأسباب فيها، فليسوا بمعجزي الله في الأرض، ولهم في الآخرة شرٌ عاقبة وأسوأ منقلب. ذلكم قوله جل شأنه في الآية السابعة والخمسين: ﴿لا تحْسبنَّ الَّذين كفرُوا مُعْجزين في الأرْض ومأْواهُمُ النَّارُ ولبئْس الْمصيرُ ﴿٥٧﴾﴾[النور:٥٧]أجل مأواهم النار ولبئس المصير بجحودهم وظلمهم وكفرهم بآيات الله ووقوفهم في وجه الحق وأهله معاندين محاربين مستكبرين.

إن لبنة مباركة قوامها إدراك ما يدل عليه هذا الاقتران من الطمأنينة في النفوس، وما ينشأ عند المؤمنين من حوافز العمل المثمر البناء.. إن لبنة مباركة هذا قوامها، من الضرورة بمكان أن تأخذ حجمها الطبيعي في البنية الثقافية وإنشاء التصور عند الجيل المؤتمن على ارتياد ميادين الحياة بثقة وطمأنينة، من أجل مستقبل أفضل يفرح المؤمنون في ظله بنصر الله، وتعود الأمة إلى سابق عهدها، تحمل إلى البشرية رسالة الخير والهدى وتمسك بعاتق الميزان على أوسع نطاق وهي صاحبة الكلمة المسموعة المتميزة في العالمين.

لما أنها ـ أبداً ـ مع استثارة ثقافية وعملية بما سبق من قوله تعالى:

﴿وعد اللهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصَّالحات ليستخلفنَّهُمْ في الأرْض كما استخْلف الَّذين من قبْلهمْ وليُمكِّننَّ لهُمْ دينهُمُ الَّذي ارْتضى لهُمْ وليُبدِّلنَّهُم مِّنْ بعْد خوْفهمْ أمْنًا يعْبُدُونني لا يُشْركُون بي شيْئًا ومن كفر بعْد ذلك فأُولْئك هُمُ الْفاسقُون (٥٥)﴾[النور:٥٥]. علماً بأن المقصود هنا: كفر النعمة لا كفر الملة. وتبارك الذي بيده الملك إذ يقول:

﴿الَّذين إن مَّكَّنَّاهُمْ في الأرْض أقامُوا الصَّلاة وآتوُا الزَّكاة وأمرُوا بالْمعْرُوف ونهوْا عن الْمُنكر ولله عاقبةُ الأُمُور (٤١)﴾ [الحج:٤١].



تكامل المنهج الرباني في البناء

سنة الله في نصر أوليائه.. وأخذ أعدائه

«٣»

كلما كان المسلمون أكثر وعياً للحقائق التي تكشف عنها معالم الكتاب العزيز. ويقيناً بأن القرآن إنما تنزل على عبد الله ورسوله محمد بن عبد الله لينذر به من كانوا في زمانه، ومن سيجيئون حتى يرث الله الأرض ومن عليها، مصداقاً لقول الله تعالى في سورة مكية وهي سورة الأنعام ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام :١٩].

كلما كان المسلمون أوفر إدراكاً على هذا المستوى.. كانوا أقدر على اختصار المسافة الزمنية والعملية بين الواقع، وبين ما يتطلع إليه البناة الأمناء مما يجب أن يكون.

أقول هذا وأنا على ذُكرٍ من تلك المقولة المباركة التي وقفنا عليها المعلم القرآني في كثير من المواطن في القرآن الكريم، ومنها ما جاء في سورتي الأنفال والنور من آيات تدل ـ فيما تدل ـ على أن اعتقاد المسلم بقدرة الله تعالى على أخذ من يكذبون بآياته ويواجهون الحق الذي نزل به الكتاب بالعداوة الظاهرة والباطنة، وإنزال العقوبة بهم يوم القيامة وأنه لا يعجزه عن ذلك شيء في الأرض ولا في السماء... أن هذا الاعتقاد: ما بد من أن يصحبه دائماً امتثال صادق لأمر الله في الأخذ بالأسباب وسلوك السبل التي يرسمها المنهج الرباني والتي تخلص بأهل الإيمان إلى التمكين في الأرض والفوز بجنة الله يوم الدين.

وكنا ألقينا عصا التسيار عند الآيات التي نلمح إليها من سورة النور وهي قوله تعالى بدءاً من الآية الرابعة والخمسين: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور:٥٤-٥٦].

تلا ذلك كله قول الله جلت قدرته: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

هكذا جاءت الآية التي توجب اعتقاد أن الله قادر على أن يأخذ الذين كفروا بجحودهم وظلمهم وليسوا بمعجزين في الأرض ومأواهم النار يوم القيامة ولبئس المصير.. جاءت بعد رحلة مثقلة بوجوب طاعة الله ورسوله في ارتياد الدروب التي تضمن استمرار فضل الله في التمكين، والاستخلاف، والأمن والاستقامة في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول التي هي من طاعة الله.

ومواجهة الواقع تدعو إلى خطوة أخرى من اصطحاب المعلم القرآني من خلال الآيات المباركات المشار إليها من سورة النور حيث نشهد من خلال عطائه أن الكلمة القرآنية هي المنار الهادي لتجاوز هذا الواقع إلى ما يجب أن يكون.. حتى كأن الآيات تتنزل اليوم غضة طرية لتأخذ بيد الأمة ـ لو استمسكت بها ـ إلى مستقبل أفضل يتحقق في ظله وجودها الذاتي وقدرتها على أداء رسالتها. رسالة الخير والحضارة المثلى في العالمين.



مسؤولية التفاعل مع سنن الله

البناء.. والواجب

لا يرتاب منصف يتدبر آي الكتاب الكريم: في أن المقولة التي كنا بصدد الإشارة إليها فيما سبق من القول والتي تقوم على وجوب الجمع بين الاعتقاد بقدرة الله على أخذ الظلمة الكافرين وإنزال العقوبة بهم يوم القيامة لا يعجزه عن ذلك شيء، وبين العمل على تحمل المسؤولية كاملة غير منقوصة في إعداد القوة المستطاعة، وبذل الجهد المستطاع على ساحة الأخذ بالأسباب عقيدة وعلماً وعملاً وجهاداً في سبيل الله.

لا يرتاب منصف في أن هذه المقولة ذات حجم بارز في منهج البناء كما هو في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقد كانت لنا إلماحة عجلى إلى آيات من سورة النور هي أنموذج من الآيات التي تدل على هذا الذي نقول، حيث جاء قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾[النور:٥٧]. بعد عدد من الآيات التي بدأت بالأمر بطاعة الله وطاعة الرسول، ومن تولى عن طاعة رسول الله: فعليه ما حمّل من الطاعة، وعلى الرسول عليه الصلاة والسلام ما حمل من التبليغ، والخير كل الخير في الطاعة التي هي سبيل الهداية إلى الطريق الأقوم عند الله ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾[النور:٥٤] فإذا كان رسول الله يحمل مسؤولية التبليغ، فإن مسؤولية الطاعة له في كل شأن وعلى كل صعيد أمانة وواجب في أعناق المكلفين.

ثم جاء بعد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ

لهُمْ وليُبدلنَّهُم مِّنْ بعْد خوْفهمْ أمْنًا يعْبُدُونني لا يُشْركُون بي شيْئًا ومن كفر بعْد ذلك فأُولْئك هُمُ الْفاسقُون ﴿٥٥﴾ [النور:٥٥].

هذا وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات: ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهمُ الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً.. امور ثلاثة هي من الكليات الجذرية الأساسية في حياة الأمة ووجودها الإسلامي الصحيح.. ويجيء الوعد بها مؤكداً باللام والنون «ليستخلفنهم، وليمكنن لهم، وليبدلنهم».

إنما استحقوا ذلك ـ وهو المتفضل سبحانه ـ بإيمانهم وعملهم الصالح بأبعاده التي تشمل بناء الإنسان وحركة الحياة وشؤون الدين والدنيا جميعاً.

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جاء الثناء عليهم والتوعد لمن خالف عن طريقهم بقوله تعالى: ﴿ يعْبُدُونني لا يُشْركُون بي شيْئًا ومن كفر بعْد ذلك فأُولْئك هُمُ الْفاسقُون ﴿٥٥﴾ ﴾[النور:٥٥]ثم جاء الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول.. الأمر الذي يحقّق الصورة العملية لحركة من تفضل الله عليهم بالوعد بالاستخلاف والتمكين والأمن.. إنها سنة من سنن الله في ترتيب المسببات على الأسباب، والنتائج على المقدمات.

فإذا انتقلنا إلى الآية الأخرى وقفنا على سنة حكيمة أخرى قِوامها أنه سبحانه لابد آخذ الكافرين وليسوا بمعجزيه..

وهنا يبدو تكامل المنهج في البناء، وتوجيه الأمة إلى ما فيه سلامة الاعتقاد والتصور والأخذ بأسباب الاستخلاف والتمكين والأمن والمحافظة عليها.

وذلكم سبيل هذه الأمة إلى تجاوز القنطرة والتحديات إلى واقع يتطلع إليه البناة المخلصون الذين يُغذُّون السير بعلو همة وصدق عزيمة بُغية اختصار المسافة بين الواقع المتأرجح وبين ما يجب أن يكون!!.

السنة الإلهية.. وأسباب التمكين ودوامه

وسورة الحج

أجدني وأنا أنظر في واقع الأمة وما تعانيه من الانفصام النكد بين العقيدة والسلوك، وما تصنعه في توجيه حركة الحياة.. أجدني وبصائر الكتاب العزيز تشدني مرة أخرى إلى التذكير بأن السنة الإلهية الحكيمة التي كلها رحمة وعدل، في أخذ من يناصبون كلمة الله وأهلها العداء، ويكذّبون ما جاء به رسل الله: في أخذهم وإنزال العقوبة بهم في الآخرة، وأنهم ـ بكل جبروتهم وما يتوافر لهم من عوامل الطغيان ـ ليسوا بمعجزي الله في الأرض وما لهم من الله من ولي ولانصير ﴿ولا يحْسبنّ الّذين كفرُوا سبقُوا إنّهُمْ لا يُعْجزُون ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال:٥٩] ﴿لا تحْسبنّ الّذين كفرُوا مُعْجزين في الأرْض ومأْواهُمُ النّارُ ولبئْس الْمصيرُ ﴿٥٧﴾﴾[النور:٥٧].

أجدني مسوقاً إلى التذكير بأن هذه السنة الإلهية لا تعني ـ بحال من الأحوال ـ أن يقعد المسلمون عن الأخذ بالأسباب التي تصلح الفرد والجماعة وتبني مجتمع الفضيلة والتماسك، وتمكن للأمة في الأرض تمكيناً يضمن لها الوجود الذاتي وتقيم من خلاله شرع الله، ويبني الحضارة التي لا تدع في تكاملها وعمقها وشمولها زيادة لمستزيد.

والآيات التي أوردناها من قبل حول هذه المقولة واضحة كل الوضوح في مكي القرآن ومدنيّه على السواء، فالمطلوب من المسلم دائماً أن يكون كفاء ما ائتمن عليه من رسالة البناء التي تسعد الفرد والمجتمع، بل وتضمن ـ لو أنصف الناس ـ الخير والاستقرار للبشرية جمعاء.

وكان آخر ما رأينا من تلكم الآيات المشار إليها ما جاء في سورة النور من قول الله تبارك وتعالى: بدءاً من الآية الرابعة والخمسين ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور:٥٤].

وقوله بعد تقرير هذه القاعدة التي يجب أن يقوم عليها البناء ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور:٥٥-٥٦].

وفي أعقاب ذلك كله تجيء الإشارة إلى السنة الإلهية التي ألمحنا إليها في قول الله جلت حكمته:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾[النور:٥٧].

والحق أن هذه الآيات في سورة النور تقودنا إلى ما جاء في سورة الحج من النص على الإذن، بالقتال والتعليل لهذا الإذن بدءاً من قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[الحج:٣٩]. حيث بين الله تعالى بعد ذلك أن هؤلاء الذين أذن لهم بالقتال، حين يمكّن الله لهم في الأرض، ويفتح لهم آفاق الأمن والاستقرار: لا يقعدون عن طاعة، ولا يتخلفون عن أمر فيه سلامة بناء الفرد، وحراسة المجتمع من الداخل والخارج، الأمر الذي يضمن استمرار التمكين - بإذن الله - ويجعل من الأمة أمة عزيزة الجانب مسموعة الكلمة، قادرة على نشر رسالة الخير والهداية في العالمين.

فبعد قوله سبحانه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:٤٠]. جاء قوله جلت حكمته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾[الحج:١٤].

تلك سنة الله الماضية في خلقه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وهؤلاء الذين أذن لهم بالقتال وفرض عليهم الجهاد، لا يقعدون عن المستوى اللائق بالتمكين في الأرض، فهم ـ مع الجهاد ـ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..

إنه البناء وتنمية المقومات الكفيلة بحراسة البناء، واستمرار فضل الله باستمرار النصر والتمكين.

وإنها لسنَّة الله الماضية في ذلك، وكم تُحسن الأمة صُنعاً ـ والحال هي الحال ـ إذا استأنفت أخذ النفوس بما تقتضيه هذه السنة الحكيمة: إذن سيعود لها ـ بإذن الله ـ النصر والتمكين، والله على كل شيء قدير.



الإنسان.. والبناء على العقيدة

العهدان المكي والمدني

«١»

ليس من مكرور القول - والأمة على أعتاب يقظة جديدة - أن نشير إلى أنه كلما أحسن بناء الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على العقيدة كما هي في الكتاب والسنة، والالتزام بطاعة الله ورسوله في كل شأن من شؤون الدين والدنيا عن طمأنينة ورضى.. كان ذلك أدعى لأن يكون هذا الإنسان المومى إليه تلك اللبنة المتوخاة لصياغة مجتمع تشيع في أرجائه روح العطاء والنماء، وتتكامل في ميادينه مقومات الخير والتعاون المثمر البنّاء.

وليس أدلّ على ذلك ما نجد في العهدين المكي والمدني ـ مما سلكه المنهج الرباني الذي حملته الرسالة المحمدية في صياغة الفرد والمجتمع، وتكوين الأمة، وفي العمل على تنمية الطاقات المبدّدة والإمكانات المبعثرة ولمْ شعثها، كيما يتسامى البناء ويتعاظم سليماً معافى، ويؤدي وظيفته التي تسعد في الدنيا والآخرة، كاملة غير منقوصة كما هو وعد الخالق الحكيم في قوله جل وعز في سورة النور: ﴿وعد اللهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصَّالحات ليستخلفنَّهُمْ في الأرْض كما استخْلف الَّذين من قبْلهمْ وليُمكِّننَّ لهُمْ دينهُمُ الَّذي ارْتضىٰ لهُمْ وليُبدِّلنَّهُم مِّنْ بعْد خوْفهمْ أمْنًا يعْبُدُونني لا يُشْركُون بي شيْئًا ومن كفر بعْد ذلك فأُولٰئك هُمُ الْفاسقُون ۝٥٥ وأقيمُوا الصَّلاة وآتُوا الزَّكاة وأطيعُوا الرَّسُول لعلَّكُمْ تُرْحمُون ۝٥٦﴾ [النور:٥٥-٥٦].

فقد كان الطابع العام للعهد المكي فيما تنزل من آي الذكر الحكيم: طابع بناء على الإيمان الصادق لكل ما يحمل من أبعاد وقدرة على التحويل، وذلك بعد هدم الشرك

وتنقية النفوس منه ومن كل ما يمت إليه بصلة.. وأقول: الطابع العام: لأنه كانت في العهد المكي نثارات من ضياء التشريع والتحضير المنهجي لذلك المجتمع الذي تحكمه وتوجه الحركة في ميادينه كلها شريعة الإسلام.

ثم جاء العهد المدني ليكون طابعه طابع التشريع في استمرار لأحكام البناء على العقيدة، وتنمية للإدراك العميق بأنها هي القاعدة لما يكون من تشريع وأحكام، طلع المنهج الرباني على الدنيا بتلك الرحلة المباركة في بناء الفرد والمجتمع، بعد أن تهيأت النفوس لتقبل حكم الله ورسوله عن طمأنينة ورضى لأن ذلك هو العنوان الصادق لكمال الإيمان: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب:٣٦] ذلك بأنه قد أصبح بمقدور الإنسان المسلم وهو يخوض معركة البناء على أنقاض جاهلية جهلاء وضمن دروب مثقلة بأوضارها.. أصبح بمقدوره ـ قد اطمأن عن قناعة وذاق حلاوة الإيمان ـ أن يكون عند الذي يستعذب معه الاستجابة وأن يتجاوز ما تمليه الأهواء، ومخلفات الجاهلية من تقليد أعمى للآباء والأجداد وعصبية مقيتة لا تأتي بخير، وإبعاد العقل عن ساحة التبصر والتدبر: فكان ذلك قيمة هائلة من قيم العطاء المذكورة في تاريخ المسلم الذي يبني الحياة على الوجه الشامل المتكامل، ويسلك بالحضارة سبيلها الأمثل الذي يرتقي بالإنسان إلى المستوى الذي يسعده ولا يشقيه، ويضمن له بعون الله وفضله خيري الدنيا والآخرة.



مرة أخرى.. مع البناء على العقيدة
النماء والعطاء.. ومراحل تحريم الخمر
«٢»

الكل ينادي اليوم ببناء الإنسان الذي يكون كفاء تطلعات الأمة، في تجاوز مرحلة التخلف، وإنشاء المجتمع الذي يزينه التكامل والنماء المطرد.. ولكن الحاجة ملحة إلى إحكام هذا البناء، ولن يكون ذلك لأمة الإسلام إلا إذا كان زادها على هذه الطريق اتصالاً وثيقاً بمنابع وجودها الذاتي، وما به كانت خير أمّة أخرجت للناس في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وما فهمه أئمة الهدى منهما. فكان ذلك نبراس المسلمين ـ في كل ميدان من ميادين البناء والإنماء ـ والمنطلق المشرق لحضارتهم التي قدمت إلى الإنسانية ما لا ينفد من العطاء.

وقد أشرت من قريب إلى أن منهج البناء الذي حفلت به الرسالة المحمدية في العهدين المكي والمدني فيما تنزل من آي الكتاب الكريم وما جاء من بيانها في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام قولاً وعملاً وصياغة للفرد والمجتمع.. ـ أشرت إلى ما كان من الحرص على الإحكام في بناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد التي تحمل ما تحمل من مقوِّقات الضياء والقدرة على التحويل، وحين جاء العهد المدني لم ينقطع ذلك الشريان المبارك، بل رأينا خطاب التكليف للمسلمين.

نذكّر دائماً بالقاعدة التي يقوم عليها التشريع الحافز العميق الذي يحفز إلى العمل، والوقوف عند الذي يرضي الله ورسوله ويباعد عن المخالفة في أي أمر من الأمور. فرأينا: ﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا﴾ ﴿إن كُنتُم مُؤْمنين﴾ ﴿إنَّ الَّذين آمَنُوا وعمِلُوا

الصالحات..﴾ وعلى هذا السنن جرى التكليف بكليات البناء وجزئياته وفق الرسالة الخاتمة: ووجد المجتمع الأمثل، وضرب المسلمون خير مثل لحضارة يبنيها الإسلام فتكون حضارة العقيدة والعلم والعمل، ذلك لأنه ما من شيء أحله الإسلام إلا وفيه الخير للفرد والجماعة، وما من شيء حرمه إلا وفيه المضرة للفرد والجماعة وروعي في ذلك كله طبيعة الإنسان وتكوينه، فكان البناء مرحلة بعد مرحلة.

ها نحن أولاء نرى أن الخمر مثلاً أول ما تنزل بشأنها في العهد المدني: ما كان جواب الوحي عن سؤال الرسول ﷺ عنها وعن الميسر وذلك قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما..﴾ [البقرة:١٢٩].

وفي مرحلة ثانية جاء تحريم قُربان الصلاة في حالة السكر وذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون...﴾ [النساء:٤٣].

ثم جاءت المرحلة الثالثة تحمل التحريم القاطع للخمر والميسر ذلكم قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠] وبعد تقرير انها رجس وترتيب الفلاح على الاجتناب، جاءت الآية التالية تذكر بعض الحكم للتحريم فقال تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩١].

وإلى أن نلتقي على كلمات قريبات إن شاء الله تسعفنا في مزيد من البيان: أود الإشارة إلى المحور الإيماني الواضح في شريعة التحريم المشار إليها وذلك في قوله تعالى: ﴿يسألونك﴾ ﴿ياأيها الذين آمنوا..﴾، الأمر الذي يؤكد ضرورة الاستمساك بمنهج البناء على العقيدة إذا أُريد للبناء أن يأخذ طريقه إلى الإحكام الزاخر بالعطاء.

ومما يجدر ذكره أن بعض العلماء يرون أن المراحل التي ذُكرت، كان بدؤها بقوله تعالى في سورة النحل على سبيل التمهيد:

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل:٦٧] إذ قابل السَّكَرَ بالرزق الحسن، الأمر الذي يهيئ النفوس لقبول التحريم والله أعلم.



إحكام البناء.. على العقيدة والعمل بحقها وتوكيد للنموذج

«٣»

في استذكار سريع للآيات الكريمات التي تنزلت بشأن الخمر، وطلعت بالتدرج في تحريمها وقفنا المعلم القرآني على ما للبناء على العقيدة من أثر في التزام الأحكام وتطبيق التشريع، وانه كلما أحسن بناء الإنسان على العقيدة الصحيحة كان ذلك أدعى لسلامة تصوره، وتنمية الحوافز الداخلية من أعماقه التي تحفزه إلى الاستقامة والتقوى والانضباط بضوابط ذلك ـ الأمر الذي يعود على الفرد والجماعة بأطيب الثمرات في ميادين الفكر، والسلوك، والاجتماع والاقتصاد وكل ما هو من قوة المجتمع في إفراده ومسالك نمائه وطرائق وجوده الذاتي بسبب.

والآيات التي نلمح إليها ـ كما أسلفنا ـ وكلها تقوم على محور العقيدة وتذكر بالإيمان في استثارة لعمل العقل: هي قول الله تعالى في سورة النحل ـ كما يرى بعض العلماء ـ: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا﴾ [النحل:٦٧] ثم قوله سبحانه في الآية التاسعة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة:٢١٩]

وقوله جل شأنه بعدها في الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء خطاباً للمؤمنين: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو

لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:٤٣].

ونتابع الرحلة المباركة لنصل إلى سورة المائدة وهنالك نقع على التحريم الجازم في الأوقات كلها، لافي أثناء الصلاة فحسب، وذلك في قوله تبارك وتعالى بدءاً من الآية التسعين خطاباً للمؤمنين ايضاً ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴿٩٠﴾ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴿٩١﴾﴾ تبع ذلك تذكير واضح بما يجب من طاعة الله وطاعة الرسول ومن ذلك الطاعة في الامتناع عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام فقال سبحانه: ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:٩٢].

إن الذين وضعوا أقدامهم على الطريق الصحيحة في بناء الحضارة الإسلامية، واسهموا في بناء المجتمع الأمثل المبرأ من عوامل الضعف والانحلال: هم أولئك الذين أحسن بناؤهم على العقيدة فكان سلوكهم في ممارسة شؤون الحياة: وفق الذي تمليه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، لما أن ذلك حقها الذي لا مرية فيه وهو ما نحن بأمس الحاجة إليه اليوم في تطلعاتنا المستقبلية وتجاوز واقع تريد الأمة تجاوزه. وعسى أن يكون ذلك قريباً!!



الفصل الخامس

البناء الثقافي

التكامل في البناء.. مع العقيدة
الابتلاء.. وحقها في العمل والتسليم

حقاً إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم على وجه اليقين، ولا يرتاب منصف أنه الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد، ومهما تطاول الزمن، وجدّت وقائع ومشكلات، فإن الأمة واجدة فيه ما يخرج بها إلى الفَرَج بعد الشدة، والنور بعد الظلام. وقد كان من كرم الله وجميل إحسانه، أن أولى أمانة بيان القرآن نبيه محمداً ﷺ، فكان ذلك خيراً على خير، ولم يبق عذر لمعتذر يريد أن يلتمس لنفسه ما يخوله هروباً من التبعة، وتفلتاً من المسؤولية والعياذ بالله.

ولئن كانت أمتنا اليوم في محنة، لا على الأرض التي بارك الله حولها فحسب، بل على معظم بقاع العالم الإسلامي: فإنَّ عليها أن تراجع رصيدها، وتفتح القلوب والبصائر للمنهج الرباني في القرآن، وما كان من بيانه القولي والعملي في سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وبذلك يكون في مقدورها إن شاء الله، أن تنتصر على أعدائها، وتعود لها الكلمة المسموعة في الأرض وتؤدي رسالتها الإنسانية الخيِّرة في العالمين.

ولعل حجر الزاوية في هذا: بناء الشخصية المسلمة على العقيدة السليمة، والوعي الإيماني المستنير، ثم على أن الابتلاء أمر طبيعي على طريق المؤمن في ساحة الصراع بين الحق والباطل، فإذا صلبت عود الفرد على هذا، وتكامل بناء الجماعة المسلمة، أمكن أن يكون هنالك إيجابية في العمل، وطمأنينة إلى ما عند الله، تبعث على الاستمرار والمتابعة مهما كانت العقبات.

وأنت واجد في الآيات التي كانت تتنزل في العهد المكي، حيث شراسة الباطل، وعدوان الوثنية على الفئة القليلة من أهل التوحيد، أن الابتلاء صنو الإيمان وقرينه، وأن الفتنة اختبار يُعلم من خلاله الذين صدقوا ومن كانوا من الكاذبين: ففي فواتح سورة العنكبوت ـ وهي سورة مكية ـ نقرأ قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:١-٣].

حتى إذا وصلت إلى آخر السورة رأيت قول الله جلت حكمته على وجه هو حقُّ اليقين:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٨-٦٩].

أرأيت إلى هذا التكامل في إعداد المسلم لمواجهة الحياة، إنه يحمل رسالة الحق، والباطلُ لا يسكت عن الكيد والعدوان: ففي أول السورة تقرير لموقع الابتلاء من طريق المؤمن، وفي آخر السورة بعد رحلتها المباركة، بيان لأظلمية المفترين على الله كذباً، والمكذبين بالحق لما جاءهم، ثم دعوة إلى الجهاد، وأن ذلك مناط الهداية.

ثم بشارة، أكرم بها من بشارة، هي أن الله تبارك وتعالى مع أولئك المحسنين بجهادهم وعملهم، بالنصر والعون والتأييد.

والمؤمن مدعو إلى أن يفيد لواقعه من هذا التكامل في البيان القرآني.

أجل: إن المسلمين، وهم، يعانون ما يعانون، في مشارق الأرض ومغاربها، مدعوون إلى أن يولوا الصلة بالقرآن، والإفادة من المنهج القرآني في ميادين الصراع مع الباطل، والعمل على بناء الحياة على أفضل الأسس وأكرمها .. أن يولوا هذه الصلة الكثير من الاهتمام بمنهجية وموضوعية على كل صعيد، طاعةً لله ورسوله، وعملاً بحق الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وليست القضية قضية تتعلق بأفراد أو مجموعة من الناس، ولكنها قضية الأمة بكاملها، على كل أرض من أرضها، وفي كل صقع من أصقاعها: وفي العالم الإسلامي بوادر خير نرجو أن يتسع سلطانها، ومنارات ضياء نرجو أن يهتدي بنورها العاملون المجاهدون. وأن تكون شراسة الباطل وأهله حافزاً منهجياً قوياً على الأخذ بالحقيقة التي حولها ندندن. والله المستعان.



الالتقاء على كلمة الله.. وأثره في البناء ودرس في ظلال الدعوة

ما أحسب أن إنساناً يملك شيئاً من الإدراك والنصفة: يقرا بتدبر واعٍ بعضاً من سيرة النبي في دعوة الناس إلى الله، وتبليغ ما أنزل إليه من ربه، إلا ازداد قناعة بأن أسلوب الرسول الكريم كان عين الحكمة، وأن موعظته هي الموعظة الحسنة التي تتفتح لها القلوب فتلين وتخشع، وتتلقاها العقول فتستجيب وتستنير، كما يتأكد لديه أن رسول الله فيما واجه من اختلاف البيئات، وتنوع الأشخاص، وتفاوت الأمزجة والوان الاستعداد ومواقع المدعوين.. كانت مواجهته لذلك كله أوضح دليل على انه كان يدعو إلى الله على بصيرة.. أجل على بصيرة بدعوته، وعلى بصيرة بالأرض التي يريد أن يلقي فيها بذرة الخير، وعلى بصيرة بالأسلوب الذي يجب أن يتخذ لتسلك الهداية سبيلها إلى النفوس والقلوب، واستخدام اللغة المناسبة في مواجهة التحديات، صنيعه في مواجهة ما كان من اليهود!!

ولئن كانت الأولى استجابة لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل:١٢٥]. مع قول فريق من العلماء بالنسخ بآية الإذن بالقتال.. إن الثانية كانت الوجه العملي التطبيقي لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

وقد يحسب البعض أن دعوة الخير ـ عموماً يخاطب بها فرد أو افراد ـ لاترتبط ارتباطاً مباشراً في بناء المجتمع وتكوين الأمة، والواقع غير هذا، فإن الرسول ﷺ كان يدعو الفرد ويربيه ليجعل منه النواة الصالحة للمجتمع الأمثل الذي

يقدمه انموذجاً حياً متحركاً للدين الذي يدعو إليه، وقد رأينا ورأى العالم معنا كيف أن الجماعة التي التقت على كلمة الله، استطاعت أن تكون على مستوى العطاء المنشود، فوجهت دفّة الحياة بكل مجالاتها، وصنعت التاريخ.

من أجل هذا كان رسول الله يسلك مع اعرابي مّا أسلوباً قد يختلف عن أسلوبه مع شخص آخر، وقد يرضى من هذا بالأمر الأساسي ويتركه لإيمانه يشده إلى ماوراء ذلك، ويفصل القول مع إنسان آخر يرى فيه استعداداً لهذا الذي يقول.

روى البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ أخبرني بعمل يدخلني الجنة قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم». وصورة مشرقة أخرى لهذه السماحة نراها فيما روى البخاري ومسلم أيضاً عن طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، نسمع دوي صوته ولانفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله: «خمس صلوات في اليوم والليلة». قال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: « لا إلا ان تطوّع». فقال رسول الله ﷺ: «وصيام شهر رمضان» قال: هل عليّ غيره؟ قال: «لا إلا ان تطوع». قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا إلا ان تطوّع». فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. فقال رسول الله ﷺ: «افلح إن صدق».

وأنت ترى أن الأمر قد وقع ـ كما يبدو ـ قبل أن يفرض الحج.

ويا ليت أنا نحمل انفسنا على أن نكون في الدعوة إلى الله تلاميذ أوفياء لطريقته ﷺ وأسلوبه، وخصوصاً في زمن تشعبت فيه المسالك وتعددت على أبنائنا وبناتنا الموارد: وغرّبت فتن التضليل والافتراء والتزوير وشرّقت، إذن لكان من وراء ذلك خير كثير.

دعوة الحياة
والبناء المتكامل.. على قاعدة إيمانية

حين نعيش مع كتاب الله بعقولنا وقلوبنا في جو من التذكُّر والتدبُّر: نزيل مايمكن أن يكون من حواجز. نفتح تلك العقول والقلوب للآية من آيه. تشرق بها معانيها، تضيء جنباتها، تلملم شعثها، تعطيها، تمدها بالعلم والمعرفة والفهم عن الله عز وجل، والإخلاص في التوجه إليه آناء الليل وأطراف النهار... حين نفعل ذلك، تتغير الملامح، وتتضح الرؤية، والصور التي تكون مهزوزة عند البعض: تأخذ طريقها إلى الوضع السليم.. حيث يجد المسلم أن بينه وبين القرآن نسباً أكرِم به من نسب، وصلة قربى أعظِم بها من صلة.

فهو معه في حياته الفردية بينه وبين نفسه: في مشاعره، في أحاسيسه، في أشواقه وتطلعاته. وهو معه فيما بينه وبين مولاه عز وجل، وهو معه في علاقته بأسرته وأهله، وفي علاقته بالناس والمجتمع، وفي سلامة انتمائه إلى الأمة... ماكان من ذلك في شؤون دينه ودنياه، وما كان من أمر يومه وغده، وما به يكون وجوده الحقيقي بوصفه إنساناً صاحب رسالة.

وهناك يقطع رحلة الحياة بطمأنينة، يزرع طريق البناء أملاً، ويتجه إلى المستقبل وجهة الاستقرار النفسي والحزم والوثوق.. كل ذلك لأنه حين كان مع القرآن، كان مع الحياة، وكان مع العلم والبناء، وكان مع الطمأنينة والأمل.

ذكرت ذلك وقد أسعدتني نظرات في واحد من المعالم القرآنية التي شاء الله أن تضيء دروب هذه الأمة وهو ما نقتبسه من قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا استجيبُوا لله وللرَّسُول إذا دعاكُمْ لما يُحْييكُمْ واعْلمُوا أنَّ الله يحُولُ بيْن المرْء وقلْبه وأنَّهُ إليْه تُحْشرُون ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال:٢٤].

فالمؤمنون ـ كما هو نص الآية ـ مأمورون بالاستجابة إلى ما يدعوهم إليه الله ورسوله، وهو ما به حياتهم ووجودهم الحقيقي، وهل ذلك إلا الإسلام، أجل إنه دعوة الحياة، والاستجابة لهذه الدعوة واجب حتمي لا مناص منه.

ولكن ما هي أبعاد هذه الحياة، وأي جانب من جوانبها هو المقصود؟ الواقع أن تعبير «ما يحييكم» يفيد العموم، ويتخطى أن يكون لجانب من هذه الجوانب، بل إنه الحياة في كل الميادين بدءاً من القلب والعقل كما ترسمها رسالة الإسلام لا كما يرسمها الشيطان ومرضى القلوب: فهي الحياة في بناء الفرد بعقله وقلبه على الإيمان الخالص والصدق المكين، وتنمية قدراته وكفاءاته، وهي الحياة في بناء الجماعة، بحيث تكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، تآخياً على الخير. وتعاوناً على البر والتقوى، وتآزراً واعياً على تحقيق القوة والمنعة دنيا وديناً، والحياة في بناء المجتمع عموماً ثقافة وعلماً وتقنية وحراسة بالأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعداداً دائماً للجهاد في سبيل أداء الرسالة ونشر الدعوة، وبناء حضارة الإنسان.

وهذا الذي نقول: قد أيده الواقع يوم كنا على جادة الاستجابة، فقد شهد التاريخ آثار ذلك في المجتمع الإسلامي القدوة في المدينة، بل شهده في كل الديار والأمصار التي وطئتها أقدام الدعاة الفاتحين، شرقاً وغرباً، والسمة الحضارية التي تركت بصماتها في كل أرض دخلها الإسلام واضحة لكل ذي عينين ـ ولكن أين المنصفون؟.

والمطلوب من الأمة اليوم أن توقن يقيناً لا شك معه، أن الإسلام الذي تنتسب إليه هو في حقيقته دعوة الحياة في كل الميادين في الفرد والجماعة، في المسجد، والمدرسة والجامعة، والمصنع والسوق، في العلاقات الداخلية والخارجية، في السلم والحرب، وما يكون بينهما، وأن تطرح وإلى الأبد خرافة التجافي بين الإسلام والحياة، وتلك المعادلة الظالمة الجائرة، التي تقول: إما الإسلام وإما العلم والتقنية

والبناء والتنمية؛ وبذلك ترد كيد الأعداء إلى نحورهم. وتكون لها الكلمة في خاتمة المطاف لأنها مع الحياة القرآنية التي رسمت أبعادها دعوة الحياة وقد يزداد الأمر وضوحاً إذا ذكرنا أمرين:

أولهما: أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا...﴾ [الأنفال:٢٤]. هو من سورة الأنفال، سورة الجهاد وتقعيد القواعد الراسخة لبنية المجتمع الإسلامي في مواجهة الحياة، كي يكون سليماً معافىً في أداء رسالته على ميدان الصراع بين الحق والباطل.

والثاني: ما جاء بعد هذه الآية من النذارة الشديدة إن وقعت المخالفة وهو قوله جل وعز: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنفال:٢٥]. والحمد لله رب العالمين.



الفصل السادس

الوقت والبناء

الوقت.. والبناء

«١»

تنمية الشعور بحرمة الوقت وقيمته في حياة الفرد والمجتمع بديهية أولاها الكتاب الكريم في معالمه أهمية ملحوظة، وجاءت السنة المطهرة لتقرر ذلك وتوضحه وتوسع في بيانه، لما أنه عنصر أساسي من عناصر البناء الحضاري، والظرف الذي يشكل المحتوى لسلوك الإنسان في هذه الحياة.

وحصاد الأعمال في الإسلام، منه ما يكون في الدنيا، ومنه ما يكون في الآخرة، ومنه ما يكون في الدنيا والآخرة، وهذا ما يجعل إحساس المسلم بقيمة الوقت مضاعفاً لأن الأمر يتعلق بوجوده في الدنيا، وهو مسؤول عنه يوم القيامة، بم شغله؟ وكيف قضاه؟

من خلال هذه البديهية في الكتاب والسنة نقرأ في واحد من المعالم القرآنية قول الله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

هذه الصورة المذهلة من صور ما يلقى الكافرون في جهنم جزاء كفرهم وعدوانهم على الحق، تجد من خلالها أن الله يعطيهم قدرة أن يفكروا على نمط غير النمط الذي كانوا عليه في الدنيا بعد أن ندموا ولات ساعة مندم.

فتراهم يدعون الله تعالى أن يخرجهم من النار ويعيدهم إلى الحياة الدنيا، كي يحوّلوا الشراع فيؤمنوا ويعملوا الصالحات، بدل كفرهم ومجاهرتهم رسلهم بالعداوة والإيذاء ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

إنه مشهد مرعب يهز القلب حقاً، يوقظ كل أحاسيسك ومشاعرك حتى كأنك تراهم وتشاهدهم بأم عينيك ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ولكن يجيء الردُّ، بأنكم عُمِّرتُم وجاءكم النذير، ولكنكم استهنتم بالوقت وأضعتموه بما سلكتم من مسالك الضلالة، فهو نعمة كفرتموها، ومحتوى كان يمكن أن يملأ بالخير والهداية، فشحنتموه بالشر والعماية.

وانظر إلى هذه اللمحة المشرقة من بلاغة القرآن، اللّه تعالى عليم بأنه قد عمّرهم وانسأ لهم في الأجل، ولكنه الاستفهام التقريري الذي يحمل معنى التوبيخ والتقريع ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ أو لم نعطكم هذا العمر ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أجل لم يتذكروا فيذكروا وجاءهم النذير. والنذير في قول الجمهور: الأنبياء، كل نبي نذير أمته ومعاصريه، ومحمد ﷺ: نذير العالم في غابر الزمن. وقيل: النذير: الوقت، قال الطبري: وهو قول حَسَنٌ إلا أن الحجة إنما تقوم بالنذارة الشرعية.

هكذا يقفنا المعلم القرآني على ضرورة الوقت للبناء، ومسؤولية ذلك عند اللّه، ويحمّل كل العاملين في حقول الإعداد والتربية وتهيئة الأجيال للمستقبل: أمانة أن تكون تنمية الإحساس بأهمية الوقت وضخامة قيمته في الحسبان.



البناء.. وشغل الوقت بما ينفع
«٢»

إهمال الوقت شر، وشر من إهماله شغله بما لا ينفع، ولا تسل عن حجم الضلالة في إضاعته بما يضر ويؤذي.

وفي ضوء ما أشرق به المعلم القرآني من قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧].

يستوقفنا ـ على صورة غاية في الأهمية ـ هذا التذكير بالوقت بصيغة التقرير والتوبيخ، فيما يفرط فيه الكافرون بما أعطاهم الله من المجال الزمني - كما أشرنا من قبل - وفيما فسح لهم من العمر، على اختلاف أقوال العلماء في المقصود من العمر، أهو الأربعون أم الستون أم مرحلة البلوغ.

ثم كان قرن ذلك بأنهم كانوا غارقين في الغفلة، فلم يتذكروا، ولم تستيقظ منهم العقول والقلوب مع أنه قد جاءهم النذير وهو الرسول الذي يبلغهم عن الله.

وأراني ـ وواقع الأمة اليوم لا يخفى على ذي بصيرة واستقلالٍ في الرأي والحكم على الوقائع ـ مشدوداً إلى التذكير بأن الذي فات الأمة من مراحل البناء في إعراضها عن الإسلام وإعطاء مقاتلها للأعداء بدءاً من أوائل القرن الرابع عشر للهجرة على الأقل، بأن ذلك مدعاة عند المؤمن وهو يرى قوارع الزمن ويشهد أنه ليس للأمة إلا أبناؤها، أن يستيقظ على صوت النذير في القرآن الكريم:﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[فاطر:٣٧].

ووسائل البناء واستئناف المسيرة الخيِّرة: متوافرة في دنيا المسلمين: والوقت عنصر مهمٌّ جدٌّ مهم لا بد من وضعه في الاعتبار مع المقومات الاقتصادية والبشرية وغيرها، وحقيقةِ رحى الحرب دائرة أبداً بين الحق والباطل.

ولقد كان من حكمة الله الخبير أن أخفى عن عباده آجالهم، فالمرء لا يدري متى تكون النهاية ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف:٣٤]

وإذا كان الأمر كذلك، فالمفروض أن تعمل هذه الحقيقة عملها في تحريك الهمم وبعث العزائم، ونمو الإحساس بمسؤولية ملء الوقت بكل ما هو من البناء على صعيد الفرد والجماعة بسبيل.

وإذا حاسب كل امرئ نفسه واستشعر مسؤوليته أمام الله ثم أمام مجتمعه وأمته، كان من الممكن أن تأخذ كل الطاقات الفاعلة طريقها إلى وضع أقوى وأسلم، في إطار وعي شامل وثبات لا يتزعزع أمام الحقيقة، حقيقة ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤]، وأن الإنسان يُبْعَثُ على ما مات عليه: فقد روى مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» قال الإمام النووي: أي على الحالة التي مات عليها.



البناء.. والوقت
ومسيرتنا الحضارية
«٣»

القراءة الواعية المتدبرة للمسيرة الحضارية في ظل الدعوة المحمدية، تكشف عن وجه من وجوه الحكمة في عناية الإسلام بأمر الحفاظ على الوقت، والاهتمام بتنمية الإحساس بقيمته ودوره على صعيد البناء.

فالحِقبة الزمنية التي فتح المسلمون خلالها تلك البلاد الشاسعة المتسعة الأرجاء في الشرق والغرب، تدل - بقصرها - على ما كان للوقت من أهمية في نظر أولئك الرواد، وإلى أي حدّ كانوا على مستوى المسؤولية في مراقبتهم لله تعالى، واستشعار حق الأمة في أعناقهم على هذا الصعيد.

وما من ريب في أن هداية القرآن العظيم، كانت تظلل خطى أولئك البررة الذين ركزوا رايات التوحيد في تلك الآفاق، ونشروا ثقافة الإسلام وخطوا على أرض التاريخ مسالك حضارة الإنسان بناءً سليم القواعد متين الأركان.

ولقد كنّا من قريب مع واحد من المعالم القرآنية في سورة فاطر، رأينا من خلاله كيف كان القرآن حفياً بالوقت حين ندّد بأولئك الكفرة، الذين عُمّروا وأرسل الله إليهم الرسل ولكنهم ملؤوا أوقاتهم بالجهالة الجهلاء، وذهبت أعمارهم سدى، وبدلاً من أن يستجيبوا لدعوة الحق التي حملها إليهم أولئك الرسل عليهم السلام، راحوا يتمرغون بالضلالة، ولا يتذكرون مستهترين بالوقت حتى كأنه لا شيء!!.

والحق أن قوله تعالى خطاباً لأولئك الكافرين يوم القيامة ﴿أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[فاطر:٣٧]. يقفنا على واحد من وجوه الحكمة العظيمة في تحديد أوقات العبادات في شريعة الإسلام كالذي نرى في مواقيت الحج، وهلال رمضان، وأوقات الصلوات الخمس، وحولان الحول في فريضة الزكاة وما يجري على هذا السنن من ضرورة الوفاء ضمن الوقت المحدد.

ولا يخفى ما في ذلك من تبصير المسلم بمكانة الوقت وأهمية الفاظ عليه، بملئه بالخير النافع من العمل وقديماً قالوا: الوقت كالسيف إن لم تقعطه قطعك.

والمسلم المعاصر اليوم وهو يودّع سنيّ مرحلة من الشدة الشادة، ويحاول أن يستأنف مسيرة الخير على خطا من ارتادوا الطريق لعملية البناء الأولى، يوم أثمرت تلك الحضارة الإسلامية التي لا تزال، ولن تزال آثارها باقية في عالم الفكر والتشريع والاجتماع والاقتصاد..

هذا المسلم المعاصر يحتاج فيما يحتاجه وهو يواجه التحديات، تقديراً عميقاً لقيمة الوقت والعمل على أن تكون كل لحظة من لحظات حياته بحسبان: لأن الأهداف التي يتطلع إلى تحقيقها، محال أن يبلغها اللاهون العابثون.

ولقد كان المعلم القرآني على غاية الوضوح فيما نزع إليه من تنبيه الأمة من طريق ما يكون يوم القيامة من ذاك الحوار مع الكافرين الذين استهانوا بالوقت وأفنوا أعمارهم في طاعة الشيطان فباؤوا بالخزي العظيم.



الوقت والبناء.. وعلم الساعة
«٤»

مع الحديث عن الحفاظ على الوقت، وما يعطي المعلم القرآني في سورة فاطر من وجوب الاهتمام به اهتماماً يليق بقيمته في الدنيا والمسؤولية عنه يوم القيامة بين يدي رب العالمين.. مع هذا الحديث بكلماته المؤجزة ألمحنا إلى أن من حكمة الله البالغة: أن أخفى على عباده آجالهم، وأن أحداً لا يدري متى تكون النهاية ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٣٤﴾﴾.

ومما لا ريب فيه أن الله تبارك وتعالى - وهو الحكيم الخبير - قد استأثر بتحديد هذه الآجال والعلم بها متى تكون، ذلكم قوله تعالى في آخر آية من سورة لقمان: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴿٣٤﴾﴾.

والواقع أن الله تبارك وتعالى كما تدل هذه الآية وغيرها، لم يستأثر بعلمه آجال العباد فحسب، وإنما أخفى عن عباده أمر الساعة فلا أحد يدري متى تقوم القيامة، مع أن ذلك من اليقين في عقيدة المؤمن، فالإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الستة كما هو معلوم.

وأحسب ـ والله أعلم ـ أن تلمس الحكمة من وراء هذا الغيب في أمر قيام الساعة لا يحتاج إلى طويل بحث ونظر، إنه الفسح ـ والله أعلم ـ في أمد العمل البناء الذي يعود على المؤمن بالخير في الدنيا والآخرة، ولو علم الناس متى الساعة، لتوقفت حركة إعمار الكون والأخذ بالأسباب ولتعطل تسخير هذا الكون للعباد كما أراد ربنا تبارك وتعالى، والمهم أن لا يدع المؤمن فرصة تمر إلا ويملؤها بالعمل

الصالح المجدي كيما يلقى الله وهو عنه راض. وأنت ترى أن الآية الناطقة بما استأثر الله بعلمه في سورة لقمان: قد بدئت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤].

حتى الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يدري متى الساعة، ولكن أخبر عن أمارتها، ففي سورة الأعراف: نقرأ قوله جل وعز: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١٨٧)﴾[الأعراف: ١٨٧].

وفي سورة النازعات ﴿فيم أنت من ذكراها (٤٣) إلى ربك منتهاها (٤٤) إنما أنت منذر من يخشاها (٤٥) كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٤٦)﴾[النازعات: ٤٣-٤٦].

وإذا كان الأمر كذلك: فلا تعجبوا أيها الأخوة إن عدت إلى التذكير مرة أخرى بأن حجب علم الساعة عن العباد: إعلان غاية في الوضوح عن حرمة الوقت، ووجوب شغله بما يرضي الله، ويعود على المجتمع والأمة بالخير، وإذن فلا بد من القيام بواجب العمل عند القدرة عليه، والتعلُّل بتعلة الكون بريد الإهمال مرفوض: لأنه يتنافى مع تحقيق مسؤولية العمل. وذلكم هو طريق البناء الذي ينمّي قدرة الأمة وطاقاتها على كل صعيد، ويجعلها عزيزة الجانب يحسب حسابها في الميزان العالمي، وما وراء ذلك من السعادة الأخروية أعظم وأبقى، روى أحمد وغيره بسند صحيح عن أنسبن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد احدكم فسيلةٌ فإن استطاع الا يقوم حتى يغرسها فليفعل».



الصحابة والوقت.. على طريق البناء
«٥»

العلم بحقائق الأمور ضرورة لا غنى عنها، ولكن الأهم من ذلك أن ينعكس هذا العلم على تصرفات الفرد والجماعة، ويزيد من قدرة الأمة على البناء، واستدراك الوقت، وبعثرة الجهود، والغفلة عن مقومات البناء والنماء.

ولقد صحبنا في كلام قريب العهد واحداً من المعالم القرآنية الذي دلَّ في عديد من الآيات الكريمة على أن قيام الساعة مما استأثر الله بعلمه، وأن أحداً لا يدري متى الساعة: ﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴿٦٣﴾﴾[الأحزاب: ٦٣].

وهكذا نجد أنه حتى الرسول عليه الصلاة والسلام قد حجب عنه علم الساعة، فهو لا يدري متى تكون؟ ولذا كان من جوابه لجبريل عليه السلام حين سأله عن الساعة ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ثم أخبره عن أماراتها.

ولعلنا لا نغالي حين نقرر أن أصحاب النبي ﷺ، وهم الرعيل الأول الذي وكلت إليه أمانة البناء الفكري والتشريعي والاقتصادي والدولي، بقيادة رسول الله ﷺ في المجتمع الناشىء على أنقاض الجاهلية حيث المعتقدات الوثنية والعادات الجاهلية والصراع الدائر بين أهل الحق وأهل الباطل.. لعلنا لا نغالي حين نقرر أن هؤلاء البررة عليهم الرحمة والرضوان، لم يزدهم الغيب في علم الساعة إلا قدرة على الانطلاق، ضرباً في ميادين البناء، بناء أنفسهم إيماناً وسلوكاً وأخذا لتلك الأنفس بالطاعة والبذل، وبناء أسرهم ومجتمعهم بناءً تظهر فيه ملامح الدعوة الربانية بعمقها، وشمولها لكل ما يصلح شأن المجتمع في دينه ودنياه وآخرته.

ومسؤولية الفرد منهم عن الوقت أمام الله عز وجل: كانت قاعدة من قواعد الانطلاق.

فالساعة لا بد قائمة، ولكن المهم هو العمل وملء الوقت بما يجدي، ألم يقل الرسول ﷺ ـ وهو المبين عن الله ما أراد ـ كما أسلفنا من قبل: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»؟!.

نعود مرة أخرى إلى استذكار أن ما عرضنا له من الآيات في كتاب الله حريٌّ أن يزيد العاملين حرصاً على تنمية الإحساس بقيمة الوقت عند الجيل المسلم المؤتمن على مرحلة البناء والنماء. وكم أفاد أعداؤنا من هذه القضية المهمة التي هي بالنسبة إلينا أمرٌ من أمور الدين، ومن الثوابت التي لا يختلف عليها منصفان!!.



الاعتدال والتوسط في الإنفاق

من حكمة هذا الإسلام العظيم كما أراده الله تبارك وتعالى: أنه حرص ـ في نور الجمع بين البناء الحضاري في الدنيا والاهتمام بحسن العاقبة في الآخرة ـ على التكامل في أخلاق الفرد المؤمن وسلوكه، بحيث لا ينمو خلق على حساب خلق آخر، ولا تكمل خصلة على حساب خصلة أخرى.

وهنا نشير إلى واحد من أخلاق عباد الرحمن التي ذكرها الله تعالى في سورة الفرقان، فقد عدّدت الآيات الكريمة مجموعة من الصفات التي تميز عباد الرحمن عن غيرهم، حيث أضافهم الحق إلى نفسه تكريماً وفضلاً، مع أن الخلق كلهم عباده، وقد بلغت هذه الأخلاق التي تعتبر صفات يعرفون بها: احد عشر خلقاً هي قوام السلوك عند من أكرمهم الله تعالى فسماهم (عباد الرحمن).

وكان من هذه الأخلاق انهم على غاية الاعتدال والتوسط في الإنفاق، فهم ليسوا مسرفين مبذرين، ولا مقترين وضيقين، فإذا أنفقوا على أنفسهم وعلى من ولأهم الله إعالتهم، كانوا على طريق التوسط بين الإسراف والتقتير. قال الله سبحانه: ﴿والَّذِين إِذَا أنفقُوا لمْ يُسْرِفُوا ولمْ يقْتُرُوا وكان بيْن ذلك قوامًا ﴿٦٧﴾﴾ض والقوام: العدل والاعتدال.

وهذا الذي نراه من أخلاق عباد الرحمن في الإنفاق لا ينبغي ان يكون مدعاة للتقصير في شيء من الحقوق أو الإخلال بأي من الواجبات المالية، والإنفاق في سبيل الله، إذ المهم أن يكون الفرد ـ وهو اللبنة الأولى في كيان الجماعة ـ على الجادة دون إفراط أو تفريط.

وإنا واجدون في سورة الإسراء ما يجعل هذه القضية أكثر وضوحاً. ذلكم قول ربنا جلت كلمته: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ﴿٢٦﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴿٢٧﴾﴾[الإسراء: ٢٦-٢٧]. إلى أن يقول: ﴿ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴿٢٩﴾﴾[الإسراء: ٢٩]..

إن الإسلام الذي يريد للمجتمع المسلم أن يسير في الطريق المأمونة. يريد للمال أن يوضع في موضعه. ويريد للحقوق أن تؤدى، وللواجبات أن لا ينتقص منها شيء، فلا تبذير يجعل المرء من إخوان الشياطين، ولا شح يحمل على التقصير ومساوىء الأخلاق.

وإذا نظرنا إلى هذه القضية بالمنظار العام دون حصرها بفرد أو أفراد أدركنا أيّ سياج من الحفاظ على المال، والحيطة لأداء الحقوق، والاستمساك بأخلاق الرجال، كان قوام البناء في حياة الفرد والجماعة في ميدان يتشابك فيه الاقتصاد بالأخلاق، في ظل عقيدة ربانية شاء الحكيم الخبير أن تكون القاعدة التي يقوم عليها البناء.

ولو وضعنا مفهومات الإسلام نصب أعيننا في هذه الساحة من ساحات الحركة، لوفرنا على أنفسنا كثيراً من المشكلات والمصاعب، ولأسهمنا أيما إسهام في استقرار المجتمع على صعيد الفرد والأسرة والجماعة ولله عاقبة الأمور.



بين الحقيقة.. والخرافة
وما يجب أن يكون

خرافة أن اليهود شعب الله المختار، وأنهم أهل الدين المظلومون، والمرضيون عند الله في الدنيا والآخرة: هي بالنسبة إليهم جزء من منهج سلكوه في إثارة المشاعر والهجرة إلى فلسطين وتحريك العاطفة الدينية عند كل يهودي في العالم، ليبذل ويعطي في سبيل تحقيق الغايات التي ينشدون.

على أن القرآن الكريم ذكر بوضوح أن اليهود والنصارى يشتركون في دعوى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقد جاء الرد عليهم بأنهم إذا كانوا حقاً أبناء الله وأحباءه، فلم يعذبهم بذنوبهم وهم على هذه الدرجة من القرب منه؟ وما دام يعذبهم بذنوبهم: فدعواهم باطلة، بل هم بشر ممن خلق، والناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وبعد ذلك كله، الأمر بيد الله سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ذلكم قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة:١٨] ولئن اشترك اليهود والنصارى في هذه الدعوى المضحكة، لقد انفرد اليهود بادعاء أنهم لو نالهم العذاب في الآخرة، فلن تمسهم النار إلا أياماً معدودة جاء في سورة البقرة ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة:٨٠].

هكذا كان الرد الواضح الجلي: قل يا محمد: هل اتخذتم عند الله عهداً بأن لاتمسكم النار يوم القيامة إلا أياماً معدودة، ولن يخلف الله عهده أم تفترون وتكذبون، فتقولون على الله ما ليس لكم به علم، فهو ظن وتخمين، ودعوى ليس

عليها دليل؟ إنه الاستفهام الذي يؤدي غرض الإنكار عليهم، وتوبيخهم على هذه المقالة التي هي عبث من العبث، وصورة من صور اللامبالاة بحقيقة الدين، مع المساومة على الدين والمتاجرة بالعناوين.

أليس عجيباً أن يتنادى أهل الباطل فيتعاونون، وينتصبون تحت شعارات من الزيف والباطل يطلقونها باسم الدين، ونحن أهل الكلمة الصادقة الذين قام الدليل على كل دعوى ندعيها، وليس في ديننا قضية خلت من سلطان وبرهان: نضعف في أن نجمع شمل الأمة على الحق تحت راية لا إله إلا الله ؟! أليس عجيباً ـ ونحن أمة العقيدة والجهاد ـ أن نهون على أنفسنا، ونحن أصحاب الحق، فتؤول الأمور إلى ماآلت إليه، حيث يتربع الغاصب على أرضنا، ويعبث بمقدساتنا؟!!

إن الدرس الذي ينبغي أن نأخذه من صنيع أعدائنا، هو أن نجند كل الطاقات لمرحلة قريبة تعمل فيها العقيدة عملها، في إثارة العزائم، وشحذ الهمم، لتنطلق هذه الأمة مجاهدة تحت اللواء، صادقة في المواطن، صابرة على تبعات الطريق، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ويتبدى زيف ما يدعي الأعداء، ويعود الحق إلى أهله كاملاً غير منقوص. والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنتهدي لولا ان هدانا الله.



.. فهو في سبيل الله

في بيان نبوي لمعلم قرآني على طريق الدعوة إلى العمل والسعي: نأخذه نصاً واستنباطاً من كثير من آيات الكتاب الكريم، كما في قوله تعالى في سورة الملك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥] وقوله جل وعلا في سورة النجم: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴿٣٩﴾﴾[النجم:٣٩] وقوله جل وعلا في سورة الأعراف: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١٦٠].

وكذلك من كثير من البيان النبوي لهذا المعلم الكريم: إذ نجد رسول الله ﷺ . يجعل من العمل لكسب الرزق الحلال، دون رياء أو مفاخرة، نوعاً من العبادة يُرفع إلى ان يكون في سبيل الله...

فقد روى البيهقي من حديث أنس وابن عمر، والطبراني في معاجمه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة: ما جاء في الحديث الصحيح: أنه مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله!! فقال رسول الله ﷺ: **« إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان ».**

وأحسب أن الأمر في هذا البيان لا يحتاج إلى مزيد إيضاح، إن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه - وهو يتجه صوب التاريخ الحضاري القائم على الحق، وبناء أمة قادرة على صنع هذا التاريخ الحضاري القائم على الحق - حدد المفهومات للجماعة التي وكل إليها البناء، وهو تحديد ذو أبعاد على صعيد الفرد والجماعة والأمة، لأن

التوسع في معنى «العبادة» ومفهوم «في سبيل الله» على هذه الشاكلة يحرك العزائم فلا يقعد قادر على العمل، وتنمو الحوافز النفسية حتى تصنع ما يكاد يكون مستحيلاً في ميادين بناء الإنسان واقتصاد الأمة، وتنمية قدراتها التي تسلم معها المسيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي..

وإذا كنا على ذكر من رحلة البناء التي قادها رسول الله ﷺ في الداخل لبناء المجتمع والدولة، ودفع عاديات اليهود والمنافقين، ورحلة البناء على الصعيد الخارجي وما واجه رسول الله ﷺ من اليهود والمنافقين أيضاً ومعهم المشركون، إذا ذكرنا ذلك سلم لنا تصور صحيح ندرك معه مكانة هذا التحديد الذي حدده رسول الله ﷺ.

وما كان لهذا التوسع في مفهوم العبادة ومصطلح في سبيل الله من أثر عملي فعَّال، ناهيك هنا عما يعطيه ذلك من مفهومات تضع رسالة الإسلام مع واقع الحياة والإنسان، فهي تبني الإنسان وتنمي طاقاته على مفهومات واضحة وقيم غاية في الإشراق والواقعية، ثم تجعل من العبادة انسياح هذا المسلم في الأرض بنية خالصة يبني وينمي ويستثمر ويهيئ موارد القوة للأمة التي تحمل رسالة الهداية إلى الناس كلهم وفي الأزمنة كلها.

وسبحان من أكرمنا بدين الإسلام الذي أكمله ورضيه لنا، وأتم لنا به النعمة، ونسأله مزيداً من توفيقه لشكر هذه النعماء العظيمة شكراً يتجاوز القول إلى العمل الخالص، وبناء شؤون الحياة على قواعده، إنه ـ جلَّ شأنه ـ وليُّ ذلك والقادر عليه.



النقد الذاتي

أن تبتلى أمة بانتقاص جزء من أرضها يحتازه العدو ظلماً وبغياً، بلاء كبير ما في ذلك ريب، ولكن البلاء الأشد، أن تبتعد تلك الأمة عن ساحة العبرة وأخذ الدروس من ذاك البلاء...

أن تنسى ما لا يصح أن تنساه، فتواجه العدو بلا ذاكرة، لتُسقط من إعدادها للمواجهة واحداً من الأسلحة التي ترهب ذلك العدو، أن تنشغل وهي تلعق جراحها، وتلملم شتاتها، عما توجبه طبائع الأمور ومنطق الصراع من النقد الذاتي وحساب الخطأ والصواب بدقة بعيدة عن سلطان الأنا والدعاوى المريضة الفارغة.

أن تنشغل عن هذا التقويم بالكلام عن العدو فقط، لا كلام البناء بعد الهدم، واستخلاص النتائج من المقدمات، والتحقق من ثغرات الضعف ومكامن القوّة، ولكن كلام التشتت الذي لا يدفع صاحبه ثمنه، ولا يحمل مسؤوليته.

أن يقع هذا كله عليها أو تقع عليه دون شعور بمسؤولية التغيير والصبر على متطلباته بلاء متحدد يطول حتى الأجيال القادمة والعياذ بالله!!

وما أحوجنا اليوم وقطع الليل المظلم من الفتن تنوشنا من هنا وهناك، أن نتلمس معالم القرآن الكريم نستلهم منها ما يبدد ظلام الحيرة ويضيء دروب النصر.

ومن تلك المعالم تربية الرعيل الأول من الجيل على تحمل المسؤولية بشجاعة وإقدام، والدربة على النقد الذاتي في تقويم يكشف عن الخطأ ليجتنب، وعن الصواب ليدوم الثبات عليه.

ولا تكاد ترى معركة من المعارك إلا وقد أعطاها القرآن الكريمُ في ضوء الرسالة حكماً معيناً محدداً بالتصريح أو التلويح، الأمر الذي يجعلها حلقة واضحة الوجود، تأخذ أبعادها في البناء، لا حدثاً مبتوراً عن الحياة والمجتمع: ففي سورة آل عمران

تقرأ في شأن بدر قوله تعالى: ﴿ولقدْ نصركُمُ اللهُ ببدْرٍ وأنتمْ أذلةٌ فاتقُوا الله لعلكُمْ تشكُرُون ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣] وفي شأن حنين جاء في سورة التوبة قوله تبارك وتعالى: ﴿لقدْ نصركُمُ اللهُ في مواطن كثيرةٍ ويوْم حُنيْنٍ إذْ أعْجبتْكُمْ كثْرتُكُمْ فلمْ تُغْنِ عنكُمْ شيْئًا وضاقتْ عليْكُمُ الأرْضُ بما رحُبتْ ثُمّ وليْتُم مُدْبرين ﴿٢٥﴾ ثُمّ أنزل اللهُ سكينتهُ علىٰ رسُوله وعلى الْمُؤْمنين وأنزل جُنُودًا لّمْ تروْها وعذّب الّذين كفرُوا وذلك جزاءُ الْكافرين ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

واكثر من هذا: لقد عاتب الله رسوله الكريم وأصحابه أيّ عتاب على اخذ الأسرى في أعقاب غزوة (بدر) لما أن الوقت لم يحن لذلك فقال جل وعز: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكُون لهُ أسْرىٰ حتّىٰ يُثْخن في الأرْض تُريدُون عرض الدُّنْيا واللهُ يُريدُ الآخرة واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴿٦٧﴾ لّوْلا كتابٌ مّن الله سبق لمسّكُمْ فيما أخذْتُمْ عذابٌ عظيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الانفال:٦٧-٦٨].

وأخذ الكلام عن معركة احد حيزاً مباركاً نقرأ منه في سورة آل عمران قول الله تباركت اسماؤه: ﴿ولقدْ صدقكُمُ اللهُ وعْدهُ إذْ تحُسُّونهُم بإذْنه حتّىٰ إذا فشلْتُمْ وتنازعْتُمْ في الأمْر وعصيْتُم مّنۢ بعْد ما أراكُم مّا تُحبُّون منكُم مّن يُريدُ الدُّنْيا ومنكُم مّن يُريدُ الآخرة ثُمّ صرفكُمْ عنْهُمْ ليبْتليكُمْ ولقدْ عفا عنكُمْ واللهُ ذُو فضْلٍ على الْمُؤْمنين ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢].

وقوله سبحانه: ﴿إنّ الّذين تولّوْا منكُمْ يوْم الْتقى الْجمْعان إنّما اسْتزلّهُمُ الشّيْطانُ ببعْض ما كسبُوا ولقدْ عفا اللهُ عنْهُمْ إنّ الله غفُورٌ حليمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

الا ما أروعها قوارع تقتلع عوامل الضعف من جذورها، وتبصر بمعالم النصر والهزيمة. ولا تدع أن تضع المعركة ـ أو الواقعة عموماً ـ موضعها من الرسالة لأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت، والمؤمنين يقاتلون في سبيل الله.

كم يتمنى المخلصون أن تبرهن الأمة على وعي ابنائها، فتقوم على هدي هذا المعلم القرآني في النقد الذاتي والتقويم بمسح شامل لما يقع في العالم الإسلامي من خسارة أو ربح، من إقدام أو إحجام: فالخطوة الثابتة المتقدمة تبدأ من هنا والله ولي المجاهدين الصابرين.

بين الحقيقة.. والواقع

من سمات الأمة التي تملك النظرات الذاتية الأصيلة: أن لا تجرها الأحداث الطارئة إلى تغيير قيمها ومنطلقاتها التي يفترض أن تحدد مسارها، وإنما تحدد الطارىء وتعود في تقويمه والحكم عليه، إلى تلك القيم والمنطلقات.

في ضوء هذه الكلمات: أرجو أن لا يتهمني بالتخيل والوهم فيما سأقول من قد تكون الأحداث الأخيرة وما عليه اليهود اليوم من نفاذ وسلطان، قد جعل بعض الحقائق تهتز في نفوسهم.

فلست ـ في الواقع ـ من الضاربين في صحراء الخيال، ولكنها الحقيقة التي انشدها وأومن بها من خلال ما جاء من الوحي عن الله عز وجل، وما دلت عليه الوقائع عبر التاريخ وما أحكمت رباطه عقدة الإيمان الذي لا يتزعزع.

فمن المعالم القرآنية في سجل ثقافتنا وثوابتنا عن اليهود: أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب الله. جاءت هذه الحقيقة في أكثر من موطن من القرآن الكريم، وإنما كان ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق، نعم كان ذلك بسبب عصيانهم وضلالهم وتجاوزهم الحلال إلى الحرام وافتراء الكذب على الله.

إن ما وصل إليه اليهود ـ اليوم ـ بعد زحف دام آلاف السنين لا يغير من واقع ذكره القرآن ـ وهو من الثوابت ـ شيئاً، فقد حملت إلينا آيات الكتاب الكريم أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة، من ذلك ما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى خطاباً لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ

بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٦١)﴾ [البقرة:٦١] . والآية الكريمة تدل بالواضح من العبارة أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم، وجاء تعليل ذلك، بأن هذا إنما كان بسبب كفرهم وقتلهم النبيين بغير حق. وللتأكيد أبان أيضاً أن ذلك كان بسبب عصيانهم، واعتدائهم على الحق وأهله من رسل الله وأنصارهم وبتجاوزهم الحلال إلى الحرام، والباء السببية في كل من كلمتي (بأنهم) و(بما عصوا)، لا تدع ريبة لمستريب.

وفي سورة آل عمران خاطب الله المؤمنين في كلام عن اليهود بقوله جل وعلا: ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١١٢)﴾ [آل عمران:١١٢].

ففي هذه الآية كما ترى طمأنة للمؤمنين بأن اليهود لن يضروهم بشيء، إلا مايكون من أذى اللسان والوعيد وما إلى ذلك، وإذا قاتلوهم ولوا الأدبار منهزمين، ثم لا ينصرون عليكم بل النصر لكم بوصفكم مؤمنين. ثم ذكرت الآية ما يؤكد الذي أسلفناه من ضرب الذلة عليهم حيثما وجدوا فلا عز ولا كرامة إلا بحبل من الله وحبل من الناس وهم المؤمنون ـ يومذاك ـ من طريق العهد والأمان، فلا عصمة لهم غير ذلك، كما أكدت الآية ضرب المسكنة عليهم وكونهم باؤوا بغضب من الله بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق.

وفي زيادة بيان على بيان جاء قوله تعالى: ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [المائدة:٧٨] وباء السببية والجملة التعليلية في غاية الوضوح.

والسؤال الملحّ: لم تبدو الأمور على ما هي عليه الآن؟ ما أحسب عاقلاً عنده شيء من الاطّلاع على واقع التخلف ـ عموماً ـ والتخلف عما يوجبه الإسلام من الأخذ بالأسباب على مختلف أنواعها وفق التطور. وبخاصة عند من ائتمنوا على صنع القرار في ضوء قيم الأمة ـ ومن عيونها إعداد العدة المستطاعة ـ:... ما أحسب

عاقلاً مطلعاً ذا ذاكرة غير مثقوبة: يعجز عن الجواب الصحيح، خصوصاً إذا توافرت الجرأة الأدبية في الاعتراف بما عليه العدو مما هو على العكس مما نحن عليه ـ على وجه العموم ـ ولله سنن لا تتحوَّل فإذا شئنا نصره: فعلينا أن نسلك سبيل النصر.

هذه حقيقة لم يرد عليها ناسخ، فالذل والمسكنة والغضب من الله كل ذلك مضروب عليهم فلا عز لهم ولا اعتصام إلا بحبل من الله وحبل من الناس حيث كان المؤمنون يعطونهم العهد والأمان. أو يتراجع المؤمنون عن مواقعهم ويخلون الساحة للعدو الذي همُّه القضاء عليهم بلا ريب.

وأكثر من هذا خاطب الله المؤمنين بوصفهم مؤمنين بقوله عن اليهود: ﴿لن يضرُّوكُمْ إلاَّ أذًى وإن يُقَاتِلُوكُمْ يولُّوكُمُ الأدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران:١١١].



ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

تدبر آيات القرآن بتأملها والوقوف عندها وقفات واعيةً تحمل على الفهم، وتتجاوز ذلك إلى العمل وتطبيق الأحكام: أمر ينبغي أن يكون سمة المسلمين في صلتهم بكتاب ربهم، ليتذكروا، فيكون هذا الكتاب شفاء ورحمة للأمة مما قد يعانيه الفرد أو الجماعة في أي من مجالات الحياة: فالقرآن هدىً ونور وشفاء، والتدبر الواعي بقلب خاشع مستنير، وعقل متفتح مبصر: هو الباب العريض لهذا الخير الذي نرجو أن لا يحرم من دخوله مسلم ولا مسلمة، بل إن الكفار طلب منهم تأمل معانيه ليروا كيف أن العقل السليم يحكم بأنه من عند الله، اقرأوا إن شئتم في سورة النساء: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن ولوْ كان منْ عند غيْر الله لوجدُوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] وفي سورة ص خوطب النبي ﷺ قوله عز وجل: ﴿كتابٌ أنزلْناهُ إليْك مُباركٌ ليدّبّرُوا آياته وليتذكّر أُولُوا الألْباب ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩] فهو منزل للتدبر، والتدبر طريق التذكر والذين يتذكرون هم أولو الألباب وفي صورة من صور الحض على التدبر وفي تهديد من لا يتدبرون جاء قوله تعالى في سورة محمد: ﴿أفلا يتدبّرُون القُرْآن أمْ علىٰ قُلُوبٍ أقْفالُها ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤] أعاذنا الله من ذلك، وجعلنا من الذين يتلون فيتدبرون ويتذكرون.

ومما يجب التنبه إليه، أن المعرفة بسبب نزول الآية والآيات: أمر مهم للفهم، وهو المرحلة الأولى في ذلك، والجهل بسبب النزول قد يوقع في تأويل القرآن على غير وجهه، ويكون من وراء ذلك مخالفة في العمل: ومن أمثلة ذلك ما نقرأ عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وأنفقُوا في سبيل الله ولا تُلْقُوا بأيْديكُمْ إلى التّهْلُكة وأحْسنُوا إنّ الله يُحبُّ الْمُحْسنين ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥] فقد روى الترمذي وأبو داود واللفظ هنا للترمذي عن أسلم أبي عمران قال: «كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفاً

عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة! فقام أبو ايوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس، إنكم لتؤولون الآية هذا التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار: لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض ـ سراً دون رسول الله ﷺ ـ إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو اقمنا في أموالنا، فاصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه يرد ما قلنا: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكُمْ إلى التهلُكة﴾ وكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم».

وهكذا ـ نجد الفرق بعيداً بين أن يكون الإلقاء باليد إلى التهلكة هو الإقدام المستميت في قتال الأعداء، وبين أن يكون القعودُ عن الغزو والقتال وعدم الإنفاق في سبيل الله، فالذي أوضحه ابو ايوب رضي الله عنه من سبب نزول الآية: دلّ على الفهم الصحيح الذي يكون من ورائه تدبر صحيح: والإسلام لا يقف عقبة في طريق الإقامة على المال وتنميته، ولكن القعود عن الجهاد والإنفاق في سبيل الله: يكون من ورائه سلطان العدو اغتصابه الأرض والمال، ناهيك عن الغطرسة والإذلال.

إن الدرس في هذه الآية الكريمة وسبب نزولها عميق ودقيق، وإنما يفيد من دروس القرآن من فتحوا قلوبهم وعقولهم لهدايته، فتدبروا وتذكَّروا، أما سدنة الضلال والمنافقون: فلا يزدادون به إلا طغياناً وكفراً. فليحاسب كل امرئ نفسه. ألم تسمع إلى قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ونُنَزِّلُ من القُرآن ما هُو شفاءٌ ورحْمةٌ للْمؤْمنين ولا يزيدُ الظَّالمين إلاَّ خسارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢].



الرسول المعلم ﷺ

قضية العلم والتعليم في الإسلام: قضية يبدو الدفاع عنها في بعض الأحيان إجهاداً للعقل في إقامة الدليل على واحدة من البدهيات والمسلّمات.

ولولا كبوة المسلمين في هذا القرن، وريح عاتية هبت عليهم من وراء السهوب والبحار تملي على نفر من أجيالهم أن يتساءلوا عن مكانة العلم في الإسلام، لما كان ما رأيناه من الأخذ والرد في مستهل هذا القرن حول هذه النقطة، مع أنها عند المنصفين من البدهيات والمسلّمات كما قلت، سواء أكان ذلك على صعيد النصوص في كتاب اللّه وسنة رسوله، أم كان على صعيد الواقع العملي في حياة المسلمين، بدءاً من عصر النبوة وحتى يوم الناس هذا.

والثروة العلمية والفكرية المطبوع منها والمخطوط عبر القرون في تاريخنا من بعض الشواهد لما نقول.

ولست الآن بسبيل أن أخالف ما ألمحت إليه فأنسج كياناً من الأدلة على الذي هو بدهي، ولكني أود أن أذكّر ـ ولو متعجلاً ـ بصورة تتعلق بالعلم والتعليم من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام.

أن يكون لمذهب من المذاهب الفكرية والسياسية والاقتصادية منهج يضع العلم موضعه الملائم: أمر يبدو طبيعياً ومألوفاً، ولكن أن يكون الرسول الموحى إليه هو الصورة الناطقة بهذه القضية الكبرى في قوله وفعله وسلوكه طوال حقبة الرسالة، منذ مبعثه وحتى لحق ـ فداه أبي وأمي ـ بالرفيق الأعلى: أمر يعطي للموضوع أهمية أكثر وأكثر، لما أن القضية باتت مرتبطة بالإيمان لأن من يقوم بها رسول يوحى

إليه وهو مبين عن الله عز وجل، لا خيرة لمن آمن به في أن يفعل أو لا يفعل، ولا بد أن يوضع ذلك في حسباننا عند النهج والتخطيط، كي نكون قادرين على الجمع بين الأصالة والتحديث.

ولقد كان هذا من رسول الله حين قام به وربى الناس عليه بياناً عملياً، لما جاء في القرآن من إعلاء لشأن العلم والتعليم والعلماء.

من أجل هذا رأينا في الكتاب الكريم مناً على رسول الله بتعليمه ما لم يكن يعلم وذلك قوله تعالى: ﴿ولَوْلا فضْلُ الله عليْك ورحْمتُهُ لهمت طَّائفةٌ مِّنْهُمْ أن يُضلُّوك وما يُضلُّون إلاَّ أنفُسهُمْ وما يضُرُّونك من شيْءٍ وأنزل اللهُ عليْك الْكتاب والْحكْمة وعلَّمك ما لمْ تكُن تعْلمُ وكان فضْلُ الله عليْك عظيماً ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣] ودفعاً للالتباس نفى الله عنه أنه يكون ما يوحى إليه ويعلمه الناس شعراً من الشعر فقال تعالى في سورة يس: ﴿وما علَّمْناهُ الشِّعْر وما ينْبغي لهُ إنْ هُو إلاَّ ذكْرٌ وقُرْآنٌ مُّبينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس:٦٩] وفي سورة النجم ﴿ما ضلَّ صاحبُكُمْ وما غوىٰ ﴿٢﴾ وما ينطقُ عن الْهوىٰ ﴿٣﴾ إنْ هُو إلاَّ وحْيٌ يُوحىٰ ﴿٤﴾ علَّمهُ شديدُ الْقُوىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم:٢-٥].

ناهيك عما هو معلوم من أن أول ما خاطبه به الوحي قوله تعالى: ﴿اقْرأْ﴾. والله تبارك وتعالى يعلم أنه أميّ لا يقرأ ولا يكتب، ولكنها الدلالة العميقة على علاقة رسالة الإسلام بالعلم، والإيذان الواضح لكل ذي عينين أن هذه هي الطريق، ومطلوب من الرسول أن يقرأ باسم ربه الذي خلق.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أعطي رسول الله فيما يبلغ ويعلم ويربي ويجاهد، ويؤصل للحق في صراعه مع الباطل صفة المعلم: ففي سورة البقرة ﴿كما أرْسلْنا فيكُمْ رسُولاً مّنكُمْ يتْلُو عليْكُمْ آياتنا ويُزكّيكُمْ ويُعلّمُكُمُ الْكتاب والْحكْمة ويُعلّمُكُم مّا لمْ تكُونُوا تعْلمُون ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة:١٥١] وفي سورة الجمعة ﴿هُو الّذي بعث في الأُمّيّين رسُولاً مّنْهُمْ يتْلُو عليْهمْ آياته ويُزكّيهمْ ويُعلّمُهُمُ الْكتاب والْحكْمة وإن كانُوا من قبْلُ لفي ضلالٍ مُّبينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

أرأيتم يا أبناء هذه الأمة وبناتها: إن النقلة من الضلال المبين إلى الهدى، والتي تعني انتصار العلم على الجهل والقوة على الضعف والحق على الباطل، أنيطت بهذا الرسول الكريم الذي تلا على العرب آيات الله وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة.

وحسبي هنا أن أذكر ـ كما أسلفت ـ بواحدة من وقائع التعليم والتزكية، وكيف أن الوقت كان عنده بحسبان، فهو يتخيّره ويحافظ عليه ويتلمس استعداد من يعلّم ويربي. روى مسلم عن معاذ بن جبل قال: كنت ردف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: «هل تدري ما حق الله على العباد» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق العباد على الله ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «أن لا يعذبهم».

والساعة هنا: أقل زمن متصور وليست الدقائق الستين.

وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير وهدانا إلى الإفادة من علمه الذي علمه وتنوع أساليبه في بناء الفرد والجماعة. والحمد لله الذي علمه ـ وهو النبي الأمي ـ ما لم يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً.



وضوح الرؤية.. وكيان المجتمع

لعل من الخير أن يكون عندنا ـ ونحن ننظر في كيان المجتمع وضمان استمراره وازدهاره من وجهة النظر الإسلامية: وضوح في الرؤية وسلامة التصور لهذه القضية الكبرى.

ذلك لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان شديد الحرص على ترجمة الرسالة الموحى بها إلى وجود عملي متحرك، ولن يكون ذلك إلا، بإنشاء مجتمع تحكمه قيم هذه الرسالة ومبادئها، ويقف الفرد فيه والجماعة موقف الاستجابة النابعة من داخل النفس.

وكانت هذه مهمة شاقة شأن القضايا الكبار في حياة الأمم.

ومما زاد الأمر أهمية وضخامة أن هذا المجتمع يراد له أن يكون أنموذجاً على الصعيد العالمي، لأن الرسالة التي تحكمه رسالة عامة للناس في كل زمان ومكان.

من أجل هذا: لم يقتصر الأمر في القرآن الكريم، وفي بيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام: على العناية بالأمور الإيجابية في البناء على ساحة العقيدة والتشريع، تنظيماً لكل الشؤون، واستجابة لكل طارئ مع تطور المجتمع وتوسعه. وإنما كانت هنالك نظرات دقيقة وعميقة إلى ما يكون به دفع الأذى، ومنع الخلل من الداخل، والحيلولة دون توجيه المجتمع بطاقاته وقدراته وجهة تخالف الأسس التي قام عليها.

كان من هذه النظرات ما رأينا من الآيات الكريمة التي تكشف عن طبيعة النفاق وصفات المنافقين، لأن المنافقين في المجتمع هم تلك الجيوب العفنة، التي تتسلل في الظلام، مستغلة عنوانها الإسلامي وأداءها لشعائر الإسلام يومذاك، مع أن القلوب هواء، قد باض الكفر وعشش فيها والعياذ بالله.

وحرصاً على سلامة البناء والحيلولة دون تفجر المجتمع من الداخل وتبديد الطاقات بدرء الفتن بدلاً من التنمية الإيجابية وكسب مجالات جديدة للدعوة في كل ميدان، رأينا القرآن يكشف عن خلائقهم في أكثر من موطن ويعدد صفاتهم، ويذكر جملة من أعمالهم وتصرفاتهم، ويبين أن مرد ذلك كفرهم الذي يسترونه بالتظاهر بالإيمان، حتى سمّيت سورة في القرآن بكاملها باسمهم - هي سورة «المنافقون». ولعمق ما حوصروا في سورة التوبة، وهتكت أستارهم وكشفت الآيات عن نواياهم ومظاهرتهم للمشركين واليهود، سميت السورة بـ «الفاضحة».

وفي هذه الإلماحة السريعة: لا بأس أن نذكّر بأن القرآن أخذ بيد المؤمنين، إلى ساحة مشرقة من وضوح الرؤية واليقظة والوعي لكل شاردة وواردة، والتنبه لما يلجأ إليه المنافقون من التغرير، والعبث بالألفاظ والعناية بالتزويق.

صورة ذلك ما كان من مسجد الضرار حيث تمالأ اثنا عشر رجلاً من المنافقين مع راهب حاقد يدعى: «عامر» على بناء مسجد يضارون به مسجد قباء، ويكون مباءة للأذى، يتلقطون فيه الأخبار ويطلقون. ويتعاونون مع أهل الباطل محاربة لله ولرسوله وللمسلمين، كل ذلك تحت عنوان أنه مسجد لعبادة الله من أجل الضعيف وصاحب العلة، وطلبوا من الرسول ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك أن يصلي فيه لإقراره، ولكنه لم يفعل ووعدهم أن يفعل بعد العودة. وقبل أن يصل المدينة عائداً من تبوك بيوم أو يومين نزل عليه جبريل عليه السلام بخبر هذا المسجد فأرسل عليه الصلاة والسلام من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما روى محمدبن إسحاق والطبري وغيرهما.

ولقد كانت الآيات الي نزلت بشأن هذا المسجد ونوايا أصحابه، وما يجب أن يفعله رسول الله واضحة كل الوضوح في توجيه الأمة إلى حيث تقضي على جيوب الفتنة، وتحرص على محاصرة عناصر الهدم، والقضاء عليها: حرصها على سلامة الأسس عند البناء. ذلكم قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا

وكُفْرًا وتفريقًا بيْن الْمُؤْمنين وإرْصادًا لمنْ حارب اللهَ ورسُولهُ من قبْلُ وليحْلفنّ إنْ أردْنا إلاّ الْحُسْنى واللهُ يشْهدُ إنّهُمْ لكاذبُون ﴿١٠٧﴾ لا تقُمْ فيه أبدًا لمسْجدٌ أُسّس على التّقْوى منْ أوّل يوْمٍ أحقُّ أن تقُوم فيه فيه رجالٌ يُحبُّون أن يتطهّرُوا واللهُ يُحبُّ الْمُطّهّرين ﴿١٠٨﴾ ﴾ الآيات [التوبة:١٠٧ - ١٠٨].

ألا ما أكرمها دروباً تضيئها معالم القرآن للسالكين، وتحمل على اليقظة ووضوح الرؤية عند أولئك البناة العاملين!!



سنريهم آياتنا في الآفاق

وقفنا فيما سبق من القول على مظهر من مظاهر قدرة الله في كونه الفسيح، وذلك باصطحابنا لواحد من العالم في أيتين من الآيات الكونية من سورة فاطر. ورأينا أن النظر في آثار القدرة الإلهية طريق الإيمان والخشية، والمطلوب أن يتوافر للعالم التجرد والنصفة وأن يُقصى الإرهابُ الفكري ومصادرةُ حرية الإنسان عن طريق العلماء.

ونود اليوم أن نتابع الطريق في هذه العجالة من القول، فنذكر بقوله تعالى في سورة فصلت: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣]

لقد رتبت الآية تبيُّن وجود الله تعالى وقدرته التي خلقت، وصنعته التي اتقنت وأن هذا القرآن هو كلامه الحق على رؤية آياته تعالى في الآفاق وفي الأنفس.

ورؤية آيات الله تعالى في آفاق الكون أرضه وسمائه، وفي النفس الإنسانية، ومااودع الله فيها من خصائص: رؤية علمية متدبرة، تقوم على منهج علمي في البحث واستخلاص النتائج، وفي ظل قواعد محكمة وقوانين هي ثمرة التجربة والاستقراء.. هذه الرؤية الدقيقة لا يمكن أن تكون للإنسان العادي، ولكنها رؤية العالم المتمكن المتخصص. صحيح أن الإنسان العادي قد توصله سلامة الفطرة إلى العميق من الإيمان، وأن كل إنسان قد ينظر في حجم معيّن وفي ساحة معينة تليق بقدرته على النظر، ولكن النظرة العلمية هي الأساس.

وتظل مسؤولية الريادة في أعناق العلماء، أن يحملوا إلى الناس عبر المسيرة الحضارية للإنسان، قناعاتهم الإيمانية التي ولدها العلم والتجربة، وأن هذا الكون لايمكن أن يكون وليد المصادفة، بل إن وراءه في قوانينه المحكمة والنظام الذي يسير

عليه: خالقاً حكيماً لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وأنه كلما ازداد الإنسان نظراً بعين العلم والبصيرة في الآفاق وفي نفسه، ازداد يقيناً بوجود الله وعلمه وقدرته وحكمته.

وهذا يدعو إلى التهيج السليم في إيجاد العلماء ذوي الاختصاص.

وإذا كان الأمر كذلك: فمن حقنا مرة أخرى، أن نذكّر بأن هذا التلازم بين النظر التجريبي والإيمان: يعطي مؤشراً حضارياً في حياة المسلمين يدل على الموقع الطبيعي للعلم بشتى أنواعه في بنيتهم الحضارية، وأن ما يدعى بالعلوم العلمية ليس شيئاً لصيقاً نشده إلى الإسلام بتكلف، ولكنه أمر جذري، لأنه واحد من الطرق الموصلة إلى الإيمان. وضرورة ماسة للإعداد الذي أمرنا به للجهاد في سبيل الله بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ..﴾ الآية [الأنفال:٦٠].

وفي ضوء ذلك، يبدو أن ما يحلو لبعض الناس أن يقوله: من أن هذه قضية علمية وتلك قضية دينية ويعني أنها قضية ترتبط بالغيب فقط ـ على الطريقة الكنسية ـ مسألة غير ذات موضوع، وهي غريبة عن بنية الفكر الإسلامي وحضارة الإسلام وتدل على أن قائلها جاهل أو زائغ.

فالمسلم ـ بوصفه مسلماً ـ يوصله إلى العلم بشكل طبيعي: النظرُ في ملكوت الله، وكم يحتاج ذلك إلى علوم وعلوم ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] وإذن لا بد من العلم لتحقيق هذه المقولة.

ولا علينا بعد هذه النظرة العجلى أن نذكر الدارسين المسلمين بضخامة مسؤوليتهم على طريق التنمية والبناء، في ظل انطلاقة الأمة لاستئناف مسيرتها الحضارية إن شاء الله.

تلك المسؤولية التي تبدأ بشعورهم الصادق أنهم ـ في مختلف تخصصاتهم ودراساتهم ـ: يحققون سلامة نسبتهم إلى الإسلام، ثم في أن يزيلوا من بعض الأذهان ما علق بها من أننا على طريق التنمية والبناء نستعير من هنا وهناك. لا ثم

نظرة إلى التاريخ.. في طريق البناء

في حديث موصول بما جرى الإلماح إليه فيما سلف من الإبانة عن ضرورة الوعي الذي يثمر القدرة على الاعتبار بوقائع التاريخ والإفادة منها للحاضر والمستقبل. يحسن أن نشير إلى أن أمتنا اليوم بأمس الحاجة إلى أن تقرن الأخذ بأسباب القوة، وكل ما من شأنه تنمية فاعليتها البشرية والاقتصادية وإرهاب العدو المتربص.. بنظرات تحليلية ثاقبة إلى وقائع التاريخ ـ وبخاصة في هذا القرن ـ ما اعتورها من ظروف وعوامل في نشأتها، وما كان لها من حجم في حياة الأمة وأبعاد!

ثم ما ترتب عليها بمقاييس التقدم والتقهقر، من وضوح في الرؤية، أو إبهام فيها، الأمر الذي يوجد ملابسات تفرض سلامة التمركز تحت سلطان المنطلقات الأصيلة الأولى، لتصحيح المسار، وضمان التساوق بين العمل والفكر الموجه لذلك العمل، ولكيلا يقع جيل البناء ـ الذي يبتغى له الوقوف على اليابسة تصوراً وسلوكاً ـ فريسة لوهم خادع، أو انشطار في الوجهة، ومخالفة عن طريق النهج الإسلامي الصحيح!

من هنا: كان لا بد من الإشارة إلى أن ما سبق أن قلناه غير مرة في شأن سنن الله التي لا تتخلف، وما تنشيء من حوافز الطمأنينة والإقدام عند أولئك الذين تضعهم الأقدار على طريق البناء، يرفعون قواعده في ميادين الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وتنطلق عقولهم وقلوبهم وسواعدهم إلى طاقات النماء في الأمة، يفجرونها ويضعونها حيث يجب أن تضعها العقيدة وإنسانية الإنسان ـ مصحوباً ذلك بما يقرره العلم، ويوحي به المناخ الذي يتحركون فيه.. ما سبق أن قلناه في ذلك: هو ـ في الحقيقة - جزء من قضية كبرى، ذات نسب إلى ما أسلفنا من التذكير بما أوجب الله من الاعتبار بما حصل للماضين وأن ذلك عنوان تفتح البصيرة، حيث كانت العواقب على خط سواء مع المعتقد والعمل، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأولو الألباب هم أهل الاعتبار، والانتفاع بسنن الله الماضية في ذلك.

غير أن هناك سنناً جرت معالم الكتاب العزيز على تثبيتها في النفوس، وإبراز ما لها من أبعاد في كيان الأمة، وعملية البناء في تاريخها: وهي سنن تقوم على أن انتصار الأمة في الميادين كافة، منوط بصدق الوجهة، والبذل في سبيل الله كلما دعا داعية، والأخذ بأسباب النصر كما أمر الله وبيَّن رسوله عليه الصلاة والسلام.

وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ نقرأ في سورة «الأنفال» قول الله جلت قدرته: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

إنه دستور واضح لا يعتوره شيء من اللبس أو الاحتمال: في أن إرهاب عدو الله وعدو الأمة لا بد له من إعداد القوة، فهو واجب حتمي دلَّ عليه الأمر الصريح بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ ـ والخطاب لكل مسلم ومسلمة ـ وإن كان التنفيذ منوطاً بمن هم في مقام التنهيج والتنفيذ في بنية الدولة.

وقد ترتب على هذا الأمر الإلهي ـ مع ملاحظة أن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب ـ ضرورة اتخاذ كل ما يمكن اتخاذه من الأسباب العلمية والاقتصادية والفكرية وغيرها، من أجل توافر هذه القوة أداءً لحق الله في الوجوب لأن التخلف عن المقدور في ذلك حرام، بعد هذا الخطاب الصريح الجازم ﴿وَأَعِدُّوا﴾.

ثم إن القوة هنا نكرة تحمل طابع العموم «من قوة»، فلتبحث الأمة عن أية قوة مستطاعة مشروعة كي تُعِدها تحقيقاً للهدف الكبير.

وكل توان عن الإعداد بكل شعبه ومستلزماته، وما يأخذ من الأسباب حسب تطور المعرفة في هذا السبيل: مخالفةٌ عن أمر الله وأمر رسوله، ونذير شؤم بسوء النتائج المترتبة على ذلك، من ضعف وذلة وسقوط في حمأة الانقياد لسلطان من لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، لا يردعهم خُلُق، ولا تحول دونهم ودون الظلم قيم، والمقياس عندهم دائماً مصالحهم في التسلط من جميع الوجوه، وما أكثر وأوفر الوقائع الأليمة التي تدل على ذلك بالغ الدلالة، ولكن أكثر الناس لايعلمون.

وهنا ما بدّ من التذكير بأن ترتيب إرهاب عدو الله وعدو الأمة على إعداد القوة المستطاعة: لون من ألوان الإعجاز في النظم القرآني ﴿وأعدُّوا لهُم مَّا اسْتطعْتُم مِّن قُوَّةٍ ومن رِّباط الْخيْلِ تُرْهِبُون به عدُوَّ الله وعدُوَّكُمْ﴾ ولو نصت الآية على النصر: لوقع التخلف بين السبب والمسبب: لأن النصر، يأتي ويذهب.

ولكن إرهاب عدو الله وعدو أمة الإسلام: يجب أن يكون دائماً، وهذا ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى الاستغناء عن المواجهة المادية وإراقة الدماء وما يمكن أن يحدث من الخراب والدمار المادي والمعنوي!! ناهيك عن أن تحقيق ذلك في نفس العدو: يتيح للأمة تبليغ رسالتها الهادية ونشرها في العالمين، بعد أن توافرت لها القوة وذاتية اتخاذ القرار، والوجود المتميز الذي لا يشوبه أيُّ لون من ألوان الخضوع للكفر وأهله!

وعندها تقدم أمتنا لدنيا الإنسان في مختلف البقاع، حقائق هذا الدين القويم وجوداً ناطقاً يتحرك في كل ميدان: تدعم منهجها القيم وقدرتها على إنقاذ البشرية مما هي فيه، القوة التي تصحب الدليل وتنشيء الهيبة في صدور الأعداء، وهي اللغة التي لا بد منها لتحويل المتعنتين بإصرار على محاربة الحق وأهله، مهما توافرت وسائل الإقناع والأدلة الواضحة لكل ذي عقل سليم، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، والقيم الأخلاقية في التعامل دائماً في الحسبان.

ومهما يكن من أمر: فليس بخاف ما يدل عليه من ترتيب المسببات على الأسباب قوله تعالى: ﴿إن تنصُرُوا الله ينصُرْكُمْ ويُثبِّتْ أقْدامكُمْ﴾ [محمد:٧] وقوله: ﴿ولينصُرنَّ اللهُ من ينصُرُهُ إنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

والأسباب هنا: تشمل أعمال الجوارح بالبذل وتقديم المستطاع من كل ما ينفع في إعداد العدة، كما تشمل أعمال القلوب: من صدق، وإخلاص، وحرص على مرضاة الله بأن يكون العمل والبذل والجهاد طاعة لله وفي سبيله، كيما تكون كلمة الله هي العليا! لا للقهر والتسلط، وفي قوله جلّ ذكره: ﴿ ومن يتولَّ الله ورسُولهُ والَّذين آمنُوا

حزْب اللَّه هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦] هل تجد أوضح من ذلك في تحريك الهمم وشحذ العزائم ـ من خلال ما توجبه العقيدة من الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين ـ على نصرة اللّه بنصرة دينه والجهاد في سبيل نصرة الحق الذي دُعيت أمة الإسلام إليه، ومن وجوب طاعته ـ سبحانه ـ في أمره ونهيه وماشرع من أحكام الموالاة والمعاداة والمنهج فيهما، وأن ذلك طريق الفلاح.

والمفلحون ـ على سبيل الحصر ـ هم حزب اللّه تعالى، لا حزب الشيطان؟!

وهكذا نجد إحكام الربط بين إعداد القوة المستطاعة ـ على ما في ذلك من الإطلاق ـ ونصر دين اللّه الذي ارتضاه لعباده بالطاعة الخالصة والجهاد في سبيل اللّه، وبين توليه ـ تباركت أسماؤه ـ للمؤمنين ونصرهم على أعدائهم.

ومن هنا ـ وعلى هذا الخط من الإيجاز ـ يمكن أن نتصور ـ مع صنيع قريش في شأن أبرهة وجيشه حيث تركت اتخاذ الأسباب المستطاعة يومذاك وقالت: إن للبيت رباً يحميه ـ ما كان من دعوة المؤمنين ـ على ما هم فيه من قلة العدد والعُدة ـ إلى خوض معركة بدر يوم الفرقان، وكيف أن صدقهم في بذل المستطاع طلباً للشهادة في سبيل اللّه، كان بمثابة استمطار لإمداد اللّه لهم بالملائكة، والارتقاء بهم إلى قمة النصر المبين.

أجل لقد استنفد أهل بدر ـ وهم يخوضون معركة التوحيد على الصعيد العالمي حقيقة ـ ما في مقدورهم من الأسباب، وأقدموا على خوض المعركة مع عدو يفوقهم بالعدد والعدة إلى حد كبير، مخلصين في طلبهم للشهادة، صادقين في محبة رسول اللّه ﷺ وطاعته، مصدقين كلَّ التصديق بموعود اللّه ورسوله لمن يستشهد أو يُكلَم في سبيل اللّه، وكان لهم من عطاء اللّه وفضله الكبير ما صح عنه عليه الصلاة والسلام في قوله: «لعل اللّه اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» رواه ابن إسحاق والطبري وغيرهما.



الفصل السابع

البناء الفكري



فإنْ

من ملامح البناء الفكري

«١»

لا يعوز الناظرَ المتأمل في معالم القرآن الكريم: أن يقع فيها على الكثير من وجوه الحرص على الذاتية في التفكير، وسلامة التصور، والعمل على النظر في المقدمات وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج.

لذا كان من الممكن القول بأن الدعوة الإسلامية حاولت بشكل مبكر أن تبني قدرة الفرد على التفكير، وتنمي فيه الحرص على سلامة هذا التفكير والبعد عن التناقض الذي قد يوقع فيه التقليد الأعمى وعدم تبصر الإنسان فيما يحيط به من الواقع.

وسوف نأخذ لهذه القضية التي نعتبرها من المسلمات أنموذجاً من سورة «المؤمنون» وهي سورة مكية.

ففيها دعوة للمشركين إلى الإيمان باليوم الآخر من طريق التذكير بخلق الله وقدرته: فهو الخالق الذي أنشأ لعباده السمع والأبصار والأفئدة، وهو الذي فطرهم وأوجدهم، وهو الذي له الحياة والموت واختلاف الليل والنهار قال الله تبارك وتعالى:

﴿وهُو الّذي أنشأ لكُمُ السّمْع والأبْصار والأفْئدة قليلاً مّا تشْكُرُون ﴿٧٨﴾ وهُو الّذي ذرأكُمْ في الأرْض وإليْه تُحْشرُون ﴿٧٩﴾ وهُو الّذي يُحْيي ويُميتُ ولهُ اخْتلافُ اللّيْل والنّهار أفلا تعْقلُون ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون:٧٨-٨٠] .

وإذا كان معنى قوله تعالى: ﴿أفلا تعْقلُون﴾ أتغفلون عن ذلك كله ولا تتدبرونه فلا تعقلون، فذلك دليل أن المعلم القرآني يعلن للإنسان في كل زمان ومكان: أن انعدام

الفطرة الواعية المتدبرة، التي تحمل صاحبها على تلمّس الحقيقة بتجرد، واستنتاج الحكم بعد استقراء كامل صحيح: إيذان بإهمال العقل وتعطيله عن أن يعمل عمله، فيصل من طريق الأثر إلى المؤثر، ويدرك بسلامة التفكير أن الذي قدر على الإيجاد من العدم، قادر على أن يعيد الخلق ويبعث من في القبور.

وتبكيت الجاهليين بسلوكهم هذا المسلك الذي يدل على تعطيل العقل، وعدم استقامة التفكير، كان دعوة صريحة إلى أن طريق الإسلام إيمان وإعمال للعقل، واستقامة في الفكر درساً وبحثاً ونظراً يقوم على الملاحظة واستنطاق الحقائق، واستنباط النتائج من المقدمات.

إنه بناء الفكر الذي يحدد مساره ـ في ضوء عقيدة التوحيد ـ: والسلوك بإنسان الرسالة رسالة الإسلام مسلكاً ينمي قدرته على التفكير والتدبير كيما يكون دائماً دعامة المجتمع الإسلامي، مجتمع العقيدة السمحة الصافية والفكرة المبصرة.



ملامح البناء.. والتقليد

«٢»

في حديث موصول بما رأينا من إشراقة المعلم القرآني بالدعوة إلى التفكر والتدبر في واحدة من السور المكية وهي سورة «المؤمنون» حيث كانت الآيات قوارع على رؤوس المشركين تنعي عليهم إهمال العقل، وتناقض التفكير، والقعود عن البحث والنظر: يبدو لزاماً أن نعلم أن هؤلاء الجاهلين الذين نزلت فيهم تلك الآيات القوارع، بما عطلوا واحدة من نعم الله الكبرى عليهم وهي نعمة العقل، واستعداد الإنسان للنظر والتأمل في نفسه وفيما حوله.. هؤلاء الجاهليون من أهل الشرك، كانت كل طامة تسلمهم إلى طامة أسوأ منها، فحينما أهملوا عمل العقل، وأغمضوا عيونهم عن آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، فلم ينظروا ولم يتفكروا، وقعوا في إسار التقليد الأعمى، فقالوا على غير بصيرة مثل ما قال الأولون، وجحدوا ما لا قبل لعاقل بإنكاره.

ذلك ما نجده في سورة «المؤمنون» ونحن نتابع مدلول المعلم القرآني في إحكام البنية الفكرية عند المسلم، كيما تتسم عملية البناء عنده بالانتظام وتتكامل بين جوانب الحياة بأسرها.

فبعد الذي رأينا فيما سبق من القول من التذكير بقدرة الله ونعمه وأن الذي قدر على النشأة الأولى قادر على النشأة الآخرة يوم المعاد، جاء قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون:٨١-٨٣] .

وإذا كان القرآن يدعو الأمة دائماً إلى أداء رسالتها في عملية البناء الكبرى للفرد والمجتمع، وقوام ذلك بناء الإنسان على قاعدة متينة من سلامة التفكير وذاتيته، فإنا نرى في هذه الآيات وأمثالها حرباً على الاستهانة بحقيقة ما يجب أن يكون عليه الإنسان من ذاتية التفكير واستبدال التقليد العشوائي والإعراض عن الأدلة ووسائل الاقتناع: بالبحث والنظر وربط النتائج بالمقدمات.

وهو في وجهه الآخر لبنة وضاءة من لبنات البنية الفكرية التي جاءت معالم الكتاب العزيز لتصوغ الجماعة المسلمة عليها.

وإلى أن نلتقي على متابعة هذه الرحلة إن شاء الله أود أن أذكر بأن التقليد الأعمى، كما كان آفة في الجاهلية الأولى، هو آفة كبرى في حياة نفر من المسلمين اليوم، نسأل الله أن يقي الأمة شر الآفات والموبقات وهو ـ جل شأنه ـ ولي التوفيق.



التقليد.. ولمحات من البناء الفكري
«٣»

البناء الفكري الذي جاء القرآن الكريم ليصوغ الإنسان المسلم عليه، رأينا من ملامحه في سورة «المؤمنون» استنكاراً لما وقع فيه مشركو قريش من التقليد الأعمى لمن سبقهم في قولهم ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون:٨٢-٨٣].

فمن مرئياتنا لهذا الاستنكار: أن معالم القرآن الكريم تريد من الإنسان أن يُعمل عقله وينظر في نفسه وفيما حوله من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى وحكمته ليرى بعد التدبر والتفكر، أن من الحكمة العظيمة أن يكون يوم آخر يقوم الناس فيه لرب العالمين، وأن الذي قدر على الإيجاد من العدم قادر على الإحياء بعد الموت، بل هو أهون عليه كما جاء في بعض الآيات تقريباً لعقول البشر، وإلا فليس هنالك هين وأهون بالنسبة لقدرة الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

وهذه لمسات الإعجاز في القرآن الكريم، تثير كوامن القدرة العقلية، وتعمل على أن تزيل عن الأعين الغشاوة لكيلا يبدأ العمل الفكري وينتهي، بالإصرار على التقليد الأعمى والمتابعة العشواء لأولئك الذين عاشوا وماتوا وعقولهم معطلة عن العمل، تحكمهم شهواتهم ورغبتهم في السلطان.

تعالوا أيها الإخوة نتابع قراءة الآيات في سورة «المؤمنون» لنرى كيف يقيم المعلم القرآني الحجة على الكافرين ويدينهم من دعاواهم، يقول الله تعالى بعد أن أنكر عليهم التقليد واستمرارية الإقامة في هوة الكسل العقلي: يقول خطاباً لمحمد عليه الصلاة والسلام:

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[المؤمنون:٨٤-٨٩] .

ومن بعد هذا يُعلن فيهم الحكم الذي كان كفاء ظلمهم للحقيقة ولأنفسهم ذلكم قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[المؤمنون:٩٠] .

ولنا عودة إلى هذه المسألة لنبين من خلالها معلماً من المعالم التي اقيم عليها البناء الفكري وكيف نما واشتد ساعده على العصور، ونتساءل عن واقعنا في هذا المضمار وسبحان من علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم.



البناء بين صورتين

مـا طلعت علينا به الآيات في سـورة «المؤمنون» بدءاً من قـوله تعـالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[المؤمنون: ٧٨] . يحكي صـورة من صـور الانتكاس العـقلي والفكري، حين يعـرض الإنسـان عن الحق ويلوي عنقـه عن الحـجـة والدليل، ويولي ظهـره للآيات النـاطقـة بقـدرة اللّه تبـارك وتعـالى وإحـاطة علمـه بما كـان ومـا يكون، وأنَّ هذا الإنسـان لو وضع كل شيء موضعـه لوجد أن الإيمان باليـوم الآخـر هو الذي يتسق مـع الفطرة حـيث الإيمان باللّه تعـالى الذي تملأ آياته الآفـاق، ولوجد هذا الإنسـان من نفسه حيث أوجده اللّه من العدم وخلقه، فـأحسن خلقـه دليـلاً على قدرته تعالى أن يعيد هذه المخلوقات البشـرية كما بدأها أول مـرة. فكمـا بدأ الخـلائق بالإيجـاد ولم يكونوا شيئـاً مـذكوراً: يعيـدهم أحيـاء يوم القيامة: ذلك ما نجده في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف:٢٩].

وبمزيد من البيان يضع العقلَ حيث يجب أن يكون، بحثاً وتدبراً وإحكام ربط بين الحـوادث، ومـا يمكن أن تدل عليـه: تطالعنا سـورة «ق» بقـوله جلت قـدرته: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق:١٥].

وفي إطار المنهج القـرآن في القـضـاء على الكسـل العـقلي، وتحـريك الإنسـان من أعمـاقـه، وتفـتيح بصيـرته على نور الهداية ليكون بناء المسلم فـي ذاتيتـه وفكره: بناءً لاتعوزه سـلامـة القـواعد والقـدرة على الاسـتمرار: نقـرأ في سـورة الأحقـاف الوعيـد الشـديد لهؤلاء الذين ضل سـعيهم، فـعمـوا وصـمـوا عن آيات اللّه ومظاهـر قـدرته في الكون، وانزلقـوا إلى الجحـود وعـدم الاسـتجابة لداعـي اللّه، ذلكم قـوله تعـالـى:

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٢-٣٣].

والحق أن الآيات التي حفل بها المعلم القرآني في سورة «المؤمنون» مما قرأنا من قريب: تنمي في حس المؤمن، مرحلة بعد مرحلة، ذاتية التفكير واستقامته، وعدم إغماض العين عن أي دليل يمكن أن يفيد منه.

فبعد أن كشفت الآيات عما وقع به المشركون من التقليد الأعمى: شرعت في إقامة الحجة عليهم من دعاواهم فقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[المؤمنون:٨٤-٨٥] .

إذا كانت الأرض ومن فيها لله، أتغفلون عن ذلك فلا تذكَّرون ليحملكم التذكر على الإيمان بأن الله قادر على إحيائكم بعد الموت ومحاسبتكم على صنيعكم؟!

إن من إعجاز القرآن ما نرى من حيوية هذا الحوار الذي كان من أغراضه ـ والله أعلم ـ بناء شخصية المسلم في فكره ومعايشته ما حوله لبنة لبنة، وقد نقدر ذلك أكثر وأكثر: إذا كنا على ذكر من ساحة الصراع الفكري في هذا العصر، حتى إن الأعداء يلجؤون إلى القوة والبطش: لأنهم عاجزون عن مقارعة الحجة بالحجة أمام الإسلام.



البناء الفكري.. والحجة المبصرة

«٥»

إن إحكام البناء الذي تناول المسلمَ من جميع جوانب شخصيته في العهد المكي، قد ظهرت آثاره العاجلة في الصبر على مقارعة الحوادث، واحتمال الأذى، والخروج من الفتنة كما الذهبُ النضار. كما ظهرت آثاره في العهد المدني حين استطاع المسلم الذي أحكمت معالم القرآن بناءه، وسهر على صياغته محمد بن عبدالله ﷺ.. حين استطاع أن يكون اليد الثانية لمجتمع المدنية في كل جانب من الجوانب، وأن يتحرك على كل الميادين والأصعدة.

من أجل هذا: كان مطلوباً من الأمة ـ على ما يفجؤها من الصوارف والعقبات ـ: أن تضع في حسبانها ـ بحسٍّ منهجي ـ هذه العلاقة بين العهدين المكي والمدني في صدر الإسلام، وكيف أن جسور البناء والنماء متصلة محكمة بينهما.

إذ إن بناء الإنسان على الإيمان، وإتاحة الفرصة للعقل أن يعمل عمله في تفهم الوحي وإحكام الخطط، وللبصيرة أن تتفتح لتعطي عطاءها هنا وهناك..

كل هذا كان مقدمات طبيعية في العهد المكي لنتائج طبيعية في العهد المدني، لم يكن أقلها استضاءة الفكر، وبذل الأموال والأنفس في سبيل إعلاء كلمة الله، وتقديم المجتمع الأنموذج مجتمعاً متكاملاً في فكره واقتصاده وأوضاعه الاجتماعية، وقدرته على مواجهة التحديات في حالات السلم والحرب على حد سواء.

أقول هذا بين يدي الآية السادسة والثمانين من سورة «المؤمنون» والتي نتابع من خلالها عطاء المعلم القرآني في تلك السورة المباركة، والآية هي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧].

أرايت؟! إنها خطوة أخرى مضمومة إلى سابقتها: فما دمتم أيها الكفرة تزعمون الإيمان بالله وأنه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، فَلِمَ لا تستجيبون لدعوة الحق وتضعون بينكم وبين عذاب الله وقاية من الإيمان والعمل الصالح. أفلا تفعلون ذلك فتتقون؟!

لقد أراد المعلم القرآني أن يرتفع بهم من ظلام التناقض إلى نور الحجة المبصرة.

إن الجانحين من شبابنا اليوم في أرجاء العالم الإسلامي: بحاجة ـ وهم يؤكدون انتماءهم إلى الإسلام ـ إلى أن نبنيَهم بالوسائل التربوية الصالحة، ومسالك البناء القويم، بحيث يفيدون من هذه اللمحات في المنهج القرآني حين تقيم الحجة على الكافر.

وفي الوجه الآخر للقضية: تبني شخصية المسلم على أن ينطلق في الحياة من فكر سليم بعيد عن العشوائية والتقليد الأعمى والتناقض المزري. فكر يفتح صاحبه ذراعيه للحياة وعمارة الأرض في توجه حضاري سليم: على هدي ما شرع الخالق الحكيم وسنة رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما توحي به سنن الله الحكيمة التي لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً.



البناء الفكري... وصلة الأمة بمعالم القرآن

سورة المؤمنون

«١»

الحكمة التي لا ينفد عطاؤها وراء ما يجب أن تكون عليه صلة المسلم بالقرآن: أن هذا المسلم لا يقرأ القرآن وما فيه من هدم الباطل، وبناء لصروح الحق، ما فيه من قضاء على عوامل الضعف والتمزق، واستبدالها ببناء محكم لشخصية الإنسان بالإيمان وتنمية المواهب والإمكانات من أجل العمل الصالح في كل ميدان...

أجل: إن هذا المسلم لا يقرأ القرآن للاطلاع والإفادة العلمية والفكرية وكفى، ولكن مطلوب منه أن يديم صلته بهذا الكتاب العظيم تلاوة وتدبراً، علماً وتعليماً وفهماً، مطلوب منه أن يكون القرآن الكريم في معالمه الخيِّرة وهداية نوره جليسه وانيسه، ومحور العطاء في حياته، لتكون عملية البناء مباركة مستمرة تنمو من خلالها قدرة المسلم على أداء رسالته في أنحاء المجتمع كافة.

وهكذا حين نكون مع صورة من صور الهداية في واحد من المعالم القرآنية: لانكون مع قضية فكرية ـ مثلاً ـ درسنا ابعادها وانتهى الأمر، ولكن الصلة لا بد أن تأخذ طابع الاستمرار والعمق يوماً بعد يوم، وذلك مقتضى الإيمان.

فالتالي لكتاب الله له بكل حرف عشر حسنات كما تبين في الحديث الذي رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وعدمُ التدبر نذير سوء في حياة المسلم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾[محمد :٢٤].

في ضوء هذه الحقيقة نتابع عطاء المعلم القرآني في سورة «المؤمنون» حيث نقع على واحدة أخرى من الحجج التي أقيمت على الكافرين. وكانت مزيد قوة في عقيدة المسلمين واستقامة تفكيرهم، بعيداً عن أوضار الجاهلية. وما هي مثقلة به من التقليد الأعمى والتناقض الفاضح، بين الدعاوى والتطبيق.

ذلكم ما نجده في الآية الثامنة والثمانين من السورة المباركة حيث يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٨-٨٩].

يؤمر محمد ﷺ أن يقول لهم ذلك، فإذا كانوا يدعون العلم، ويعتقدون أن الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يحمي الخلق ولا حاجة له بحماية أحد، فأنى يخدعون ويصرفون عن الحق وهو عبادة الله وحده، وبعبارة أخرى: كيف يزعمون العلم ويرضون لأنفسهم أن يتخيلوا الباطل فيما يدعوهم إليه محمد عليه الصلاة والسلام مع دعوى الاعتقاد الأنفة الذكر وقيام الدليل على ما يدعوهم إليه؟!

إلا أن الإخلاص في دعوى الحرص على بناء الفرد والمجتمع بناءً لا يعوزه الإحكام وسعة الأفق والقدرة على مواجهة العصر بما فيه: تقضينا أن نضمن سلامة المنطلق، وسلامة المنطلق هنا في معالم كتاب الله العزيز التي لا تحول دوننا ودون أن نأخذ ونعطي بوعي وإدراك.



البناء الفكري والحق وسورة المؤمنون

«٢»

بعد الذي رأينا من إقامة الحجج الواضحة النيرة على ضلال الكافرين، في بعض من الآيات في سورة المؤمنون، والتي دلّنا المعلم القرآني من خلالها على ما تعطيه ـ في الوقت نفسه ـ للفرد والجماعة على ساحة البناء الفكري: وإعداد المسلم على الشكل الذي يضع كل إمكاناته وطاقاته موضعها من الحركة والعمل، وينمي في كيانه ومشاعره القدر اللازم من الذاتية، والحرص على الأصالة وإقامة الدليل على صدق الانتماء إلى أمة تحمل رسالة البناء لا على الصعيد الإقليمي فحسب، ولكن على الصعيد العالمي وبحسٍّ إنساني رفيع.

أقول بعد الذي رأينا من ذلك نجد في مرحلة أخيرة من الحوار أن الآيات الكريمة تختم بأمرين اثنين:

اولهما: أن الله تعالى قد جاءهم بالحق وذكرهم تذكيراً لا يقبل المزيد حين وضع أيديهم على كل ما يحمل القناعة لمن أراد مقنعاً.

الثاني: أن الله تعالى حكم عليهم بعد توليهم عن الحق مع ما أقامه عليهم من الحجج والبراهين: بأنهم كاذبون.

ذلكم قوله تعالى في الآية التسعين من السورة سورة المؤمنون ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٩٠﴾ [المؤمنون:٩٠].

أرأيت إلى قوله: ﴿بل﴾، هذه للإضراب عن كل دعوى يدعونها: فكله باطل، وتعللات فاسدة، إنهم في الواقع لا يريدون الحقيقة بل يصرون على ركوب متن الضلالة.

ثم جاء الحكم عليهم بالكذب بصيغة التأكيد بأن واللام (وإنهم لكاذبون).

إنها لقضية بالغة الخطورة على طريق البناء، وتنمية الاعتزاز بالحق، وثقة المسلم بمنهج الإسلام.

إن إعراض الكافرين لم يكن لأن دعوة الإيمان أعوزها الدليل وضعفت عن إقامة الحجة، ولكن هذا الإعراض كان تعنتاً واستكباراً وطاعة للشيطان.

إنه الدرس الذي لا يصح أن ينسى، كل ما نلقاه اليوم من عنت أعداء الإسلام واتهامهم لمنهجه ونظامه: ليس لأن الإسلام لا دليل عنده على أنه الحق، بل لأن هذا الإسلام هو عدوهم وقد تكون حسناته مدعاة مزيد من الحقد عليه.

وما لجوؤهم إلى البطش بالمسلمين في كل مكان، ومحاولة سحقهم في الأرض والفكر والأنفس والأموال إلا صورة لهذا الذي نقول، والمهم أن نعي لنعمل ونخلص في العمل، ونبني فنحسن البناء، يحكم لا معقِّب لحكمه وهو وليُّ المحسنين.



الإعجاز... والبناء

من نفحات الإعجاز الطيبة في كتاب الله الكريم، أنك تقرأ كلامه المنزل على محمدﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، فتحسُّ وأنت تعيش واقع الأمة اليوم، كأن هذا الكلام تنزيل على هذا الواقع، الأمر الذي يؤكد أن الهداية التي هي الغرض الأول للقرآن الكريم، تظل تعطي عطاءها، ما تقلَّب الليل والنهار، وحتى يقوم الناس لرب العالمين.

فبعد الآيات التي أشرق بها المعلم القرآني في فواتح سورة الجاثية، بدءاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[الجاثية:٣] الآيات: نجد التوجيه إلى أن على المسلمين أن يثبتوا فلا يتزعزعوا، فهم على المحجة البيضاء من هدى الله تعالى. ولا يضيرهم في شيء أن يصر الكافر على عناده، ويعبث بعقله الشيطان فيتخذ آيات الله هزواً: فلهم طريقهم التي كلها سعادة ونماء لخيري الدنيا والآخرة، وللكافرين طريقهم التي تودي بهم ـ بعد أن قامت الحجة عليهم فأصروا واستكبروا وسخروا ـ إلى جهنم وساءت مصيراً.

ذلكم قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[الجاثية:١١].

والحق أن الذي يبدو ضرورة من ضرورات البناء في التصور والسلوك، أن تنمو في نفس الفرد مشاعر الوثوق بأن ما وجه إليه الإسلام هو الحق، وأن مقالة السوء على ألسنة المعاندين والمدبرين، ينبغي أن تزيد المؤمن يقيناً برسالته على صعيد المجتمع والأمة بل والإنسانية جمعاء، وهؤلاء الذين ينطلقون من مستنقعات الحقد والضغينة على الإسلام ويرون فيه بناءً يصعب اقتحامه، وسداً منيعاً دون تسلطهم وأهوائهم وتحكمهم في مصائر الشعوب.. هؤلاء لا يقفون هذه المواقف لأنهم متبعون

لأهوائهم معطلون لعقولهم في بعدهم عن الإنصاف واتباع الدليل، وليس لأن الإسلام ـ في حقيقته ـ يجفو البناء الحضاري، ويقيم الخصومة مع الإنسان، بل إنه على العكس من ذلك تماماً، والأدلة على ذلك من النصوص والواقع التاريخي، ونكسات المبادىء الأخرى تملأ على العاقل دروبه ووجوده لو كان هنالك تجرد وإنصاف، ولكن الحقد الدفين وترجيح ما يمكن أن يكون من النصر السياسي وغيره.

وإذن فالإيجابية تقتضي عدم التلفت والجنوح إلى ما فيه القلق والضياع، وتوجب المثابرة ـ طاعةً لله ـ على العمل البنَّاء الدائب الأمر الذي ينمي القدرة على المواجهة يوماً بعد يوم.

واقتناع الآخرين إذا جاء فيا مرحباً، ولكننا لا نعلّق عليه الآمال الكبار، لأنهم ـ في الواقع ـ لايريدون أن يقتنعوا، ولو أرادوا مقنعاً لتخلُّوا عن أهوائهم، ووقفوا عند الليل القوي قوة الحق الذي يدل عليه، وهي سلسلة كل حلقاتها عناد ومكابرة دل على أولها ما كشف الله عن موقف المشركين من الحق الواضح النير حيث قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر:١٤-١٥].

وإنها لبادرة سوء تذكُر بحرمان من يستحبون العمى على الهدى التي نقع عليها في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢].



الإيجابية.. والبناء

«١»

لعل من المسلّمات عند العاملين البُناة، والروّاد المخلصين الصادقين.. أن الإيجابية في العمل البنّاء تقتضي الانصراف إلى الجدّ في تناول قضايا الرسالة، وعدم التلفّت والركون إلى ما يثمر القلق والضياع وذلك على أساس من يقين المسلم برسالته ـ كما أشرنا غير مرة ـ وطمأنينته بما أكرمه الله به من وضعه على ساحة البناء الذي تتوافر له ـ أن لو صدقت النية وخلص العزم ـ كل مقومات السلامة والاستمرار.

ولقد كان ذلك بعضاً من عطاء المعلم القرآني في فواتح سورة الجاثية التي أوردنا آياتها من قبل. وفي متابعة للسورة المباركة نقرأ قول الله تعالى في الآيتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة: ﴿ثُمَّ جعلْناكَ علىٰ شريعةٍ مِّنَ الأمْرِ فاتَّبِعْها ولا تتَّبِعْ أهْواءَ الَّذين لايعلَمُون ﴿١٨﴾ إنَّهُمْ لن يُغْنُوا عنكَ من اللهِ شيْئًا وإنَّ الظَّالِمِين بعْضُهُمْ أوْلياءُ بعْضٍ واللهُ وليُّ المُتَّقِين ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية:١٨-١٩].

إن أمتنا وهي تعمل ـ من خلال ضميرها الحي: أبنائها الرواد الأقوياء الأمناء ـ على أن يأخذ البناء طريقه إلى كل ميدان، ويثبت وجوده بوعي وموضوعية في كل مرفق من مرافق الحياة.. إن أمتنا وهي تعمل على تحقيق ذلك ـ بعون الله ـ بعد غفوة أعقبت ما أعقبت من المتاعب والتمزق والتفرق واتباع سنن الآخرين: جدير بها أن تستضيء بأبعاد هذا المعلم القرآني في الآيتين الكريمتين وأمثالهما في كتاب الله عز وجل، وما يكون من بيان ذلك في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ هذا الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، ولأمته من ورائه: يحمل وجوب اتباع هذه الشريعة من الأمر: في العقيدة، والشريعة، ونظام الحياة والسلوك، فلا مهاودة ولا اختيار. وطبيعة الصراع بين الحق والباطل تثمر تحرك أهل الباطل الصادين عن الحق لحماية باطلهم، فترى أهل الأهواء يحاورون ويداورون، ولكن مهما ادعوا من المعرفة والعلم، فهم في نظر القرآن لا يعلمون. إذ إن العلم الحقيقي أن يتبعوا ما قام عليه الدليل ونطقت بأحقيته الحجة النيرة والبرهان الساطع، أجل إنهم ليسوا جديرين بأن يُنسبوا إلى العلم فضلاً عن أن يُتبعوا فيما يزعمون لأن ما عندهم لا يعدو أن يكون صنيع الهوى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هكذا جاء الأمرُ باتباع الشريعة التي جعل الله عليها محمداً عليه الصلاة والسلام، والنهيُ عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، بدئت الآية بالأمر وختمت بالنهي وفي ذلك ما فيه من تأكيد ما قلناه في هذه الحقيقة الجوهرية على طريق العمل الجاد والبناء المؤمن الواعي.

وما من ريب في أن توظيف الحقيقة المومى إليها على طريق البناء ومسالك المواجهة، وتنمية الشعور بفاعليتها: مطلب قرآني يحمل ما يحمل من خصائص القوة والدفع بالأمة إلى الحياة الأفضل.

وهنيئاً ثم هنيئاً لمن يخلصون لله دينهم، ولا يتخلفون عن الطريق الصاعدة في نصرة الحق الذي به يؤمنون.



العقل المسلم... في المقايسة والبناء

«٢»

في تساوق مع طبيعة رسالة الإسلام التي تحمل الخير إلى الناس في دينهم ودنياهم، وفي معاشهم ومعادهم، والتي تشيع في جنبات المجتمع وأهله روح الحياة الكريمة المزدهرة، سواء في ذلك منهج التفكير والمنطلقات التي توجه حركة الحياة، والروابط الاجتماعية والاقتصادية والدولية وكل ما هو من نظام العلاقات بسبب، حيث يمتد ذلك ويتسع حتى يشمل حالات السلم والحرب جميعاً.

أقول: في تساوق مع طبيعة هذه الرسالة الخاتمة، نجد معالم القرآن الكريم، لاتني تنمي قدرة العقل على الاعتبار والمقايسة، كيما يكون المسلم ـ وهو يخوض معركة الحياة أداء لرسالته في البناء الحضاري القويم الذي تحكم قواعده مع العلم النافع عبودية خالصة لله تبارك وتعالى ـ بحيث تجده ببصيرته المتفتحة وعقله المستنير يقارن ويقيس هنا، ويفيد من التجارب هناك، يعتبر بالماضي دونما غفلة عن الحاضر، وما يجب من الإعداد للمستقبل، وإدراك الناظم الذي ينتظمها جميعاً مع الفوارق التي لا بد منها. يرى الصواب صواباً فيثبت على طريقه، ويرى الخطأ ـ بشجاعة المؤمن ـ خطأ فيجتنب كل بواعثه وأسبابه التي أدت وتؤدي إليه: فليس الخطأ كالصواب، وليس الضلال كالهدى..

وعلى هذا السنن: ليس الذين يجترحون السيئات كأولئك الذين يسلكون سبيل الهدى والاستقامة، وليس الأعمى الغارق في الضلالة والصد عن سبيل الله كالبصير الذي آمن وعمل الصالحات.. إنهم لا يستوون في ميزان الحقيقة عند الله، ولا عند العقلاء المنصفين من الناس. وساحة المعلم القرآني في تقرير وتوكيد هذه الحقيقة، رحبة العطاء في الكتاب العزيز. من ذلك ما نقرأ في الآيتين العشرين والحادية

والعشرين من سورة الجاثية من قول الله جل ذكره: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أجل ليسوا سواء وساء مايحكم به، أولئك المسيئون ـ الضالعون في العماية على طريق الجحيم ـ أنفسهم من التسوية بينهم وبين من استنارت بصائرهم فسلكوا سبيل الفوز في الدنيا ويوم الدين. ثم إن أولئك الذين اجترحوا السيئات مرفوض حكمهم، فهم يريدون أن يجعلوا الحق ما هم عليه من الضلال تسويغاً لفعلهم وهم لا يرجون لله وقاراً.

هذه المقولة التي يفيض بها المعلم القرآني مقولة ثقيلة في ميزان الحق، ولبنة عظيمة من لبنات البناء القويم في شخصية المسلم. لقد أنزل الله كتابه على رسوله محمد ﷺ بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون والناس في مواجهة رسالة الخير منهم من يعرض عن الحق، ويجترح السيئات فيظلم نفسه، ويسيء إلى مجتمعه الذي يعيش فيه وأمته التي ينتمي إليها، فيهلك يوم القيامة مع الهالكين. ومنهم من يصدق ويوقن ويجمع إلى الإيمان العملَ الصالح الذي يعود عليه وعلى مجتمعه وأمته بالخير والفلاح.

وفي إيقاظ العقل كيما يقوم بوظيفته في الاعتبار والمقايسة بربط المسبّبات بالأسباب، ورصد نتائج الأعمال وارتباطها بالمقدمات، والإفادة من التجارب وما تعطيه الوقائع من دروس: يهدينا المعلم القرآني إلى أن هؤلاء وأولئك لا يستوون: فكيف يكون المجترحون للسيئات ـ على عموم لفظ السيئات واتساع ساحته حسب موقع الفرد المجترح لها أو الجماعة - كأولئك الذين يؤمنون ويعملون الصالحات ـ على عموم العمل الصالح واتساع ساحته كما حدّدته شرعة الإسلام ـ وفي روح النص ما يهدي إلى استنكار أن يكون المتهم هو القاضي، وأن يكون المسيء الفارق في عماية الضلال، هو الحكم فيما هو باطل وما هو حق، وأن على المسلم أن يتنبه إلى هذا ولا يغفل عنه، فكم أصيبت الأمة وما تزال تصاب ـ على أرض الواقع ـ نتيجة الغفلة عن هذه القضية وأمثالها ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ

آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١]. ويا ويح أمة تفقد الذاكرة، أو تصاب بما يطرأ عليها ـ نتيجة الظلم والغفلة ـ من ثقوب!! ولم نحسن صنعاً إذا ذكرنا ما أعطت الشريعة من الأهمية للاجتهاد فيما لا نص فيه من الأحكام: لأن النصوص تتناهى والوقائع لا تتناهى، وكيف كان القياس ـ وهو أوضح لون من ألوان الاجتهاد ـ: مصدراً أصلياً من مصادر التشريع في الإسلام:

ويا حبذا ثم يا حبذا وضع هذه اللبنة الصلبة المباركة من لبنات البناء في الاعتبار على صعيد الفرد والجماعة، ولقد يفيد التذكير بما أشرنا إليه آنفاً من أن الله سفّه رأي الذين يجترحون السيئات عندما حسبوا أن يجعلهم الله كالذين آمنوا وعملوا الصالحات في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ساء مايحكمون﴾ ﴿إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧]. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



المسؤولية.. والجزاء
ومثلان لأهل الإيمان وأهل الكفر

لقد أكرم الله هذه الأمة الإسلامية بأن جعلها بما قصَّ عليها القرآن والسنة في حضور للتاريخ الماضي فأغنى طريقها بما حصل من الأمم قبلها من وقائع وماحصل لها من نتائج وآثار. فما كان من خير أفادت منه ولزمته وما كان غير ذلك طرحته من حسابها وباعدت عنه. والقرآن الكريم غني بهذه العظات فيما وقع للمرسلين من أممهم. وفيما كان من صنيع أعداء الحق ورسالات السماء. وفي السنة من أخبار ذلك خير وفير.

وعلى صعيد العقيدة التي تبني الفرد من الداخل: ما يشعر هذا الفرد ـ ذكراً كان او أنثى ـ بأن مسؤوليته هو أمام خالقه مسؤولية فردية. وأن أحداً مهما كان شأنه لا يغني عنه من الله شيئاً. ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾ [الإسراء:١٥] وقد ضرب الله مثلين واضحين لهذه الحقيقة في الآيات الأواخر من سورة التحريم.

وكان المثل للذين كفروا: امرأة ـ نوح وامرأة ـ لوط. ذلكم قوله تعالى:

﴿ ضرب اللهُ مثلاً للذين كفرُوا امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ كانتا تحت عبْدين منْ عبادنا صالحيْن فخانتاهُما فلمْ يُغْنيا عنْهُما من الله شيْئًا وقيل ادْخُلا النّار مع الدّاخلين ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠].

يريد الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن يتعظوا بهذا المثل. فنوح ولوط عليهما السلام. وكل منهما نبي مرسل. لم يغن واحد منهما عن زوجته شيئاً ـ وهي من اقرب الناس إليه ـ وكانت بكفرها وجحودها من أهل النار.

أجل لم يكن في ميزان الله أن يقال: أدخلوا زوجة نوح وزوجة لوط الجنة على كفرهما لأنهما زوجتا نبيين من الأنبياء. لا. وإنما عاقبهما الله على خيانتهما ـ وهي خيانة العقيدة ـ حيث سلكتا سبيل الكفر مع أن زوجيهما من دعاة الهدى والإيمان.

وهكذا نرى التعبير القرآني الذي يحدد المسؤولية الفردية في هذا المجال أوضح تحديد يعلنها صريحة ﴿ فخانتاهما ﴾ أي في الدين، فكفرتا، فلم يغنيا عنهما من عذاب الله شيئاً ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾.

ثم جاء المثل المضروب للمؤمنين: فالمؤمن لا يضيره، ولا يدعوه أن يتحوّل عن طريق الحق أن يكون أقرب الناس إليه كافراً، ما دام هو على الصراط السوي، يصدع بالحق، فيبلغ دعوة الله، ذلكم قوله جل شأنه: ﴿ وضرب اللهُ مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت ربِّ ابن لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (١١) ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (١٢) ﴾ [التحريم: ١١-١٢].

إنه موقف يأتي في مقدمة المواقف الإيمانية: فامرأة فرعون لم يزحزحها العذاب ومحاولات فتنها عن دينها قيد أنملة عن دينها وإيمانها، فكانت في عقيدتها وصلتها بربها ـ وهي المرأة الضعيفة ـ أقوى من كيد فرعون، وشراسة زبانيته.

ومريم لم تحولها عن الاستقامة والعفة كل المغريات والأحابيل، فأحصنت فرجها، فأكرمها الله بعيسى عليه السلام، وصدقت بكلمات ربها وكتبه المنزلة، وكانت من القانتين الذين هم أهل الطاعة والصدق، وحين نتصور يهود ومكرهم ندرك قوة الموقف الإيماني الذي وقفته السيدة مريم، جزاها الله وجزى امرأة فرعون عن أهل الإيمان كل خير.

وتطبيقاً لهذا المعلم القرآني كان رسول الله ﷺ يطلب من أقرب الناس إليه العمل، ومما قال في بعض مواقفه: «يا عباس بن عبد المطلب، لا اغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله، لا اغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا اغني عنك من الله شيئاً» رواه مسلم وأحمد والترمذي وغيرهم.

ولأمر يريده الله كان هذا المثل القرآني لمسؤولية الفرد ـ ذكراً كان أو أنثى ـ في ساحة العقيدة، هؤلاء النسوة، سواء أكان للكافرين أم للمؤمنين. وهذا ما يحملنا على تذكير المسلمات بعظيم مسؤولية المرأة في الإسلام، لأن بناء المجتمع الصالح على العقيدة والعلم والعمل: لا بد أن تأخذ فيه المرأة المسلمة الصادقة القانتة دورها، تأسياً بمن ضرب بهما المثل في القرآن وبغيرهما من أهل الإيمان والتقوى عبر تاريخنا المشرق بالصادقين والصادقات.



التوحيد.. وإعمال العقل والبناء

«١»

في واحد من المعالم القرآنية على طريق البناء الفكري السليم، نجد القرآن يبدأ مع الناس الذين يُدعون إلى الإسلام من أول الطريق: فهو يريد لهم أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لرسالة السماء، وأن يتقبلوا الوحي بقبول حسن، فينفضوا عن كواهلهم غبار الجاهلية، ويتخففوا من أوضارها، ويتوجهوا شطر الإسلام دين الفطرة بمفهوماته الربانية التي أنزلها العليم بما يصلح عباده في دينهم ودنياهم وآخرتهم، مصحوباً ذلك بإنكار الكثير من عادات وأعراف الجاهلية!!

وإذا كان الأمر كذلك ـ والحال هي الحال قبل الإسلام: تعطيلاً للعقل في كثير من وجوه التصرف، واستمساكاً بالخرافة، وتهويمات الفارغين المتعطلين، وعبادة أوثان لا تضر ولا تنفع، وخضوعاً لسلطان الكهانة والعرافة والعادات الجاهلية المستحكمة ـ.

أقول: إذا كان الأمر كذلك ـ وهو سبحانه يريد لعباده من الخير والهداية ما يريد ـ كان لا بد أولاً وقبل كل شيء ـ وهذا من عظيم الحكمة في المنهج القرآني ـ من أن يشعروا بوجودهم الإنساني، وأن لهم عقولاً من الضرورة بمكان أن يزاح عنها ركام التقليد الأعمى وما هو منه بسبيل، كي تعمل عملها فتستبدل بهذا التقليد المتوارث دون نظر أو تدبر، إعمالاً للفكر، وبحثاً عن الحقيقة، وتدبراً لآيات الله في النفس الإنسانية وما يحيط بها، وتأملاً في هذا الوجود والآفاق من حول الإنسان، وتفكراً سليماً في الكون والكائنات.

ألم تر إلى قوله تعالى نعياً على المنهج الجاهلي في تقديم التقليد المتوارث على إعمال العقل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

هكذا يحكي الله صنيع المشركين في مواجهة دعوة الحق: فإذا قيل لهم: اتبعوا ما انزل الله على رسوله من الكلام المعجز، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وما الذي وجدوا عليه آباءهم؟ عبادة الأصنام والخضوع للأوهام. قال تعالى منكراً مقولتهم راداً عليهم: أيتبعون الذين يقتدون بهم من الآباء ويقتفون أثرهم ولو كانوا لا فهم له ولا هداية: فلا عقل يدل على الخير ويردع عن الشر، ولا بصيرة تدعو إلى الرشد وتنير السبيل!!

ومن بلاغة هذا القرآن ما نجد من أن الاستفهام في الآية هو للإنكار والتعجب من حالهم ـ وهم على دعاواهم العريضة ـ يقيمون على تقليدهم للآباء دون تمحيص او اختيار. ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ...﴾

ثم إن هذا الذي أشرق به المعلم القرآني من استنكار التقليد الأعمى للآباء، والدعوة إلى إعمال العقل جاء ذكره في غير موطن من الكتاب العزيز كما في قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

وإذا رُفعت الأغلال عن العقل أمكنه أن يعمل عمله فيما هو منوط به من النظر والتفكر في آلاء الله، والاستدلال بآياته في الكون والإنسان على وجوده جل شأنه واتصافه بصفات الكمال جميعها. يقول سبحانه وتعالى في سورة «الذاريات»: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]. ويقول في سورة «فصلت»: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

على أن المنهج القرآني ـ كما تدل معالمه ـ وهو يضع الأمور مواضعها على سلّم الهداية بدقته وعمقه، لا يدع أن يقرر في العديد من المواطن وظيفة الوحي وأنه هو الأصل المتبوع، وأن العقل تابع يجب أن يعمل في الساحة التي يدرك من خلالها معاني وأبعاد ما يتنزل به الوحي ـ وهي مهمة جدٌّ عظيمة ـ الأمر الذي يسعف المكلف بالوعي وترتيب الأولويات في الفهم، وتبين طريقه في العمل بأحكام الشريعة والتخلق بأخلاقها.

لذا فإن هذا لا يتنافى مع ما للعقل ـ وهو من نعم الله الكبار على الإنسان ـ من مكانة جعلت عمله على صعيد التفكر والتدبر في النفس الإنسانية وفي آيات الله في الآفاق: طريقاً نيّرة للاستدلال على وجود الخالق الحكيم سبحانه؛ بل مما يتنافى مع طبائع التكوين وحقائق الأشياء والتناسق العظيم الدقيق في الخلق وتوجيه كل مخلوق إلى حيث ينفع استعداده وأهليته.. أن يكلَّف العقل ما لا قِبَل له به من مزاحمة نصوص الوحي أو التقدم عليها؛ لأن ذلك قلب للموازين، وترتيب الأولويات في طرائق المعرفة التي أولها الوحي بالنسبة للمؤمن وفوضى يحدثها وضع الأشياء على غير ما وضعها الله عليه.

ومع هذا كله نرى القرآن الكريم ـ كما تهدي معالمه ـ قد ائتمن العقل على كثير من القضايا فيما وراء النصوص استنباطاً من السياق، وقياساً، وربطاً للنتائج بالمقدمات، والوقائع بالحقائق التي تنتمي إليها.

من ذلك مثلاً ائتمان العقل على الحكم في شأن الإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه لا شريك له سبحانه. وهذا واحد من الأمثلة قد لا يتسع المقام لأكثر منه ـ وفي القليل دلالة على الكثير إن شاء الله.

يقول الله جل شأنه: ﴿ ومن يدْعُ مع الله إلهاً آخر لا بُرْهان لهُ به فإنَّما حسابُهُ عند ربّه إنّهُ لا يُفْلحُ الْكافرُون ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

ففي هذه الآية وعيد شديد لمن يدعو مع الله إلهاً آخر لا دليل له ولا حجة على وجوده، بالحساب عند ربه يوم يقوم الناس لرب العالمين، وإذا حوسب على ضلالة فالنار مثواه، وتلك عاقبة الكافرين العادلين بالله الأنداد، فهم سالكون سبيلاً ليس من ورائها أثارة من فلاح ﴿إنّهُ لا يُفْلحُ الْكافرُون﴾ وفعل المضارع هنا يفيد الاستمرار.

ولكن فيما عرضه القرآن ما يستوقف الناقد البصير من حيث الأسلوب في تقرير الحقيقة والوعيد على المخالفة.

فالأمر اليقيني المقطوع به: أنه لا برهان أبداً على أن مع الله إلهاً آخر يزعم زاعم وجوده، ومن يأتي بالحجة على هذا المستحيل!!

ومع ذلك فإن الكتاب الكريم ـ في واحد من معالم البناء في العقل والقلب ـ أراد للعقل السليم عند أهل الإنصاف ـ حين يوجد منصفون ـ أن يعمل عمله فائتمنه على هذه المسلَّمة، وأراد له أن يمسك بالقضية من أول نقطة فيها: فإذا رجع الناس إلى عقولهم، وتدبروا فأحسنوا التدبير، فلن يجدوا أي برهان أو سلطان عقلي يحمل العقل على الإيمان بوجود إله مع الله.

وإذا كان الأمر كذلك: فإن العقل السليم المتاح له أن يعمل عمله دون مؤثرات جانبية، جازمٌ بوحدانية الخالق تبارك وتعالى ـ فهو الواحد الفرد الصمد لا شريك له ـ وأن غير ذلك مستحيل، وما وراء ذلك عناد الجاحد، وعدم النزول على الحكم الذي وصل إليه العقل بأن لا إله إلا الله وأن هذا الجاحد مسؤول عن ذلك وحسابه عند الله، وستكون عاقبة أمره خسراً، لما أنه نأى بنفسه ـ جحوداً لحكم العقل وبغياً على الحقيقة ـ عن طريق أهل الفلاح الذين يفوزون بالنجاة يوم الدين.

من هنا قرر علماؤنا يرحمهم الله أن قول الله جلت حكمته: ﴿لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ ليس قيداً احترازياً عن شريك مع الله ببرهان ـ معاذ الله أن يكون ذلك ـ ولكنه قيد لبيان الواقع: فالواقع أنه من المقطوع به أن لا حجة لمن يدعي وجود إله مع الله سبحانه.

وهكذا: فالواجب أن تكون القضية من المسلّمات بديهة: لأن العقل السليم الذي أؤتمن على الحكم غير واجد أي حجة أو برهان على أن مع البارىء المصور جل شأنه إلها آخر.

وودت لو أن في المقام متسعاً لأوسع القول بعض الشيء في هذه المسلَّمة ـ ومثلها كثير ـ ولكن حسبي أن أدعو إخواننا وأبناءنا وبناتنا إلى المزيد من التبصر في هذا الجانب من جوانب المنهج القرآني: فإن لذلك ما له من انعكاسات طيبة تعمل عملها في تصحيح كثير من المفهومات الخاطئة، وإعادة الجانحين إلى الصواب في ساحة هذا الكتاب الكريم ومنهجيته وربانية معالمه وأسلوب هدايته.

التوحيد.. وإعمال العقل والبناء

«٢»

في واحد من المعالم القرآنية حيث دعا الكتاب الكريم إلى إعمال العقل ونبذ التقليد الأعمى نجد الكثير من الآيات التي تربط إدراك مرامي الوحي بالعقل، وتحكم العلاقة بين الآيات الدالة على وجود الله وبين أولي النهى وأولي الألباب، وأنها آيات لقوم يتفكرون، تقرأ في ذلك على سبيل المثال لا الحصر ﴿أفلا تعقلون﴾ [البقرة:٤٤، آل عمران:٦٥، الانعام:٣٢] ﴿أفلمْ يهْد لهمْ كمْ أهلكْنا قبْلهم مّن القُرُون يمْشُون في مساكنهمْ إنّ في ذلك لآيات لأُولي النُّهى ﴿١٢٨﴾﴾ [طه:١٢٨] ﴿إنّ في خلْق السّموات والأرْض واخْتلاف اللّيْل والنّهار والْفُلْك الّتي تجْري في الْبحْر بما ينفعُ النّاس وما أنزل اللّهُ من السّماء من مّاء فأحْيا به الأرْض بعْد موْتها وبثّ فيها من كُلّ دابّة وتصْريف الرّياح والسّحاب الْمُسخّر بيْن السّماء والأرْض لآيات لّقوْم يعْقلُون ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤] ﴿كذلك نُفصّلُ الآيات لقوْم يعْقلُون﴾ [الروم:٢٨] ﴿إنّ في ذلك لآيات لّقوْم يتفكّرُون﴾ [الرعد:٣] والكفرة يوم القيامة يعترفون أنهم لو استخدموا حواسهم كما ينبغي واستعملوا عقولهم كما أراد لها بارئها ما كانوا في أصحاب السعير ذلكم قوله تعالى في سورة الملك: ﴿وقالُوا لوْ كُنّا نسْمعُ أوْ نعْقلُ ما كُنّا في أصْحاب السّعير ﴿١٠﴾ فاعْترفُوا بذنْبهمْ فسُحْقًا لأصْحاب السّعير ﴿١١﴾﴾[الملك:١٠-١١] وكثيراً ما تجد في الحوار مع المشركين والمعرضين تلك الدعوة إلى استعمال عقولهم ليستبين لهم الحق ﴿أفلا تعْقلُون﴾ ﴿أفلا تتفكّرُون﴾ ﴿وتلْك الأمْثالُ نضْربُها للنّاس وما يعْقلُها إلاّ الْعالمُون﴾.

من أجل ذلك رأيت بعض الردود القرآنية على تخرصات المنكرين لليوم الآخر، مثلاً، في غاية البساطة واليسر. والمحور في ذلك: أن المخاطب إذا استعمل عقله وجد أن قدرة الله صالحة، فالذي قدر على خلق الإنسان من العدم قادر على أن يحييه بعد الموت.

وحرصاً على أن يعمل العقل عمله في تكامل للبناء الفكري عند الإنسان، جاء هذا الحوار في مواطن كثيرة من القرآن الكريم.

فقد روى أهل التفسير عن مجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغيرهم أن أبي بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتّه ويذروه في الهواء وهو يقول ـ قاتله الله ـ: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال ﷺ «نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار، ونزلت هذه الآيات من سورة يس ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

وفي رواية أخرى لابن أبي حاتم والطبري أن الذي جاء إلى النبي ﷺ هو العاصي بن وائل حيث أخذ عظماً ففته بيده ثم قال لرسول الله: أيحيي الله هذا بعدما أرى؟ فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم».

وعلى كل تقدير سواء أكانت هذه الآيات نزلت في أمية بن خلف أو في صاحبه الآخر أخزاهما الله فهي عامة في كل منكر للبعث، توحي للعقل أن يتدبر ويتفكر دون تأثر برواسبَ جاهلية وتقليد أعمى.

وعندها سوف يرى هذا الإنسان أن الله الذي قدر على أصل الخلق هو قادر بالأولى والأحرى على إحياء ما خلق بعد الموت.

وهذا واضح في قوله تعالى تذكيراً بالنشأة الأولى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧] واستبعد أن يحيي الله هذه العظام بعد أن أصبحت رميماً تتفتت باليد فكان الجواب ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

خلق عليم﴾[يس: ٧٩]. وهذا مثل قوله تعالى في سورة غافر: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧] وقوله سبحانه في سورة الأحقاف: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

وعلى ساحة المزيد من تنبيه العقل إلى الحقيقة ذكّر الله تعالى بمظهر آخر من مظاهر قدرته بقوله تباركت أسماؤه: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴿٨٠﴾﴾[يس: ٨٠].

وهذا الاستدلال إنما هو مستمدٌّ من الواقع الذي يعاينونه ويعيشونه.

وفي نقلة أخرى أكثر اتساعاً ذكر الله تعالى بأن الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثل هؤلاء البشر، فيعيدهم كما بداهم أول مرة، وسُنّته في الخلق أن يقول: كن فيكون فهو منزه عن الحاجة إلى المساعد والمعين أو إلى التكرار والتأكيد ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴿٨١﴾ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴿٨٢﴾﴾[يس: ٨١-٨٢]

والعقل السليم يدرك بصحيح بنيته أن هذا الذي دل عليه القرآن هو الحق، فإذا لم يكن الإنسان محكوماً بالهوى والتقليد: أسعفه العقل في الوصول إلى التوحيد.



التوحيد.. وإعمال العقل والبناء

«٣»

كانت لنا فيما سبق من القول رحلة قصيرة رأينا معها حرص الإسلام على أن يعمل العقل الإنساني كما شاء الله له أن يعمل، وكان ذلك من خلال الإشارة إلى كثير من الآيات الكريمة التي تشكل واحداً من معالم الفرقان الحكيم.

وعرجنا على مثال واحد تلمسناه من سورة يس في أواخر آياتها، حيث ردّت تلك الآيات الضالين إلى الصواب في أمر الحشر والمعاد، فما دام العرب يزعمون إيمانهم بوجود الله، فالله الذي قدر على النشأة الأولى فخلق الإنسان من العدم، قادر على إعادته ونشره بعد الموت، وذلك ما يحكم به العقل السليم.

والكافر الذي جاء إلى رسول الله ﷺ مستنكراً أن يحيي الله العظام وهي رميم، كانت ترجمة موقفه إهمالاً للعقل وخضوعاً مزرياً بالإنسان للتقليد الأعمى، ولو أعمل عقله وتفكر فنظر إلى قضية بدء الخلق لما كان منه ذلك ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴿٧٨﴾﴾[يس: ٧٨] لقد استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه وأن الله خلقه من العدم إلى الوجود، ولو تجرد عن الهوى والتقليد الأعمى، لعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده.

ولذلك جاء ما يهز الإنسان من أعماقه ويدفع بالعقل دفعاً إلى حيث يجب أن يكون ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿٧٩﴾﴾[يس: ٧٩].

وفي هذا الخطاب لمحمد ﷺ وهو صاحب الرسالة العامة لجميع بني الإنسان عنوان لعملية التحويل الجديد في تاريخ البشرية.

إن المطلوب من الإنسان هنا أن يُعمل عقله فينظر نظرة متأملة فاحصة، وكما أشرنا من قبل: هذا الحوار مع أولئك القوم الذين قال الله فيهم: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[العنكبوت ٦١].

ولسوف يكون من وراء هذه الفطرة المتأملة الفاحصة التي يقوم بها العقل: أن هنالك قدرة أخرجت هذه العظام من الوجود إلى العدم.

إنها لم تكن شيئاً وخلقها الله بقدرته.

وإذن: فالقدرة ـ وهي قدرة الله ـ التي صلحت لإنشائها من العدم أول مرة: صالحة لإحيائها يوم يرد الناس إلى عالم الغيب والشهادة.

والقضية هنا أعمق مما قد يبدو لأول وهلة: فالذي دعا إليه رسول الله ﷺ منهاج حياة كامل يضمن للإنسان سعادة الدنيا والآخرة، وهذا يحتاج ممن يدعوهم، إلى بنية فكرية قادرة على حمل الرسالة وتحمل تبعاتها في الانتصار على النفس وكل رواسب الجاهلية، ثم في تحويل قيمها ومبادئها إلى وجود عملي على صعيد الفرد والجماعة والأمة.

من أجل هذا كانت النداءات المتكررة للعقل أن يعمل، وأن أولئك الجاحدين لو أعملوا عقولهم، واستعلَوا على الهوى وتحكُّم الجاهلية الموروثة لكانوا على الصراط السوي.. دفعاً إلى مرحلة جديدة تبدأ من هذه النقطة، وهكذا يكون التحوُّل.

وهكذا يبدأ التغيير إلى ما هو الأفضل، فإذا اجتمع للفرد عقيدة يشرق بها القلب، وعقل سليم يفكر ويتدبر: فقد ضمنا الخطوة المتقدمة على طريق العطاء والبناء، وإنما قلت: عقيدة يشرق بها القلب لأن الوحي في الإسلام أولاً: فنصوص القرآن الكريم، والسنة المقبولة هي المتبوعة، والعقل هو التابع، ومن وظائفه المهمة أن يقفنا على مضامين الوحي ومدلولات نصوصه، ويجتهد فيما لا نصٍّ فيه على ساحة الأحكام.

وهل يمكن فهم الإسلام في كتاب الله وسنة رسوله إلا بإعمال العقل، ومساكين مساكين!! أولئك الذين زلت بهم القدم، فراحوا يضعون العقل نداً للوحي أو سابقاً له والعياذ بالله. وأين طاقة المحدود من اللامحدود. ولقد يمضي من تاريخ الفكر الإنساني قرون وقرون بعد الذي مضى وانقضى وحتى يقوم الناس لرب العالمين وتظل طاقة الإنسان قاصرة عاجزة أمام قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾[الكهف: ١٠٩] وقوله جلت حكمته في سورة لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[لقمان ٢٧].

هذا: ومن طريف المناسبات: أنه تلا هذه الآية ما ردّنا إلى نقطة البدء الأولى، ذلكم قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾[لقمان ٢٨] فما خلق الناس جميعاً وبعثهم يوم القيامة بالنسبة إلى قدرة الله إلا كخلق نفس واحدة، فالجميع هين عليه.

تلك حقيقة لا تبارح العقل السليم، وهي منطلق عريض لآفاق رحبة مشرقة.

هذا: وقد كان من بيان رسول الله في هذا الباب ما روى أحمد والبخاري ومسلم - على بعض الاختلاف في اللفظ - «أن رجلاً حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً ثم أوقدوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت، فخذوها فدقوها، فاذروها في اليم، ففعلوها، فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله عز وجل له».

وفي خاتمة المطاف: لقد كانت عناية الإسلام بنقطة البدء في تحرير العقل من رواسب الجاهلية والتقليد الأعمى، خطوة على طريق رسالة كلها بناء وعطاء، وبناء الإنسان على إعمال العقل ضمن حدود قدرته وتنمية طاقاته في هذا المجال مما يسّر للأمة الانتفاع بما في تلك الرسالة من بناء وعطاء.

تكامل البناء في المجتمع الأمثل

العهد المدني

«١»

الأثر اليهودي واضح في الظاهرة التي تنزلت آيات القرآن للقضاء عليها في المدينة بقوله تعالى في سورة «المطففين»: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١-٦].

وهو أثر يدلنا عليه ما نعلم من جشع اليهودي وعبادته للمال وحيازته من أي سبيل بأي أسلوب، فالمطففون هنا في السورة هم الذين يستوفون كما يشاؤون إذا كان الكيل لهم، وأما إذا كان لغيرهم تراهم يُخسرون فينقصون الكيل والميزان.

هكذا بلا حياء: استيفاء إذا اكتالوا، وإخسار إذا كالوا أو وزنوا للآخرين، في حين أن الذي نبه عليه القرآن فيما رأينا من آيات في سور الأنعام والإسراء والأعراف وهود والشعراء هو النقص والبخس وعدم الوفاء في الكيل والميزان، وقد بين أن ذلك لون من ألوان الفساد في الأرض نهى عنه زاجراً متوعداً ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠] عثى: أفسد أشد الإفساد.

وإذا لاحظنا الاستمرارية التي تحقق التكامل في معالجة المشكلات والقضاء على تلك الظواهر المَرضية على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.. إذا لاحظنا ذلك ادركنا وجهاً من وجوه الإعجاز في هذا التناسق العجيب بين الآيات المكية والمدنية في الموضوع الواحد، إذ إن كل تلك الصور من التعامل المهزوز الذي يقوم على التظالم أو الخيانة والغش مرفوض رفضاً قاطعاً في الإسلام.

وادركنا بجانب ذلك أن القرآن الكريم الذي صنع ـ بمشيئة الله ـ هذه الأمة، قد رسم لها مناهج التصور والبناء، ودلها على ما فيه تنمية الإمكانات والثروات كيما يوضع ذلك كله في خدمة الرسالة التي أنيطت بها، وحملت أمانة تبليغها والعمل بها.

ولقد شاء الله أن تقاد هذه الأمة من عقيدتها وتوجه من قلوبها وعقولها، كيما يكون في أعماق كل فرد وازع حقيقي يزعه عن السوء مهما كان شأنه، وبذلك تتحقق الحراسة الداخلية للمبادىء والقيم، وتتضافر جميع الأيدي على النهوض بالمجتمع بحوافز نابعة من الذات، حيث المراقبة الدائمة لله عز وجل رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى، يرافق ذلك سلطة تنفيذية تسهر على تطبيق الأحكام في كل الشؤون والممارسات.

في ضوء ذلك يستشعر أبعاد ما بدئت به السورة من قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[المطففين:١].

العذاب لهم، أو واد في جهنم سيكون مصيرهم إليه، هذه البداءة بكلمة «ويل» كفيلة أن ترد الجانح وتوقظ الغافل. وهي تمثل إعلاناً عظيماً على سوء هذه الظاهرة التي تمثل مرضاً في التعامل الاقتصادي، تنعكس آثاره السيئة على المجتمع بأفراده وجماعته. والمؤمن عندما يقرأ في كتاب الله الوعيد في أمر من الأمور يفترض فيه أن يَوجَلَ قلبُه ويقشعر جلده ويقلع عما هو واقع فيه من الجنوح. وما أوفرها نعمة على المكلف أن يكون في عداد من قال الله تعالى فيهم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون:٥٧].



الإحاطة تكامل البناء.. في المجتمع القدوة

العهد المدني

«٢»

أرأيت إلى هذا التذكير باليوم الآخر في سورة المطففين. أو ليس ذلك أمراً بالغ الدلالة ـ كما أشرنا من قبل ـ إلى أن معالم القرآن تعمل على تجفيف المستنقعات الآسنة التي خلفتها موروثات الجاهلية. وإقامة البناء على أسس تكفل النماء، وتضمن الاستقرار والاستمرار.

بدئت السورة بكلمة «ويل» وبعد أن كشفت الآيات عن أن المطففين هم ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ٢-٣] جاء التذكير الذي يحمل كل سمات النذارة ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٥-٦] وهنالك يعرض سجلُّ الأعمال الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويجد هؤلاء المطففون ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً.

لقد كانت مهمة واسعة الأبعاد، عميقة الجذور تلك التي حمل عبئها محمد عليه الصلاة والسلام. واستجاب له فيها أولئك السعداء البررة الذين ما فتئوا يجتثون جذور الجاهلية من نفوسهم وبيوتهم كيما يكونوا بناة المجتمع القدوة الأمثل كما أراد الله.

إن المهمة لم تكن تحويل الناس من عقيدة إلى عقيدة وكفى، ولكنها كانت مهمة صياغة الفرد، والمجتمع من جديد، صياغة تضع في حسابها كل الأشواك المزروعة في عالم الثقافة والاقتصاد والاجتماع، وعلاقة الجزيرة العربية يومذاك بغيرها من دول العالم.

كما تضع في حسابها كل العناصر التي كانت تظاهر الباطل على الحق، وترى في استمرار الباطل ـ بكل ما يحمل من عناصر الهدم للإنسان والمجتمع ـ استمراراً لوجودها حيث تريد أن تكون.

وهذه المهمة العظيمة التي ترمي إلى البناء في كل الميادين وتحول الوجهة إلى استثمار الطاقات المهدرة والإمكانات المتغيرة وتنمية كل ما من شأنه دفع القافلة إلى الأمام، هذه المهمة لم ينْمُ فيها جانب على حساب جانب آخر، بل كانت كل لبنة من لبنات البناء بحسبان.

فلم تكن المعارك التي تخوضها الفئة المؤمنة ـ على صعيد الدعوة والعلم. والجهاد كما أشرنا غير مرة ـ بشاغلة عن أي واحد من الجزئيات التي هي عنصر بناء، أو قضاء على ظاهرة مرضية هي من عوامل الهدم في اقتصاد الأمة أو علاقاتها الاجتماعية.

إن هذه الآيات القصار من هذه السورة المباركة مثقلة العبرة، عميقة الدلالة على صعيد البناء في حومة صراع الأمة مع التحديات.



المجتمع القدوة.. والبناء في المدينة

«٣»

ما قلناه عن تعميق الإحساس بالواجب، وتنمية الشعور بضرورة الإقلاع عن المخالفة عند التذكير باليوم الآخر والمسؤولية أمام رب العالمين..

ما قلناه عن ذلك، وأشرنا إليه بشأن الوازع الإيماني الذي يشكل حراسة داخلية للأحكام والقيم التي تريدها رسالة الإسلام من الإنسان.. كل هذا لا يعني أن السلطة التنفيذية منحسرة عن المجتمع الإسلامي، ولكنهما مؤيدان للحكم وتنفيذه على صعيد البناء، مؤيد من داخل النفس، ومؤيد من السلطة التي تحكم بما أنزل الله، وكلمة عثمان رضي الله عنه «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» مشهورة مذكورة.
وقد حملت إلينا السنة أن الرسول ﷺ مر وهو في السوق ببائع قمح فغرس ﷺ يده في جرة القمح ووقع على الرطوبة في أسفله، وهذا من الغش فقال ﷺ: «من غشنا فليس منا» رواه أحمد وابن حبان والدارمي وغيرهم.

ونظام الحسبة في الإسلام لا يخفى على من له جانب من الصلة بمنهج الإسلام في تنظيم المجتمع.

ويجدر أن نذكر هنا أن المجتمع الإسلامي الوليد قد استجاب استجابة سريعة لما دعت إليه سورة المطففين، فبعد أن كان الناس قبل الإسلام في المدينة من أخبث الناس كيلاً ـ تأثراً باليهود ـ تبدل الأمر كلياً بعد نزول سورة المطففين.

روى النسائي وابن ماجه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما «لما قدم النبي ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً. فأنزل الله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فحسَّنوا الكيل بعد ذلك».

وذلكم هو الطريق إلى إحكام البناء، أن يكون مع السلطة بناء للإنسان من داخل نفسه على العقيدة واليقين بأن وجوده الذاتي رهن بتطبيق الشريعة على أرض الواقع وبوجودها الأصيل في المجتمع تحكمه وتدير شؤونه.

روى ابن أبي حاتم عن هلال بن طلق قال: بينما أنا أسير مع ابن عمر فقلت: من احسن الناس هيئة واوفاهم كيلاً أهل مكة وأهل المدينة، قال: حُق لهم، اما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

وفي رواية لأبي جعفر الطبري أن رجلاً قال لعبد الله: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة ليوفون الكيل قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾[المطففين: ١-٦].

إلا إن ظل اليهودية الذي انحسر من عالم الاقتصاد بما تبينه معالم القرآن في الماضي وعمل به المسلمون: لا سبيل لمحاصرته وإزاحة أذاه من طريق الأمة اليوم إلا باستمساك واعٍ بعطاء هذه المعالم من جديد مع الإدراك الواعي لما يدور حولنا إقليمياً ودولياً، والحرص على ذاتية القرار الاقتصادي، وعدم الغفلة عن علاقته بالأمور السياسية، ولله عاقبة الأمور.



البناء.. وتنمية الوازع عند الفرد والجماعة

العهد المدني

«٤»

كلما تشعبت مسالك الحياة، وتعددت فيها ميادين الحركة والعمل، نتيجة التطور وما يفتح العلم من آفاق.. بدت الحاجة أكثر إلحاحاً ـ مع السلطة التنظيمية المسؤولة عن التنفيذ ـ إلى وازع من داخل النفس يصحب الإنسان أينما اتجه، وحيثما راح، في بناء للحاضر، أو تطلع إلى المستقبل.. سيما وأن هنالك ميولاً وغرائز، وحباً شديداً للمال، وحيازة السلطان لا بد لها من كوابح تمنع التجاوز والتظالم، وتبعث الطمأنينة والرضى. قال تعالى في سورة العاديات: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾[العاديات: ٦-٨].

﴿لَكَنُودٌ﴾: لجحود كفور لنعم ربه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾: لشديد المحبة للمال، أو لحريص بخيل من محبة المال، وكلاهما صحيح.

هذا الوازع الذي هو ثمرة من ثمرات الإيمان بالله واليوم الآخر، كانت تنميته على صعيد بناء الإنسان ذات حجم كبير في معالم القرآن الكريم، وكانت هذه التنمية متساوقة مع كل من البناء الاقتصادي والاجتماعي على حد سواء.

وأنت ترى هنا أن القرآن بعد أن طرح هذه الحقيقة التي تتمثل في أن الإنسان لربه لكنود وأنه لحب الخير ـ وهو المال ـ لشديد، أتى على التذكير بيوم القيامة، وأن الله عليم بجميع ما كان يصنع عباده ويعملون ذلكم قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[العاديات: ٩-١١].

ومن خلال الواقع الذي تعيشه كثير من المجتمعات في ديار الإسلام، حيث الشكوى من فقدان الاندفاع الذاتي حيناً أو فتوره حيناً، ومن نقص الشعور بالمسؤولية حيناً آخر، وحيث إلقاء الحبل على الغارب، وطغيان اللامبالاة هنا وهناك.

من خلال هذا الواقع أعود بالأخ القارئ إلى سورة المطففين: فمع الذي رأينا في مطلعها، من الاهتمام البالغ بالقضاء على ظاهرة التظالم التي خلفتها جاهلية الشرك وجشع يهود، والتي تبدو ذات علاقة وثيقة بالناحيتين الاقتصادية والاجتماعية.. مع هذا الاهتمام، يقفنا واحد من المعالم القرآنية في السورة، على وجه من الوجوه المتألقة في تنمية الوازع الذي أشرنا إليه، في أعماق المؤمن، وتوسعة المجال له أكثر واكثر ليعمل عمله في أن لا يهتز عاتق الميزان عند تعامل الناس بعضهم مع بعض.

وكان الطريق إلى ذلك تذكيراً باليوم الآخر يحمل الوعيد بهول السؤال والحساب، ولسوف نرى كيف جاء الكشف بعد ذلك عما أعد الله للأبرار، وعما أعد للفجار، وحين نلاحظ ارتباط ذلك بما دل عليه في فواتح السورة من تهديد للمطففين بالويل، نقع على واحد من وجوه الحكمة في الانتقال من الكلام على أولئك الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون إلى الكلام على الأبرار وكتابهم يوم القيامة، وعلى الفجار وكتابهم في ذلك اليوم.



تنمية الوازع عند الفرد والجماعة..
ومعالم البناء في العهد المدني
«٥»

عطاء القرآن سخي في ارتباط فكرة بأخرى من خلال الآيات، أو الانتقال من موضوع إلى آخر عبر السورة، هذا العطاء السخي الكريم، نتبين بعض صوره فيما أشرنا إليه فيما سبق من الأهمية التي يضفيها منهج القرآن في البناء، على الوازع الذي يقوم بدور الحراسة والتقويم من أعماق النفس في الإنسان.

وفي سورة المطففين التي صحبنا بعضاً من آياتها من قبل: يسير التوجيه على هذا المحور، فبعد تهديد أولئك الفئام من الناس الذين إذا اكتالوا على الآخرين يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون.. بعد تهديدهم بالويل تبدأ به السورة من أول كلمة فيها.. يقول الله تعالى متوعداً إياهم ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٤-٦].

وهذه الكلمات النوارنية ـ على وجازتها ـ قوارع تقرع القلب، وتهز المشاعر: فإذا استطاع هؤلاء المتجاوزون لحقوق الله وحقوق العباد، الإفلات من سلطان المسؤولية في الدنيا، فإن ساعات الهول في الآخرة لهم بالمرصاد.. إنها ساعات يوم عظيم يقف فيه الناس جميعاً، ظالمهم ومظلومهم، من استقام على الجادة ومن انحرف عن الصراط، بين يدي رب العالمين جبار السماوات والأرض الذي يعلم ما كسبت كل نفس، ولا تخفى عليه خافية ومما تكنه السرائر والضمائر.

ولكم ينتفع أهل السعادة بهذا الوعيد، إنه تذكير صارخ يزيد المؤمن إيماناً ويوقظ الغافل، ويرد المستهتر وينمي خشية الله التي تنفع صاحبها، وتعود على الجماعة بأطيب النتائج والثمرات.

وفي ضوء ما أسلفنا من الارتباط الموضوعي بين فكرة وأخرى، نرى الانتقال بعد هذا إلى الحديث عن كتاب الفجار وما أعد لهم في ذلك اليوم الذي لا يجدون فيه ولياً ولا نصيراً، وفي المقابل عن كتاب الأبرار وما أعد لهم من النعيم المقيم، بدءاً من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين:٧] إلى قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين:١٨] ومابعده ـ الآيات .

وإذا كان الحديث يُدار عن تنمية الوازع الإيماني التي تنعكس على بناء الفرد وتسهم في استقرار المجتمع، فلا بد من التذكير بأن الفجار هم أولئك الذين ما فتئوا ـ كما تشير الآيات ـ يتقلبون في حمأة الضلالة قبل يوم الدين ويتعدون حدود الله، ويستهترون بالواجب، ويأكلون المال أكلاً لمّاً من حلّه، ومن غير حلّه أما الأبرار: فهم أهل الاستقامة، أولئك الذين لا يتجاوزون حداً من حدود الله، ولا يأكلون شيئاً من أموال الناس بالباطل، وتراهم أنموذج الضياء في مجتمع تتساوق فيه الحقوق والواجبات، ففي الوقت الذي يتمخض سلوك الأبرار بناء وإنماءً وإسهاماً في تطوير المجتمع إلى ما هو الأفضل في الدنيا والآخرة، يتمخض سلوك الفجار عدواناً وهدماً وإساءة إلى أنفسهم وإلى ذلك المجتمع.



تكامل البناء.. وسورة المطففين

العهد المدني

«٦»

قبل أن نورد الآيات التي ألمحنا إلى معناها بإجمال من سورة المطففين والتي تبدأ بقوله تعالى في الآية السابعة من السورة الكريمة: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ قبل هذا يحسن أن نستذكر أن السورة مدنية نزلت بعد الهجرة، حيث خلايا البناء تمور بالعمل في مجتمع المدينة على كل صعيد وفي كل ميدان.

وأن نستذكر أيضاً ما كنا أسلفنا الإشارة إليه من قبل، وهو أن تطفيف المكيال والميزان عنوان عريض على التظالم عند تبادل المنافع، وسمة انحراف خلقي يحمل على تجاوز الحدود، وهو ظاهرة مرضية كانت تنخر في جسم المجتمع: فعناية القرآن بالقضاء عليها: إنقاذ للمجتمع مما يتهدده من وهن اقتصادي واجتماعي، يحمل آثار الجاهلية وتكالب اليهود.

وإذا تصورنا مدلول ذلك في عصرنا الحاضر، حيث التنوّع والتشعب في قضايا المال والاقتصاد، وصنوف التعامل بين الناس وما يترتب على ذلك من آثار على الصعيدين الداخلي والخارجي.. إذا تصورنا مدلول ذلك: أدركنا أيَّ خير تجنيه الأمة حين تصحب معالم الكتاب الكريم في تساوق مع سنن الله على صعيد البناء والاستقرار، وأيّ كارثة تلم بها حين يكون منها الإعراض وقد استبان الطريق.

بعد استذكار هاتين النقطتين نقرأ في أعقاب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ قوله جل وعز: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا

يُكَذِّبُ به إلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أثيمٍ ﴿١٢﴾ إذا تُتْلَىٰ عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوَّلين ﴿١٣﴾ كلاَّ بلْ رانَ علىٰ قُلوبِهم مَّا كانُوا يكْسِبُون ﴿١٤﴾ كلاَّ إنَّهُمْ عن رَّبِّهِم يومَئذٍ لَّمحْجُوبُون ﴿١٥﴾ ثُمَّ إنَّهُمْ لَصالُوا الْجحيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقالُ هذا الَّذي كُنتُم به تُكذِّبُون ﴿١٧﴾ ﴾[المطففين: ٦-١٧].

هكذا تبدأ الآيات بكلمة الردع (كلا) ويسير الكلام على نمط من تأكيد أن مصير الفجار ومأواهم في ضيق من سجن مقيم وعذاب أليم، ولذلك عظم اللّه أمره فقال: ﴿وما أدْراك ما سجِّينٌ﴾ والسجين هذا مكتوب مفروغ منه بسبب ما جنته أيديهم لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد.

ولعل القارئ الكريم يشاركني الاجتهاد في أن تهديد المكذبين الذين يكذبون بيوم الدين بالويل هنا، وتهديد المطففين بالويل في مفتتح السورة.. دليل التكامل الذي تهدف إليه معالم القرآن في بناء الفرد والجماعة، فكما أن المكذبين باليوم الآخر، لهم العذاب أو واد في جهنم يوم القيامة، فكذلك الذين يجحدون ويظلمون ويشيعون التظالم وإضاعة الحقوق لهم ذلك الويل، والإسلام يريد مجتمعاً سليم البنية في عقيدة أفراده وتكوينهم، سليم البنية على صعيد الاجتماع والاقتصاد والسلوك.

الا وإن من تباشير الخير أن تستأنف الأمة طريقها فتضع ـ بمنهجية وتساوق مع سنن اللّه ـ مفهومات القرآن وبيانها من السنة موضع التدبر المؤمن الواعي، وتتخذ من ذلك مفاتيح نور وبر للتغيير إلى ما هو الأفضل والأقوم على كل صعيد واللّه لا يضيع اجر من أحسن عملاً.



البناء.. والتعللات الموهومة

العهد المدني

«٧»

قد يتوهم متوهم أن هؤلاء الفجار الذين جاءت على ذكر عاقبتهم سورة المطففين إنما يجنون ثمرة ما قدر عليهم وليس لهم في ذلك كسب ولا اجتراح.

ولكن هذا التوهم يندفع بما نجد من قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[المطففين: ١٤].

بعد أن وصفهم بأنهم يكذبون بيوم الدين، ويقولون عن آي القرآن أساطير الأولين.

هكذا بدئت الآية بكلمة الردع والزجر «كلا» قطعاً لدابر التعللات الفاسدة احتجاجاً بالقدر، ليكون ذلك مسوغاً للانحراف والجنوح عندهم.

فما ينالهم من العذاب يوم القيامة كائن بما كسبت أيديهم ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[الشورى: ٣٠] وما صدر عنهم من التكذيب بيوم الدين، ووصف آيات الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأنها أساطير الأولين.

ما صدر منهم من ذلك إنما كان بسبب ما ران على قلوبهم من تلك الكثافة المظلمة التي تولدها الذنوب وسلوك سبل العماية والعياذ بالله، حيث يحجب القلب عن التذكر والخشية، فلا تنفع فيه موعظة، ولا يؤثر فيه تذكير.

ومن هنا كانت الخشية على المؤمن، إن هو وقع في المعصية، فأصر عليها ولم يتبع الذنب بالاستغفار والندم، لأن من صفات المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان أن يسرع إلى قلوبهم التذكار، فتكون الصحوة والإبصار، ذلكم قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[الأعراف: ٢٠١].

أما الإصرار - والعياذ بالله - فموقع في المهلكة. جالب لتلك الكثافة المظلمة تعتري القلب وهي الران.

روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت فذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤]» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. ولفظ الرواية عند النسائي «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» وعند الإمام أحمد «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن».

وبعد: فإن رسول الله ﷺ وهو يمهد لحضارة الإنسان مسالكها، ويعيد لسعادة البشرية في الدنيا والآخرة طرائقها، كانت يده الصناع لا تني عن متابعة البناء، بناء، الإنسان القادر على تحقيق الرسالة، وبناء المجتمع الذي ينطبع في ميادين الاقتصاد والاجتماع والسلوك بطابع تلك الرسالة. وكان لا بد من تنمية الوازع عند الفرد والجماعة، وإبعاد المؤمنين عن كل ما يمت إلى التخلخل والضعف بسبب.



العطاء القرآني... والمجتمع القدوة

في العهد المدني

«٨»

إن الذي أشرنا إليه في العهد القريب، من بيان الران في كلام رسول الله ﷺ إنما كان ـ والله أعلم ـ لأن رسول الله ﷺ وهو يتولى عملية البناء الكبرى بعمقها وشمولها وتوجيهها وجهة الرشاد الذي يسعد الإنسان في الدنيا ويوم الدين، كان يعلم أنه لا يصلح لهذه المهمة الفريدة إلا أولئك المؤمنون الذين يُبنون على الهداية والخير وتحصيل الكفايات المطلوبة لبنة لبنة. والقلب إذا غشيه الران واستحوذت عليه الظلمة فسد، فلم يعد قادراً على الأخذ والعطاء كما تريد له رسالة الإسلام. وذلك ما جاء في الحديث الصحيح «**الا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب**» رواه البخاري وغيره من حديث فيه طول.

ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله في شأن الران الذي يصيب القلوب والعياذ بالله «هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت» وهو المروي عن عدد آخر من التابعين.

هذا: وبعد أن قررت الآيات حقيقة أن الفجار ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، جاء قوله تعالى في شأن ما يلقون يوم القيامة ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾[المطففين: ١٥-١٦].

إن هؤلاء الفجار بما يشكلون من عناصر الهدم لحقيقة الإنسانية في الإنسان ووجوده الذاتي، وبما يجلبون على مجتمعهم من المضرة والسوء، محرومون مما أعده الله للمؤمنين الذين يسعدون أنفسهم، وتسعد بهم مجتمعاتهم وأمتهم، لأنهم بإيمانهم

يبنون لدينهم بعقيدة صحيحة وسلوك مستقيم وإخلاص، ويبنون لدنياهم بتعامل موضوعي سليم مع الحياة في الكون الذي سخر الله لهم ما فيه من ثروات وخيرات، كما يعاملون الآخرين باستقامة تحفظ الحقوق وتنمي طاقات المجتمع، وتضع الإمكانات كلها في طاعة الله والحرص على أن تكون كلمته تعالى هي العليا.

وإذن: فالطريق التي سلكها الفجار والتي كان قوامها ضلالاً في العقيدة، وانحرافاً في السلوك، وإسهاماً في ضياع الحقوق، واضطراب حبل الاستقرار في كيان الفرد والجماعة، هذه الطريق مرفوضة لأنها تبدأ بالضلال والهدم وتنتهي بجهنم وساءت مصيراً.

ألا وإن الحديث عن الفجار، في سورة مدنية تتنزل آياتها وقد أمسك المسلمون بزمام المجتمع، وبدأت شرعية الإسلام تأخذ طريقها إلى القضاء على رواسب الجاهلية فيه، وبنائه في كل الميادين على الهداية والإحكام... إن الحديث عن هؤلاء في هذه الفترة وخلايا البناء مفعمة بالحركة هنا وهناك، جدير أن يشد الأمة إلى إعطاء التحول المنشود إلى الأفضل عنواناً ومضمونات هي من صميم ما جاء به القرآن، وبنى رسول الله الإنسان والمجتمع والأمة من خلالها.



مجتمع العقيدة

الحوافز الذاتية.. وجيل البناء في العهد المدني

«٩»

سلطان عقيدة التوحيد على النفوس لا ينكره إلا جاهل أو مكابر، والوازع الذي أسلفنا الإشارة إليه في حلقات مضت هو أثر من آثار هذه العقيدة.

في ضوء ذلك يمكن أن نتصور قوة الحوافز التي يمكن أن يصنعها الإيمان بالله واليوم الآخر وما أعد الله لعباده البررة الصادقين.

ولئن كانت الآيات التي كشفت عن مصير الفجار الذين لا يعدو الواحد منهم أن يكون عنصر هدم لنفسه وللمجتمع: تعمل عملها في وضع حجاز بين الإنسان وبين أن يسلك سبيل أولئك الفجار: إن مجموعة من الآيات البينات التي تليها: تعمل عملها في وضع الإنسان على الجادة في البناء الخيِّر والعمل النافع، وتراها وهي من أقوى الحوافز للاندفاع الذاتي إلى كل ما فيه مرضاة الله عز وجل مما يسعد الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة.

تلك الآيات هي التي تكشف عن كتاب الأبرار وما أعدَّ لهم يوم القيامة من النعيم المقيم حيث يتمتعون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ذلكم قوله تعالى: ﴿كلاَّ إنَّ كتاب الأبْرار لفي علّيّين ﴿١٨﴾ وما أدْراك ما علّيُون ﴿١٩﴾ كتابٌ مّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يشْهدُهُ الْمُقرّبُون ﴿٢١﴾﴾[المطففين: ١٨-٢١]. وفي المقابلة بين مصير الفجار ومصير الأبرار: ترسيخ للفرض المقصود في توجيه الأفراد والجماعات وجهة الخير والعطاء، وإنها لصورة من صور العدل الإلهي: كل أناس يحصدون يوم القيامة ثمرة أعمالهم وما قدموا في الدنيا: فكتاب الفجار في سجين ذلكم هو مصيرهم، أما مصير الأبرار: فإلى عليين.

إن الذين سمت بهم هممهم إلى أن يكونوا من أهل الإيمان والاستقامة وأن يتحركوا على الأرض بطهر الملائكة بناة صالحين، لا بد من أن يسموا في دار الكرامة ليكونوا في عليين جزاءً من ربك عطاء حساباً.

ومن أجدر بصفة الأبرار من أولئك الذين ينساحون تحت راية التوحيد في كل ميدان من ميادين المجتمع، يصنعون التاريخ، ويبنون حضارة الإنسان، وكل همهم أن يلقوا ربهم مسلمين صادقين قد أسهموا في التمكين لدينهم ولأمتهم، ولم يبخلوا بأي جهد أو طاقة في هذه السبيل.

إلا إنه بمقدار سلامة التصور لحجم الرسالة التي تريدها الأمة من الجيل على طريق البناء والنماء، تُعطى الأولوية للإعداد الصحيح، وفسح المجال لتلك الحوافز الذاتية التي توجدها معالم القرآن، كي تنمو وتتعاظم وتؤدي دورها المنشود. وفي المعلم القرآني الذي نعشو إلى ضيائه في سورة المطففين نفحات ذات فاعلية في تنمية تلك الحوافز. فالإعراض عن طريق الفجار، وانتهاج سبيل الأبرار: من سمات المؤمنين الذين ترى فيهم الأمة مستقبلها، وبعزائمهم الإيمانية يتحقق وجودها الذاتي على صعيد الثقافة والسلوك والاجتماع والاقتصاد، ناهيك عن القوة في مواجهة التحديات والعلم الذي لا غنى للقوة عنه.



العهد المدني.. والمجتمع القدوة

تحديات العابثين

«١٠»

ما من ريب في أن القيم التي يؤمن بها الإنسان ويعمل على تحقيقها أو تحكيمها في شؤون الفرد والمجتمع تؤثر - إلى حد كبير - في سلوكه وتصرفاته.

ومما تقتضيه طبائع الأشياء أن يظهر هذا السلوك على ساحة الصراع بين الحق والباطل، ومن النماذج الواضحة المعبرة في تاريخ الإنسانية ما حصل من ذلك على صعيد الصراع بين حملة الدعوة الإسلامية التي تمثل الحق الصراح، وبين أعدائها الذين كانوا للباطل ومع الباطل.

إذ كان طبيعياً - ورسالة هذه الدعوة الربانية: رسالة بناء شامل عميق الجذور للإنسان والمجتمع -، أن تواجه التحديات التي يثيرها دعاة الهدم، والإقامة على رواسب الجاهلية التي أعنتت الإنسان والمجتمع وذهبت بريح الجماعة، وقذفت بها إلى كهوف التخلف والتبعية للآخرين.

حتى إذا يئس هؤلاء الهدامون دعاة الهدم من صرف دعاة التغيير إلى ما هو الأصلح والأقوم، والبناء السليم على أنقاض ما كان من التخلف.. أجل عندما يصابون باليأس من ذلك: يلجؤون إلى الاستهزاء بهم والضحك منهم.

ولقد كان من واقعية القرآن وهو يوجه الأمة وجهة البناء الذي يقود إلى الفلاح: أن أنذر وتوعد أولئك الذين يظلمون الناس حقوقهم، فيطففون المكيال والميزان، ويحدثون الاضطراب الاقتصادي في المجتمع، ثم كشف عن مصير كل من الفجار من والاهم، يوم القيامة، حيث دل الكلام بفحواه على أن المطففين الذين توعدهم بالويل في أول السورة: هم من أولئك الفجار.

وبعد هذا عرض علينا صوراً من سلوك الفجار مع الأبرار في الدنيا الذين تقعد بهم شهواتهم وأهواؤهم عن اللحاق بركب من يؤرقهم المصير مصيرهم يوم القيامة وهمُّهم توفير ما به صلاح الأمة حيث مصيرهم الخير وعناصر التأثير الإيجابي في المجتمع، ذلكم قوله تعالى بدءاً من الآية التاسعة والعشرين من سورة المطففين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾[المطففين: ٢٩-٣٣].

إنه سلوك يتفق مع القيم العابثة التي تحرك هؤلاء الضائعين.. سلوك جعل منهم مجرمين حسب التحديد القرآني، إنهم يضحكون من الذين آمنوا، يهوِّنون من شأنهم وما يصنعون. وأسوأ من هذا أنهم إذا مروا بهم يتغامزون.. ويستمرون في إجرامهم. حتى إذا انقلبوا إلى منازلهم انقلبوا فكهين، فبدل أن يشكروا نعمة الله، يجعلون شغلهم الشاغل تجريح المؤمنين والنيل منهم إثماً وعدواناً.. ويبلغ الأمر ذروته حين يتهمونهم بالضلال على النقيض مما هم فيه، فالمجرمون الذين هم عناصر هدم وطفيليات أذى في المجتمع إذا رأوا المؤمنين قالوا: إن هؤلاء لضالون. يصدر عنهم هذا السفه وما أرسلوا حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أقوال وأفعال ولا كلفوا بهم.

الا إن المعلم القرآني ـ كما أوضح من خلال هذه الآيات مواقف الخزي من هؤلاء المجرمين ـ فإنه يحمل المواساة المبصرة لكل أولئك الذين يحملون أعباء البناء وتقوم في وجوههم ألوان من الصعاب ليس أقلها ما يكون من هزء الفارغين وسخريتهم: لأن القيم التي تحركهم: كذلك: ولأن قلوبهم هواء.



بناء المجتمع

مؤشرات مبكرة.. على طريق البناء

وسورة إبراهيم

«١»

يقع الناظر في كتاب الله على العديد من المواطن التي تحمل فيها الآيات المكية ـ كما أسلفنا من قبل ـ ما يشير إلى الخطوط العامة في بناء المجتمع المنشود مع الكشف عن عوامل الهدم التي كان يمارسها الجاهليون بانحسارهم عن التعاون على الخير وبالتهاون في إيتاء ذوي الحقوق حقوقهم، وفي إشاعة الثقة والطمأنينة في النفوس. وقد رأينا من قريب ما جاء في سورتي الروم ويس من مؤشرات ذات دلالة على هذا الذي نقول.

ولنبدأ خطوة أخرى في ظل العهد المكي نقف معها عند قول الله تعالى في سورة إبراهيم بدءاً من الآية الحادية والثلاثين: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [ابراهيم: ٣١-٣٤].

هكذا يوجه الله العباد إلى ما فيه خير الفرد وسلامة بنية الجماعة فيأمرهم بطاعته والقيام بحقه فيما يأمرهم وفيما ينهاهم، والإحسان إلى خلقه وذلك بأن يقيموا الصلاة وهي أبرز مظاهر العبودية الخالصة لله عز وجل ـ وأن ينفقوا مما

رزقهم الله بأداء حقوق الأقارب ومد يد المعونة إلى الآخرين، وكل ذلك حقوق في المال الذي أنعم الله به عليهم.. فليكثروا من الإنفاق سراً وعلانية أي في الخفية والجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتي يوم القيامة وهو يوم لا يقبل فيه أحد بأن تباع نفسه فتنقذ من النار، كما أنه يوم ليس فيه مُخالَّة ـ خليل يعنيه أن يصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته ـ وذلك كما في قوله جل وعلا: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد:١٥] وقوله سبحانه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إن هذا التوجيه القرآني إلى الإنفاق في سبيل الله مع الكشف عن علاقة ذلك بالعبودية لله عز وجل، وأن البذل وإيتاء الحقوق طريق من طرق النجاة يوم القيامة وهو يوم لا بيع فيه ولا خلال... إن هذا التوجيه القرآني على هذه الصورة الواضحة المستنيرة ـ والفئة المؤمنة تعاني ما تعاني حتى من شظف العيش عند بعض أفرادها واللقمة تستساغ ـ ذو دلالة عميقة على الهدف البعيد الذي تمهد له معالم الكتاب العزيز، من بناء مجتمع العقيدة، الذي تنمو طاقاته وتتعاظم في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وإنما يكون ذلك بجهود أبنائه وبذلهم وهم يتحركون بحوافز داخلية من أعماق نفوسهم، وهي حوافز تنمو وتتعاظم بزيادة الإيمان والحركة الواقعية على ساحات العمل والتعاون المثمر البنَّاء، فهم عباد الله المتآخون على العقيدة، والرزق من عند الله، والمسؤولية كائنة في الدنيا ويوم الدين.

والحق أن هذا الذي نلمح إليه لم يكن نظرية نامت كلماتها في بطون الكتب، ولكنه استحال إلى واقع عملي شهده التاريخ في مجتمع المدينة الذي كان فاتحة الخير لعالم الإسلام الكبير.

الا إنّ الضمانة الأكيدة للتعاون المجدي على ساحة الاقتصاد والاجتماع كائنة بتنمية تلك الحوافز الإيمانية.. وهذا ما يجعل الإفادة من العلم والإمكانات البشرية والمادية أكثر جدوى وأوفر نفعاً في شتى الميادين.

وجدير بالجيل المؤتمن على مسيرة الخير أن يذكر هذا العمر المديد لدعوة الخير بدءاً من مراحلها الأولى في مكة المكرمة.

ولسوف نرى قريباً إن شاء اللّه تعالى ما لارتباط الآية بما قبلها وبما بعدها من أثر في تبين تلك الخطوط العامة المشرقة لبناء المجتمع القوي الأمثل.



مؤشرات مبكرة على طريق البناء

وسورة إبراهيم

«٢»

ما جاء في سورة إبراهيم من قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية، يهدي المعلم القرآني من خلاله إلى ما تحمله هذه الآية وأمثالها ـ مما تنزّل في العهد المكي ـ من مؤشرات مبكرة على ساحة الإعداد للبناء الاجتماعي الذي ينعكس على البنية الاقتصادية من وجوه كثيرة، وعلى توفير الطاقات الكفيلة بإغناء المجتمع بكل ما يمكنه من العطاء على ساحة التقدم المحمود ويرتقي به إلى المستوى المطلوب كما أشرنا من قريب.

والتساوق الذي يشهده الناظر المتدبر بين بناء الفرد ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على العقيدة الصحيحة، والوعي الذي يتخطى ركام الجاهلية، وبين التحضير لبناء المجتمع المتماسك الذي يتحرك أبناؤه ـ وهم بإيمانهم كالبنيان المرصوص ـ بحوافز داخلية تنمو مع ازدياد الإيمان والرغبة في تحقيق عبودية الله في الأرض.. هذا التساوق يشدنا إلى خطوة تالية لما قبلها ـ كما هو موعود الأمس ـ تقفنا على ما تتركه علاقة الآية بما سبقها وبما تلاها ـ سياقاً وسباقاً ـ من أثر على ساحة التحضير الذي نلمح إليه.

فأمر المؤمنين بإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله سراً وعلانية، مع التذكير باليوم الآخر الذي لا بيع فيه ولا خلال.. كل هذا سبقه التنديد بضلال كفار مكة، وما كان من صنيعهم المستكبر الذي امتدت آثاره إلى مجتمعهم وقومهم. ذلكم ما

يؤذن به قول الله تعالى قبل الآية السابقة: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ﴿٢٨﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿٢٩﴾ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴿٣٠﴾﴾[ابراهيم: ٢٨-٣٠].

أين طريق من طريق؟ بل أين منهج الهدم الجاهلي من منهج البناء الإيماني القويم؟ إن المؤمنين مدعوون لبناء الإنسان الصادق في عبوديته لله، المؤهل لعمارة الأرض على الوجه الذي يكرّم فيه الإنسان، وتصان الحقوق، ويشكر الله بإقامة شريعته والاحتكام إليها في شتى الشؤون.

لذا كان من كمال بناء هذا الإنسان تجهيزه بالعلم ـ ما أمكن ـ وبكل مقومات التعاون مع إخوانه على البر والتقوى، والبعد عن كل ما فيه تعاون على الإثم والعدوان.. الأمر الذي تنعكس آثاره الطيبة العملية على المجتمع، ويسلك به سبيل القوة والفاعلية في شتى الميادين، ويسعد أبناؤه في دنياهم، ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

أما الكفار المنحرفون عن هذا الصراط السوي: فقد بدّلوا نعمة الله التي كان عليهم أن يشكروها بالإيمان والعمل الصالح، كفراً. ولم يقتصر أذاهم على أنفسهم ـ بما مكنوا للوثنية والخرافة والعادات الجاهلية أن تبيض وتفرّخ في النفوس، وبما أوهنوا من أواصر التعاون على البر والإصلاح في المجتمع ـ ولكن انعكس ذلك على الآخرين.. فكان الهدم والتمزق والضياع في الدنيا، وكان الهلاك وسوء العقبى في الآخرة كما يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ﴿٢٨﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿٢٩﴾﴾[ابراهيم: ٢٨-٢٩].

وهكذا تبدو العلاقة وثيقة بين هاتين الآيتين من سورة إبراهيم وبين الآية الحادية والثلاثين من السورة نفسها وهي قول الله جلت قدرته: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴿٣١﴾﴾[ابراهيم:٣١].

إنه التحضير ـ بحكمة الحكيم سبحانه ـ للبناء الذي تتوافر له سلامة القواعد، والحوافز الإيمانية من داخل الفرد.. بعد التنديد بالهدم والهدامين. وذلكم هو المنهج الأمثل في إزاحة الركام، وإقامة البديل الصالح النافع الذي لا تعوزه المقومات الجوهرية الأولى للفرد والمجتمع ولا يفتقر إلى عوامل القدرة الذاتية واستمرار العطاء بإذن اللّه.

ولعل من بعض ما توحي به هذه العلاقة بين الآيات ـ مع الذي جرى الإلماح إليه ـ ضرورة التنبه إلى أن من الخطورة بمكان: تركَ الحبل على الغارب، والاستهانة بما يمكن أن يخلفه الجانحون عن جادة الهدى من آثار بالغة السوء على الفرد والجماعة، وتماسك المجتمع وتطويره إلى ما هو الأفضل، ناهيك عن الإضرار بحقول البناء والإنماء والتفاعل الحضاري السليم.. وقد يكون التهوين من شأن ذلك باباً من أبواب الفتنة والشر المستطير.

ذلك لأن مرض أولئك الهدامين المشركين يمتد ـ كما أسلفنا وكما كان واقعاً ـ إلى قومهم ويتفشّى في المجتمع، ويترك بصماته في حياة الناس على مختلف الأصعدة.

من هنا كان حملة عقيدة التوحيد مرشحين من أول يوم، لملء ذلك الفراغ الذي خلفته عصور الجاهلية والعدوان على الإنسان؛ حتى كأن قطرات الدماء التي كانت تراق على ساحة الصراع بين الحق والباطل والآيات التي كانت تعكس ما كان من التعذيب وفادح الظلم لفتن المستضعفين عن الدين.. كأن هذه كلها كانت تحكي ـ مع التهيئة لراية التوحيد أن تعلو سامقة في الأرض ـ قصة البناء الحضاري الذي قدمه الإسلام للبشرية من أين بدأ وكيف أخذ طريقه في شعاب الحياة.

هذا: والقضاء على التخلف الجاثم على صدر الأمة، وتعبيد المسالك أمام اليقظة في بوادرها وتباشيرها.. كل أولئك يقتضي الأخذ بأسباب البناء العلمية والعملية من أطرافها في كل متجه، كيما تتصل أسباب حبل اليوم بأسباب حبل الأمس، ويتحقق للأمة المحمدية الماجدة ما يتطلع إليه المخلصون، من مستقبل تجد فيه ذاتها في ظل الحق الذي نزل به الكتاب.

مؤشرات مبكرة.. على طريق البناء

وسورة ابراهيم

«٣»

إنه لا تثريب علينا ـ والقرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ـ أن نؤكد اهمية ما دلت عليه الكلمات الهاديات في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [ابراهيم:٣١] من دعوة الكتاب العزيز في عهد مبكر من عمر الدعوة إلى أن يصحب بناء الفرد على عقيدة التوحيد وهجر التقليد الأعمى وما إلى ذلك.. العملُ على بناء المجتمع الذي تحكمه هذه العقيدة وما يتعلق بها من حقوق وما يترتب عليها من مقتضيات، فيجعل ذلك منه المجتمع المتكافل القوي، ويدع أبناءه يتحركون في شتى الميادين الفكرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، بحوافز من داخل النفس تنشئها تلك العقيدة المتمثلة بالكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكلما ازداد الإيمان والرغبة في مرضاة الله واليقين بما عنده ازدادت نمواً وقدرة على التأثير.

وليس من مكرور القول إعطاء مزيد من تأكيد العلاقة بين هذه الآية المشار إليها وبين سابقتيها من أثر على ساحة الإعداد وتهيئة النفوس لبناء المجتمع الإسلامي المنشود، وهي العلاقة التي يؤذن بها اقتران الدعوة إلى البناء السليم بكل حدوده وأبعاده بدءاً من العلاقة بين المخلوق والخالق جل وعلا، ومروراً بعلاقات الناس بعضهم ببعض على اختلاف مواقعهم وإمكاناتهم. بالتنديد بالهدم الذي يمارسه أهل الشرك في المجتمع والهدّامين القائمين بذلك مع دعاواهم المريضة في ظل الجاهلية الجهلاء.

ولقد اقترن ذلك التنديد بإعلام أهل الإيمان ـ وهم الفئة القليلة التي لم تكن تملك من قياد المجتمع شروى نقير ـ طبيعة ما صنعه ضلال الكفار، وما جرّه من الوبال والهلاك وبخاصة على المستضعفين وذوي القرابة أحياناً. وأن ذلك لم يقتصر على انفسهم والحلقة الضيقة من حولهم بخاصة، ولكنه انجر إلى مجتمعهم وقومهم بعامة.

ومن الخير استذكار الآيتين الكريمتين وهما قول الله جل شانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾[ابراهيم: ٢٨-٣٠].

أنت واجد ـ في ضوء النصوص وسياقها وسباقها ـ أن المنهج القرآني يأخذ بيد الجماعة إلى أن تكون على بينة من أمرها، فلا تغفل ـ وهي تعد لرفع قواعد البناء ضمن الظروف المحيطة والملابسات كما أراد الإسلام ـ عما يجب من الحيطة والحذر، والعمل على إماطة الأذى الكافر على الطريق، وتقديم البديل الصالح النافع.

والحق أن نهاية الشوط ليست في علاقة الآية الثلاثين بسابقتيها وكفى، ولكنها منوطة بما وليها من بعض الآيات التي تفتح الأعين على افق جديد.

ها نحن أولاء نقرأ بعد الآية الحادية والثلاثين قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[ابراهيم: ٣٢-٣٤].

إن الله الذي أمر عباده بأن يخلصوا له العبادة فيقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال. هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي سيّر الكون على سنن يزينها كمال الدقة المطلق والانتظام: فترى الغيث ينزله الله من السماء فيخرج به من الثمرات رزقاً لهؤلاء العباد كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

ماءً فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه:٥٣] وهو سبحانه سخّر الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم يا معشر الخلق الأنهار. وليس ذلك فحسب، بل إنه سبحانه هو الذي سخر الشمس والقمر دائبين يسيران لا يفتران وسخر الليل والنهار ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرك القمر ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌّ في فلك يسبحون ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٤٠] ﴿ إنّ ربكُمُ اللهُ الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثُم استوىٰ على العرش يُغشي الليل النهار يطلبُهُ حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مُسخرات بأمره ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تبارك اللهُ ربُّ العالمين ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٤] .

ولا تسل عما لهذا التسخير الإلهي من علاقة بالحياة والأحياء وعما يحمل من دعوة إلى تحصيل العلم الذي يضمن الانتفاع بهذا التسخير والمطلوب ذكر المنعم مع النعمة والإفادة الموضوعية من التسخير وتسيير ذلك في قنواته الطبيعية.

ثم إن هذه الآيات وأمثالها في كتاب الله العزيز، كما تدل على قدرة الخالق وحكمته فيما أقام عليه الكون من سنن لا تعرف التفاوت وهي في الوقت نفسه مثقلة ـ والله أعلم ـ بإيضاح أن مقومات الوجود الحقيقي للفرد والجماعة في إطار إنسانية الإنسان، ومقومات المجتمع الذي تضيء جنباته عقيدة الفطرة، ويزينه ـ طاعة لله ـ التعاون والتكافل في ظل أخوة الإيمان والعمل المجدي..

هذه المقومات مركوزة فيما سخر للإنسان من نعم ظاهرة وباطنة، والمطلوب دائماً ـ كيما تستقيم الأمور ـ ذكر المنعم مع النعمة وعدم استبدال كفرها بشكرها، ثم الإفادة الموضوعية من التسخير وتسيير ذلك في قنواته الطبيعية في الحياة والله يتولى عباده الصالحين.

البناء.. المجتمع.. وتكامل المنهج

وسورة إبراهيم

«٤»

عندما يُنظر إلى البناء الاجتماعي والثقافي من خلال عملية البناء الكبرى، يكون ذلك أعون على استيعاب ما يكون من علاقة بين تلك اللبنات التي ينتظمها البناء، وما يجب أن يعمل على صعيد التصور، وعلى صعيد التطبيق؛ لتأخذ كل واحدة منها وضعها السليم المجدي، ولا تضعف بعد هذا عن العطاء المطلوب في ضوء المنهج الرباني، وما يتطلبه إنشاء الواقع المأمول.

وكان من إعجاز القرآن في التربية والتوجيه ما يرى في طبيعة المنهج القرآني ـ على هذه الساحة ـ كيف أن الآية التي تتعلق بالبناء الاجتماعي ـ مثلاً ـ تبدو وثيقة الصلة سياقاً وسباقاً بما سبقها، وبما تلاها من الآيات.

وما أكثر النماذج التطبيقية لهذا: ومنها ما رأينا في سورة إبراهيم المكيّة من آيات توحي بالوحدة الموضوعية التي تكشف عنها تلك العلاقة المومى إليها: فقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الآية قد سبق بآيات ثلاث تضع ما كان عليه كفار مكة موضعه من المؤاخذة والتأثيم، كما أن كفرهم قد جرّ الويلات عليهم وعلى مجتمعهم وقومهم.

وإذن: فهناك نوع من التكامل في الإطار المضيء لعملية البناء الكبرى على أنقاض الجاهلية ورواسبها على الصعيدين الفكري والعملي: فالبنية الاجتماعية التي بدأت العناية بها ـ أو بخطوطها العامة ـ من العهد المكي، تلمح إليها الآية المشار إليها، فتدعو إلى العبادة الحقة، وإلى الإنفاق الذي يعود بالخير على المجتمع، وأثر ذلك على البنية الاقتصادية لا ينكر.

وفي توجيه إلى الترابط المطلوب بين الفكر وبين العمل: تذكُّر الكلمات الهاديات بأن ما ينفق هو من رزق الله وتنمي الحافز الإيماني لهذا كله، حين تُذكِّر باليوم الآخر وأهمية حصاد الأعمال فيه، فهو يوم لا بيع فيه ولا خلال، ولا يجد المرء فيه إلا ما قدّم.

ويلاحظ أن ما طلعت علينا به هذه الآية الكريمة، قد سبقه التنديد بما يمارس الكفار من الهدم وجرّ الوبال على أسرهم ومجتمعهم، بل وعلى قومهم.

وإذا دققنا النظر في أن تكامل المنهج يقتضي إزالة الركام من طريق قواعد البناء كيما تأخذ سبيلها المتسق مع الغاية المرجوة: وضح لنا الأمر العظيم ـ ولو من بعض الوجوه ـ في هذا التناسق البديع المعجز الذي انتظم ـ فيما انتظم ـ وضع عمل الكفار في حجمه الطبيعي، كيما يكون المؤمنون على بينة من أمرهم، وهم يرتادون لا لأنفسهم فحسب، ولكن للإنسانية كلها، طريق التغيير إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع في بناه المتكاملة، عقيدة وعلماً وعملاً في شتى الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، مشفوعاً ذلك دائماً بالتذكير بحقيقة الارتباط بين الإيمان، وبين الغايات المطلوب تحقيقها على كل صعيد .

ومما يزيد الأمر وضوحاً، أن نستذكر ما تلا الآية الثلاثين من سورة إبراهيم وهي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، من آيات ذكّرت بنعم الله العظيمة التي لاتحصى على عباده، ووجّهت الأنظار، وحركت العقول والقلوب إلى بعض منها وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[ابراهيم: ٣٢-٣٤].

إلاّ أن عملية البناء الإسلامية القويمة التي لا تنحسر عن ميدان من الميادين ـ كما توحي بذلك النصوص في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ـ لا بد لها من العلم التجريبي، وغير التجريبي، والإعجاز واضح في دلالة الآيات بمجموعها

على ذلك: فهذه النعم العظيمة التي هي من مظاهر قدرة الله وحكمته والتي تتعلق بإنزال المطر، وإخراج الثمرات لا يُغني في إدراكها ـ تمام الإدراك مع التسليم بقدرة الله وحكمته ـ إلا العلم.

وقل مثل ذلك في تسخير الفلك والأنهار، وفي تسخير الشمس والقمر والليل والنهار.

صحيح أن المسلم بوصفه من أهل الإيمان ـ يسلّم بقدرة الله وحكمته، وكمال الدقة فيما أقام عليه ـ جل شأنه ـ هذا الكون العريض من سنن وقواعد. ولكن التدبر يقتضي العلم بأسرار هذا الخلق والتسخير بلا ريب. ولا تسل عما يكون لذلك من عظيم النتائج على الصعيد الحضاري. ووضوح هذه الحقيقة عند جيل اليوم، كفيل بخير أكثر، إذا صحبه المنهج: فالآيات هنا دعوة إلى علوم شتى هي مفروضة فرض كفاية على الأمة. ومن إعجاز القرآن: أن التذكير بالنعم العظيمة، حمل في طياته الدعوة إلى العلم، كي يتمكن العباد من إدراك أسرارها، ويقدروها حق قدرها منتفعين بعطائها الغزير، وقد يكون البحث العلمي عن أسرارها من شكرها.

وهكذا يبدو للناظر المتأمل هذا التكامل في عملية البناء الكبرى حيث بدأت تباشير ذلك منذ العهد المكي؛ فقد رأينا في تلك الحقبة المباركة التنبيه على الهدم والهدامين، ورأينا الدعوة إلى تعزيز البنية الاجتماعية بالإنفاق المشروع الذي يتعدى إلى الآخرين، حيث الإثارة الإيمانية، لحوافز هذا الإنفاق والتعاون، لأن المنعم الرازق هو الله، وحمل ذلك كلُّه في ثناياه توجيه الأمة إلى العلم توجهاً مرتبطاً بالعقيدة، الأمر الذي جعل من ذلك لبنة أساسية في صرح البناء الذي يريده الإسلام على الصعيد الحضاري، ووضوح هذه الحقيقة عند الجيل المعد بتكامل كفيل ـ بعون الله ـ بخير أكثر ونتائج عظيمة أوفر، ولكلٍ درجات مما عملوا ويعملون.



خطوة أخرى.. مع العلم والبناء وسورة إبراهيم

«٥»

كان مما هدتنا إليه بعض الآيات في سورة إبراهيم بدءاً من الآية الثامنة والعشرين وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا...﴾ الآية وانتهاءً بالآية الرابعة والثلاثين: تباشيرُ توحي بالمنهج المتكامل لعملية البناء الكبرى التي أراد الإسلام تحقيقها من خلال الرسالة الموحى بها إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن آخر ما رأينا من صور هذا التكامل ما حملت بعض الآيات ـ من خلال التذكير بالنعم التي هي من مظاهر قدرة الله وحكمته في هذا الكون ـ من دعوة إلى العلم تقتضيها سلامة النظر والتدبر وحسن الانتفاع بالتسخير.

ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[ابراهيم: ٣٢-٣٤].

فكم هي تلك العلوم التي يلاحظ أنه لا بد منها من أجل إدراك شيء قليل من أسرار القدرة العظيمة في خلق السماوات والأرض وما فيهما وما قامت عليه من سنن إلهية حكيمة وقواعدَ منتظمة لا تتخلف ﴿... فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك:٤].

وكم هي تلك المعارف التي لا بد منها من أجل تبين ما تحمله عملية إنزال الغيث من السماء، وإخراج الثمرات المختلفة التي تُسقى بماء واحد. ويفضل ربنا بحكمته بعضها على بعض في الأكل، ناهيك عن النبات نفسه الذي يحمل الثمر.

الآيات الكريمة لم تقتصر على ذلك ولكنها ذكّرت بتسخير الفلك التي تجري في البحر بأمر الله، وتسخير الأنهار، وتسخير الشمس والقمر دائبين وتسخير الليل والنهار.

والعلوم والمعارف التي لا بد منها للإحاطة بشيء من الأسرار العظيمة التي يحملها هذا التسخير، يُسأل عنها أهل الاختصاص: فقد مرّ على البشرية آلاف القرون وآلافها وهي تزحف مستخدمة العقل ووسائل المعرفة المتاحة، حتى بدأت تهتدي إلى شيء مما وراء هذا الكوكب الذي نعيش عليه وهو الأرض، وتتجدّد المكتشفات والمنجزات وفق مسيرة البحث العلمي والتجارب وما إلى ذلك.

والتذكير العميق الذي يوجب الإعداد على العقيدة والعلم أولاً نجده فيما ختمت به الآيات من قوله سبحانه: ﴿وإن تعُدُّوا نعْمت الله لا تُحصُوها إنّ الإنسان لظَلُومٌ كفّارٌ﴾ [ابراهيم:٣٤].

إن نعمة الله ـ فيما وراء الذي ذكر ـ كثيرة تستعصي على الإحصاء، ولكن العدّ إنما يكون على وجهه الحقيقي بالعلم المناسب والتجربة وربط المسبَّبات بالأسباب، والملاحظة العلمية الحقيقية وبيان ما تندرج تحته الجزئيات من كليات وقواعدَ عامة.

وكل ذلك ـ مع الإيمان تخالط بشاشته القلوب ـ كفيل بعظيم الآثار التي تنعكس على الفرد والمجتمع بل على الأمة بأسرها وهي تتجه صوب البناء الحضاري القويم.

ولكي يكون الإنسان المسلم بمنجاة من الظلم وكفر النعمة، لا بد من تسييره - على صعيد التربية والإعداد ـ في المجال الآمن الذي يجعله شاكراً لله يستخدم نعمه في طاعته سبحانه وتعالى.

هكذا نجد في خاتمة المطاف، ومن خلال هذه الإلماحة السريعة واحدة من قبسات الإعجاز في التحضير للمنهج المتكامل في البناء الذي من لبناته العلمُ بأوسع مدلولاته، ومنه العلم التجريبي ومتعلقاته، والمؤشر العظيم الذي يحفز أمة الإسلام إلى بناء الإنسان الذي يصدق مع الله حين يعمل، ويصدق مع الله حين يمارس بعلم ووعي عملية البناء الحضاري، الذي أثبتت التجارب أن السلامة كل السلامة فيما رسم الإسلام للحضارة من أطر تضمن للإنسان طمأنينته وسعادته في الدنيا والآخرة.

مال اليتيم.. والبنية الاقتصادية

النظرة الشاملة في كل زاوية من زوايا المجتمع، وتطويع مسيرته للقواعد السليمة التي تضمن سلامة تلك المسيرة تمكيناً في الأرض، ونفياً للخبث، سمة مميزة من سمات هذا الدين في معالجته لشؤون الحياة.

فكل طاقة يجب أن توضع موضعها، وأن توظف على طريق مأمونة تنتج وتثمر، ولست هنا بسبيل التوسع والإكثار من ضرب الأمثلة، ولكني أكتفي بمثال واحد، هو الحفاظ على مال اليتيم وعدم التعرض إليه بأي نوع من الأذى: ذلك لأن اليتيم صاحب حق، وإذا فقد من يعوله: فالمجتمع المسلم لا يجوز أن يضيع فيه من كان لا عائل له، ولذلك كفل الإسلام تلك الصيانة وذلك الحفظ.

ذلكم قوله تعالى:

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ [الأنعام:١٥٢] ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴿١٠﴾﴾[النساء:١٠].

وما أحسب أن تهديداً يهز المؤمن من أعماقه أكثر من هذا التهديد، فبجانب القضاء وما تصنعه السلطة التنفيذية: على المؤمن أن يخاف غضب ربه حين يعتدي على مال اليتيم، فيكون ما أكله سياطاً يقوده إلى جهنم، وناراً يُملأ بها بطنه في الجحيم والعياذ بالله.

ومال اليتيم مهما كان شأنه: جزء من البنية الاقتصادية في المجتمع، فإهدارها والعدوان عليها، هو من بعض وجوهه اعتداء ومظلمة ومن الوجه الآخر تبديد لتلك الطاقة يُسهم ـ لو تفشى ـ في إيذاء المجتمع ويكون ذلك واحداً من عوامل العدوان على التنمية، والتي إن أخذت طريقها الطبيعي جاءت على الجماعة كلها بالخير.

وحفظ هذا المال لصاحبه: مدعاة لأن يتحرك اليتيم في المجتمع ويسهم بما استشعر من ذاتية وكرامة في البناء والتغيير إلى ما هو الأفضل؛ لأن اليتيم لم يقعد به عن ذلك.

يقول الله تعالى:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴿١﴾ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴿٢﴾﴾ [النساء:١-٢].

وعدَّ رسول الله ﷺ أكل مال اليتيم واحدة من الكبائر عندما قال فيما رواه البخاري ومسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

وأكثر من هذا: لقد دعت السُّنة في ظل المعلم القرآني المشار إليه إلى الحرص على تنمية مال اليتيم ـ هو جزء من طاقة المجتمع ـ حيث جاء الأمر بأن يحرك في العمل ويستثمر لكيلا تأكله الزكاة، فإذا جمد ورفعت منه زكاته كلَّ عام انتهى ودخل على اليتيم الأذى وهددته الفاقة، وأضرَّ ذلك اقتصادياً بالمجتمع. ولكن إذا حرك واستثمر في الطرق المشروعة.. أفاد اليتيم وأسلم ماله في التنمية العامة، ولعل ذلك بعض ما يدل عليه قوله تعالى:

﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح﴾ [البقرة:٢٢٠] إنه دين الله وسنة نبيه العظيم في نظرة شاملة تمتد معها يدا الإصلاح والإفادة من كل القوى.

روى الترمذي بسندٍ للعلماء كلام في واحد من رجاله، عن عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ خطب الناس فقال: «الا من ولي يتيماً له مال فليتّجر فيه، ولا يتركْه حتى تأكله الصدقة» ذلك في باب ما جاء في زكاة مال اليتيم من كتاب الزكاة في (الجامع الصحيح).

وروى مالك في «الموطأ» عن عمربن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «اتّجروا في أموال اليتامى لا تأكلُها الزكاة» وذلك في باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها.



البناء
والتعاون على البر والتقوى

ليس أمراً ثانوياً في حياة المجتمعات أن يقود التعاملَ، مع التنظيم المادي، إحساس عند الفرد بضرورة التعاون مع أخيه على أسس تتجاوز الرغبات المادية البحتة، ولقد كانت تجاربَ مريرة تلك التي خاضتها مجتمعات معاصرة وما تزال، في ظل الحضارة الحديثة البعيدة عن روح الأخوة والعقيدة التي تربط بين قلوب الأفراد، نعم كانت تجارب مريرة، لأن الآلية سيطرت على العلاقة بين الناس، وأصبحت المادة هي المقياس في إمكان التعاون أو عدمه، حيث بت تفتش عن أي أثر للروح الإنسانية بين بني الإنسان فلا تكاد تجدها عند هذه النماذج من الناس...

والقرآن الكريم فيما حمل إلينا من روح الهداية في كل ميدان، وفيما رسم لنا من معالم شملت أمور الدنيا والآخرة، حضَّ على التعاون في كثير من آياته، كما في قوله سبحانه: ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ [المائدة:٢] وذكَّر بالأخوَّة الإيمانية، ودعا إلى الإحسان والتسامح والصدق، بل إلى كل الأخلاق التي تشكل ضمانة أيَّ ضمانة لسلامة المجتمع وحسن علاقة الأفراد بعضهم ببعض، كما في قوله تعالى:

﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة:٢٨٠] وهذا ـ بجانب التنظيم في المجتمع ـ مدعاة للاستقرار ولقدر كبير من الطمأنينة، ناهيك عن الأجر عند الله.

والبلاد الإسلامية ـ والأمة على أبواب يقظة منشودة ـ يفترض أن تفيد من كل المراحل التي وصل إليها العلم في بنائها الاقتصادي، واستثمار ثرواتها، ووضع إمكاناتها ـ على اختلاف ألوانها ـ موضعها الطبيعي كي تنتج وتثمر ضمن خطط

تولي الطاقة البشرية والمادية والوقت والمناخ وما قد يجدُّ من ظروف: اهتماماً منهجياً لا تتبعثر معه الأمور هنا وهناك.. ولكن شيئاً على غاية الأهمية لا بد أن يكون في الحسبان، هو تلك الحراسة الداخلية، ومشاعر الأخوة وسلطان الأخلاق عند الفرد حين يتعامل مع أخيه في المجتمع، وحين يناط به تنفيذ خطة رسمها من ولاهم الله أمور الناس، تحقيقاً للمصلحة التي نحن بصدد الحديث عنها، الأمر الذي يهيئ الإفادة من كل الجهود، والتعاون الجماعي على الخير، ويحول دون الجشع المؤذي، والطمع المهلك الذي قد يوقع المرء في غضب الله، وفقدان ثقة الخلق...

ولقد أخذ هذا المعلم القرآني أبعاده في منهج رسول الله ﷺ في البناء، فقد حرص على بناء المجتمع المسلم في المدينة بناء متكاملاً، فيه المسجد والجيش ووثيقة التعامل بين المواطنين (مسلمين وغيرهم)، وإنشاء سوق للمسلمين خاصٌ بهم يمنع سلطان يهود الاقتصاديَّ على المدينة، وإعلان التآخي بين المهاجرين والأنصار.. إذ رأيناه يولي التعاون بين المؤمنين - ذاكرين أخوتهم على صعيد التعامل، وما أمر الله به من الإحسان والصدق والتسامح - قدراً كبيراً من الاهتمام، من ذلك ما روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، وإذا اقتضى» وعند البخاري ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ: «أُتيَ الله عز وجل بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: (ولا يكتمون الله حديثاً) قال: يا رب آتيتني مالاً فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أتيسر على الموسر، وانظر المعسر، فقال الله عز وجل: أنا أحق به منك، تجاوزوا عن عبدي».

ولقد كان المسلمون عند إرشاد النبي ﷺ في هذا المضمار، الأمر الذي ساعد على طمأنينة الفرد، واستقرار المجتمع، وقدرته على حمل أعباء الرسالة الجديدة في مواجهة المشركين واليهود والمنافقين، وهي مواجهة تتطلب الكثير من الإعداد المعنوي والمادي.

وحري بنا، وقد كثرت التجارب من حولنا، وثقلت الأعباء، أن ننظر عند النهج والتخطيط نظرة متكاملة، تعطي للعلم مكانه، ولا تهمل ضرورة اندفاع الفرد من داخل نفسه ليتعاون بثقة مع أخيه، ويخلص في بناء مجتمعه وتنمية قدراته.

إننا إن فعلنا ذلك كنّا على الجادة في ترجمة الحقائق التي في الأخذ بها خير الفرد والجماعة، إلى حركة ملموسة في دنيا الواقع والتطبيق، والله الهادي إلى سواء السبيل.



البناء.. وأكل أموال الناس بالباطل

من الهدي القرآني في صيانة المجتمع عن الأذى، والعمل على تماسك أفراده المؤمنين كيما يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، أنه حرم ـ على صعيد التعامل ـ أن يأكل الناس بعضُهم أموال بعض بالباطل، فالبعد عن ذلك أدعى أولاً إلى صفاء النفوس ودوام المحبة والتضامن والتعاون، وأدعى ثانياً إلى سلامة كيان المجتمع الاقتصادي، حيث يكون الفرد أميناً على ماله الحلال وجهده المبذول في كسبه، وعلى عدم تعرضه لضياع حقوقه بطريقة أو بأخرى، الأمر الذي يبعث الطمأنينة ويساعد على النماء وتلاقي الطاقات الاقتصادية القدرات المالية على ما فيه خير الجماعة والسير بالمجتمع إلى ما هو الأفضل...

ذلكم قول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨].

فهذا نهي للمؤمنين عن أن يأكل بعضهم مال بعض بالباطل، وفاعله مرتكب للحرام لأن النهي يفيد التحريم، وفي قوله: (أموالكم) إشارة واضحة إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع من التكافل والتضامن: إذ جعل الله ـ كما يُلاحظ ـ الأموال أموال الجميع.

فعندما يأكل الأخ مال أخيه ابتداء ـ فكأنه فعل ذلك بماله، وأكل المال بالباطل يشمل كل ما جاء الشرع بتحريمه، كالربا والرشوة، والغصب والسرقة، والاحتيال، وكل ما يكون من العقود المخالفة لما شرع الله، وكل ما يأتي من طريق غير مشروعة تضيع معها حقوق الآخرين.

وهذه من الإسلام ـ في مواجهة المذاهب الاقتصادية الأخرى ـ هي الركيزة الأولى في كسب المال: إذ إن الإسلام تجنب سيئات تلك المذاهب عندما شرع حرية التملك، وحدد الحرام والحلال، وقضى بأن المال الحلال هو الذي يأتي من طريق مشروعة، وحرم أكل أموال الناس بالباطل، فكل ما ينطبق عليه أنه من أكل أموال الناس بالباطل فهو حرام، وإنه لسحت يصدق عليه ما روى أحمد وابن حبان وغيرهما من قول الرسول ﷺ: «لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت النار أولى به»: وقد كشفت الآية عن سوء صنيع كثير من الناس عندما يجعلون الأمور إلى الحكام لعلهم يصلون إلى أكل فريق من أموال الناس بالإثم، وأن ما يأخذونه حرام وسحت...

وفي سورة النساء، نقرأ قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء:٢٩].

فمع النهي هنا عما نهت عنه الآية السابقة: نجد هذا الاستثناء المنقطع، لكن أن تكون الأموال أموال تجارة وتبادل صحيح صادر عن تراضٍ منكم، فهذا طريق مشروع.

وإنما ذكر التجارة مع تعدد أنواع التعامل لأنها من أبرز تلك الأنواع بين الناس.

وتأكيداً للنظرة الموحية بوجوب التكافل والتعاون في المجتمع المسلم، نهى الله عن ارتكاب ما يؤدي إلى هلاك النفوس في الدنيا والآخرة، إذ قال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء:٢٩] ومما يكون طريقاً للدمار والهلاك: أن يسود الأفرادَ والجماعات ألوان من التعامل لا ترضى عنها شريعة الله، وختمت الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾.

فمن رحمته تعالى: منع المسلمين من الوقوع في الحرام وكل ما يؤدي إليه: فنهيُ الله عباده عن أن يأكل بعضهم أموال بعض: واحد من مظاهر رحمته بهؤلاء العباد: فليتق الله كل مسلم في نفسه وأهله ومجتمعه، وليكن ما دلت عليه الآيتان معلماً يقوي بنية الخير، ويدفع غوائل التخلخل والانهيار.



المجتمع الصالح... والبناء

من المسلّمات عند العلماء أن بناء المجتمع الصالح القوي، لا بد له من أسس ثابتة يقوم عليها، ونحن أمةَ الإسلام، نفاخر الدنيا بأنه لم يكن المجتمع الذي بناه المنهج القرآني على يد محمد صلى الله عليه وأصحابه، مجتمع الكلمة تذهب مع الريح، ولا النظريات الجوفاء التي تستعصي على دخول ميدان الحياة والتطبيق، ولكنه المجتمع الذي قام عملياً وأخذ أبعاده في ميادين الحياة جميعها بلا استثناء، وما ذلك إلا لسلامة الأسس التي قام عليها، حيث العقيدة المتلائمة مع الفطرة، وإحلال العلم مكانه اللائق، وإعطاء العقل فسحة العمل، وتقدير العمل والعاملين، والحفاظ على الوقت والمال، ناهيك عن بناء الوازع الداخلي وتكريم الإنسان الذي هو الطاقة الأولى في البناء والتنمية والوصول ـ بإذن الله ـ إلى ما ندعوه بالحياة الأفضل.

والذين صدقوا في بناء المجتمع الإسلامي، وأعطوه من أنفسهم وأموالهم ووقتهم وعلمهم: هم المؤمنون الذين استمسكوا بالمنهج الفكري الذي يحرك المجتمع ولم يبخلوا بالالتزام، والوقوف عند حدود الشريعة التي تحكم هذا المجتمع، والأخلاق التي أراد الإسلام أن تكون الرباط السلوكي بين أفراده، حتى بات الفرد حارساً أميناً للجماعة والمجتمع، فللفرد مكانته وللجماعة مكانتها، والكل يتعاون في إطار الإسلام، ويحتكم إليه في كل صغيرة وكبيرة.

أما عناصر الهدم والتخريب في كيان المجتمع: فهم المنافقون، الذين آمنوا ثم كفروا، والذين يظهرون غير ما يبطنون، يبتسمون وسم الأفاعي وراء تلك البسمات.. ولئن كانت سمة المؤمنين أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر صيانة للمجتمع من كل ما يؤذيه، أو ينال من كيانه، إن سمة المنافقين على النقيض، أمر بالمنكر ونهي عن المعروف وشح مطاع، وذلكم هو الخراب بعينه، والسير بالمجتمع إلى التردي والدمار.

وإذا كان المعروف ما ارتضاه الشرع والعقل، ولا تخالف بين العقل السليم وبين الشرع، وإذا كان المنكر ما أنكره الشرع والعقل: فإن المؤمنين والمؤمنات كما تمليه هذه الحقيقة هم البناة الغيورون على الفرد والجماعة، وإن المنافقين والمنافقات هم الذين ينخرون في جسم الأمة، والمضارون للفرد والمجتمع، وفي سورة التوبة تحديد لهذه المعالم، وكشف عن سلوك كل من المؤمنين والمنافقين على هذه الساحة، حيث يقول الله تعالى في شأن الطائفة الأولى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

أما عن أهل النفاق، فيقول جل وعلا: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧].

إن الحرص على بناء المجتمع الأفضل يقتضينا مزيداً من الحرص على بناء الإنسان المؤمن، وأن يأخذ المؤمنون والمؤمنات مكانهم الطبيعي حركة ودأباً في كل ميدان على النهج الرباني الذي ضمن لهذه الأمة ـ إن هي فعلت ـ سعادة الدنيا والآخرة.



وترجون من الله ما لا يرجون

كلما تقلب الليل والنهار وازدحمت على طريق الزمن الوقائع، وتضاعفت مسؤولية المواجهة على هذه الأمة، ازداد يقين المؤمن بعظمة رسالة الإسلام، وبأن القرآن ـ وهو يهدي للتي هي أقوم ـ هو كلام الله، وحاشا أن يكون من كلام البشر.

فعلى صعيد ثقل الوقائع، وتلون المفاجآت، ومضاعفة المسؤوليات، تجد في القرآن الكريم ما يأخذ بيدك إلى سلامة المنطلق، وتحديد المسار، بما يحول دون التشتت والعجز عن اتخاذ المواقف في الساعات الحرجة، التي لا بد فيها من موقف لا ينبو عن الرسالة ولا يهمل معطيات الواقع.

إنك تقرأ في سورة آل عمران ضمن آيات تتعلق بمعركة أحد قوله تعالى خطاباً للفئة المؤمنة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١].

هذه الأمة صاحبة رسالة، وحين يمكّن الله لها في الأرض، ويستخلفها فيها، تُحسن الإفادة في التمكين، وتقوم بحق الاستخلاف، وإنها مهمة عظيمة لا بد أن يصحبها دائماً استقرار نفسي، وطمأنينة تقضي على الفوضى والقلق: وقد تكفل بذلك كله العقيدة واليقين بما عند الله. وإذا كان الأمر كذلك: فلا تضعفوا أيها المؤمنون، ولا تحزنوا لما وقع في أحد، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين! فصدق الإيمان يولّد منزلة أن المؤمنين هم الأعلون: وانظر أخي القارئ إلى ما جاء في الآيات بعد هذا: إنه تقرير لسنة إلهية أن من خاض معارك الحياة، لا بد أن يصيبه من أذاها وقرحها، لا فرق بين مؤمن وكافر، فعلى المؤمنين أن يخوضوا معارك الحياة وعلى

راسها معركة الصراع بين الحق والباطل، ذاكرين هذه السنة الإلهية، أن كونهم مؤمنين لا يعفيهم من ضريبة المعركة، ولهم عند الله الخير الكثير ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴿١٤٠﴾ ﴾ اصبتم في أحد، وأصيبوا في بدر، والأيام دول والحرب سجال ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ ومن مات مات شهيداً، ومن عاش عاش سعيداً وفي الابتلاء تمحيص للذين آمنوا ومحق للكافرين.

نعم إنها سنة إلهية لا تتخلف، وعلى أمتنا اليوم أن تكون على ذُكر منها، فتعدّ لكل أمر عدته، ولقد أعطاها الله الطاقة البشرية، والموقع الاستراتيجي، والإمكانات الاقتصادية العظيمة، بجانب رسالة تحمي الحق، وتكرم الإنسان، وتعلي من شأن العلم والعمل، ولا تدع أن تحرس الأعمال كلها بالعقيدة والخلق، الأمر الذي أعطى لحضارتها في التاريخ سمواً لم يعرف عند غيرها، وعلى هذا كان لزاماً عليها، وقد أعطاها الله كل هذه المقومات، أن تحسن استخدام ما أعطاها الله وتوظفه على خير وجه في خوضها معارك الحياة، مستعينة بالعلم وسلامة التخطيط والنهج، وأمامها في هذه الأيام من قسوة الامتحان ما يكشف عن الصدق وصحة الادعاء:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات اصحابها ادعياء

وإذا تساوت مع غيرها في سنة لا تتخلف: إنه لا بد في المعركة من الفارق بين أهل الإيمان الذين يقاتلون لنُصْرة الحق وأهل الكفر الذين يقاتلون لنصرة الباطل وذلك ما نراه في سورة النساء من قوله تعالى: ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء:١٠٤].

أجل إنهم يألمون كما نألم، ولكننا نرجو من الله ما لا يرجون، فشتان بين من يعمل لله، ومن يعمل للطاغوت.

إنها دعوة الجهاد والعمل والبناء، وسنة الله ماضية، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

٭ ٭ ٭

لتكونوا شهداء على الناس

ما أعجب ما يقع المرء في كتاب الله الكريم على نصوص تدل ـ فيما تدل عليه ـ أن أمة القرآن التي أسعدها الله بحمل رسالته، لا بد أن يكون لها الوجود الذاتي المتميز في فكرها وسلوكها لتكون لها في الحياة، وجهتها النابعة من ذاتها وأصالتها، المتسقةُ مع الدين الذي ارتضاه الله لها، فأتم به النعمة، وخولها به مكان القيادة في العالمين، فلا تخلف ولا قعود، ولا استخذاء إلى مؤخرة الركب، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وهذا كلام لم يخصَّ الله به أحداً من خلقه سوى المسلمين، وكم في هذا الخطاب الرباني ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ من معان ليس أقلّها الحبُّ والعناية، وإن كنت تشم رائحة التكليف بالواجب بناءً على هذا العطاء الكبير كيما تؤدي الأمة رسالتها البانية، وتفيد من تسخير الكون للإنسان فتضع أمور الدنيا والآخرة كلاً في موضعه الطبيعي، وهي في مرتبة الشهادة على العالمين.

ولقد أراد الله لهذه الأمة أن تكون وسطاً عدلاً في كل شيء، فلا إفراط ولا تفريط، كما نطق القرآن وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا غلو كغلو النصارى، ولا تقصير كتقصير اليهود، ونظرة فاحصة إلى النظم والتشريعات الوضعية، والمذاهب الاقتصادية، ومناهج السلوك عند الآخرين، تحمل المنصفَ الواعي لما يقرأ ويقول: على اعتقاد هذه الوسطية في الأمة، ودائماً الجادة هي الوسط، فالدنيا والآخرة والمادة والروح والعبادة والعمل، كل ذلك ضمن قيم ومقاييس، وإن ذلك لعنوان عريض يحمل بين ثناياه كل المقومات والخصائص التي ميز الله بها هذه الأمة المحمدية، ورشحتها تلك الخصائص والمقومات للشهادة على الناس.

ويا للفضيلة التي لا تكاد تتناهى، رفع الله أمةَ القرآن إلى حيز أن تشهد للرسل بالتبليغ على الأمم من أدركت ومن لم تدرك، وهذه الشهادة ليست بالأمر القليل فعلاً، لأنها ائتمان على الحكم في تبليغ الرسل عليهم السلام وفي استجابة تلك الأمة المشهود عليها وعدم استجابتها لدعوة الحق، في مقدار قربها أو بعدها عن رسالة الله. إن أمتنا على هذا الصعيد تمسك بعاتق الميزان. وإنما خولت هذه الشهادة على الناس بما يتوافر لديها من علم حمله إليها الخبر الصادق الذي جاء في القرآن. أو على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد قص علينا القرآن الكريم أخبار الماضين وذكر من أحوالهم مع رسلهم الكثير، وبيَّنَ رَسول الله كل ما يجب بيانه في هذا المجال.

وهنا جاءت أحقية الشهادة وصدقها، روى البخاري وأحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : **«يجيء نوح وامته فيقول الله: هل بلغت؟ فيقول: نعم اي رب، فيقول لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وامته فتشهد انه قد بلّغ»** وهو قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

لقد طال انتظار أمتنا بعد كبوتها، لجيل ينفض عن كواهلها غبار الدعة والتخلف عن ركب الإسلام العظيم، ويعيدها إلى موقعها من الوسطية وأهلية الشهادة في كل عصر. مهما حاول الأعداء أن يلبسوها من الأثواب والعناوين. وبرهان الصدق توجُّهٌ صوب هذا النور الهادي من القرآن وبناء الحياة في ضوء منهجه الرباني، منهجٍ لاعتدال دون إفراط ولا تفريط.

ويومئذ تجد الإنسانية نفسها بعد ضياع وتطمئن بعد قلق.

إن المنهج الرباني نظر إلى الإنسان وإلى الكون، وإلى الحياة، نظرة متكاملة متوازنة وضعت كل أمر في موضعه الطبيعي، وتكلم مقومات البناء الأمثل للفرد والجماعة وإنجاز ما به إعطاء الأهمية لما يراد أن تكون عليه بُنى المجتمع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، في تكامل يتسق تمام الاتساق مع خصائص أمة الإسلام ومنها خاصية الشهادة على الناس.

ويكون الرسول عليكم شهيداً

أوجزنا القول ـ فيما سبق ـ في شهادة أمتنا على الناس في ظل قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾. [البقرة:١٤٣].

ونحن على موعد الآن في كلمات تتعلق بشهادة الرسول عليه الصلاة والسلام على الأمة، إنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ـ يشهد على الاستجابة وعدمها، يشهد على مقدار الالتزام بمضمون الرسالة التي دعا إليها الناس. وما دام الأمر كذلك: فعلى الأمة التي أولاها الله كرامة الشهادة على الناس، أن تكون حريصة على سلامة الاتجاه والاستقامة على طريق الإسلام في البناء المتكامل بشتى ألوانه ومجالاته لتحظى يوم القيامة بشهادة من رسول الله ﷺ تضمن لها حسن العاقبة. كما حازت بذلك الخير والقوة في هذه الدار.

إن النص على كون رسول الله ﷺ يشهد على الأمة يوم القيامة، جدير أن يوقظ الغافلين ويرد الجانحين، كيما تكون الأمة في حياتها على كل صعيد مع كتاب ربها وسنة نبيها، تنظر إلى يومها ولا تهمل غدها في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وشهادة رسول الله ﷺ جاء ذكرها في أكثرَ من موطن من كتاب الله، فمع هذه الآية من سورة البقرة، نقرأ في سورة النساء قوله تعالى خطاباً لرسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴿٤١﴾﴾[النساء:٤١].

وهو أمر يدعو ــ كما أسلفت ــ إلى الكثير من اليقظة والحذر والبعد عن المثبطات والمعوقات، وعلى من ولأهم الله أمر هذه الأمة، أن يولوا هذا المعلم القرآني كبير اهتمامهم، فيزيحوا من طريق الأجيال كل ما يعوقها عن أن تكون على الوضع الأمثل حين يشهد عليها رسول الله، وأن يحسنوا تربيتها على معاني الإسلام التي تجعلها جديرة بهذا الذي تمليه الآيات.

ولقد يزداد الأمر وضوحاً إذا كنا على ذُكر من حرص رسول الله على الهداية وما صبر وصابر وما تحمل من صنوف الأذى، وما جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فليس بدعاً أن تكون له هذه الشهادة على الأمة فيما كان من إقبال أو إعراض، من جهاد أو تقاعس، من استمساك أو تهاون.

ورسول الله ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ كان بقلبه الكبير على تمام التصور لمدلول شهادته على أمته، فكان يخاف عليها مستذكراً درجات من يشهد عليهم، متخوفاً على أولئك الجانحين من سوء العاقبة، بل تخوفه على الأمة من الجنوح عن الحق لأن فيه سوء العاقبة، جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن»، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب ان أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا...﴾ قال: «حسبك الآن»: فالتفتُ فإذا عيناه تذرفان..

هل لي أن أترك القارئ الكريم لقلبه وعقله مع هذه الواقعة يتدبر دلالتها العظيمة؟!



أيكم أحسن عملا

نحن المسلمين نذكر ـ ولا ريب ـ قول الله تعالى في سورة البقرة:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]

وقوله جل شانه في سورة إبراهيم:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم :٣٢-٣٣].

إن هذه الآيات وامثالها، تدل في وجهها الأول، على أن الله تبارك وتعالى هو خالق السماوات والأرض وما فيهن، وهو الذي سخر للإنسان الكون: برَّه وبحرَه وجوَّه وكل ما فيه، وكم في كلمة «لكم» وتكرارها العذب الجميل، من تأكيد لهذا المعنى وتعميق له في النفوس.

وتدل في وجهها الآخر على واحد من المعالم القرآنية في الدعوة إلى أن يعيَ الإنسان ما حوله ويدرك حقيقة نسبته من الكون والحياة، فيمارس نعم الله في تسخير الكون على الوجه الذي تصلح فيه أسباب الحياة، وتنمو على دروب الخير، وعندها تلد النعمة النعمة، وتنصب ثمرات التفاعل بين الإنسان والكون المسخر له في بحر الحياة على الوضع الذي يرضي الخالق العظيم سبحانه.

وإذا سَلِمَ للإنسان ذلك في نفسه وفيما حوله، تحققت العبودية التي أرادها الله بقوله في سورة الذاريات:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات : ٥٦].

وإنها لعبودية مطلوب أن يفسح لها في جميع الميادين؛ لأن الله تعبد من خلقهم وسخر لهم ما سخر، بأن يعرفوا حقَّه عقيدة، وشريعة، وسلوكاً، وإلا كانوا على جفوة للصراط المستقيم.

والمسلم في استجابته لدعوة الحياة، مؤهل لأن يكون الصورة المثلى للإنسان الذي وعى حقيقة التسخير، وما يلزم ذلك من ممارسات إيجابية، عملاً وبناءً وسيراً دائباً في طريق النماء وعمارة الأرض على الوجه المشروع.

والكلمة الحاسمة في هذا الباب نجدها في فواتح سورة الملك: ﴿تبارك الَّذي بيده الْمُلْكُ وهُو علىٰ كُلِّ شيْءٍ قديرٌ ﴿١﴾ الَّذي خلق الْموْت والْحياة ليبْلُوكُمْ أيُّكُمْ أحْسنُ عملاً وهُو الْعزيزُ الْغفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:١-٢].

أجل، خلق بحكمته الموت والحياة ليبلوكم أيها العباد، ما ليختبركم أيكم أحسن عملاً، فهو العمل بعيداً عن القعود والتهاون، وهو إحسان العمل بعيداً عن الجهالة والفوضى.

من أجل هذا: كان الهروب من ساحات البناء والواجب، والعزلة عن المجتمع، رغبة عن تحمل التبعة والجهاد وحباً في الدعة والعافية، أمراً بعيد عن روح الإسلام، خصوصاً من أولئك القادرين على الإسهام في نقل الأمة على الوجه المرضي من حال إلى حال.

فأين من تحقيق رسالة الإسلام بشمولها وتكاملها وما تدعو إليه من إيجابية لا تعرف الانهزام.. أين ذلك من عزلة هي السلبية بعينها، وهروب من تبعات التغيير إلى ما هو الأفضل؟ في وقت تبدو الأمة بل الإنسانية كلها أحوجَ ما تكون إلى الرسالة المحمدية تأسو جراحها، وحضارة الإسلام تعيد إليها إنسانيتها وكرامتها؟!

ولقد كان رسول الله إمام العظماء والمصلحين في بيانه العملي لهذا المعلم القرآني عند تربيته للرجال، ذلك أن رجلاً من أصحابه، كما جاء في الصحيحين، مر بشعب فيه عُيَينة ماء عذبة فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب،

وعندما استاذن في ذلك قال له رسول اللّه ﷺ: «لا تفعل فإن مقام احدكم في سبيل اللّه افضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، الا تحبون ان يغفر اللّه لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل اللّه، من قاتل في سبيل اللّه فواق ناقة وجبت له الجنة» والفواق: ما بين الحلبتين.

هذا من رسول اللّه ﷺ لمن أراد العزلة تفرغاً للعبادة، فما بالك بالانهزامية والسلبية اللتين هما بعيدتان البُعدَ كلَّه عما نُدب إليه المسلم من عمارة الأرض، وإدارة ردفة الحياة، وبنائها ــ بما يحمل ذلك من شمول ــ على خير وجه يرجو المسلمون فيه اللّه واليوم الآخر، ويمهّدون أبداً طريق السعادتين في الدارين لمن يستجيب لدعوة الحق التي جاء بها من عند ربهم المرسلون، وإمامهم وسيدهم نبينا محمدﷺ سيد الخلق أجمعين.



واتبع ما يوحى إليك..

الذين تضعهم الأقدار موضع بناء الأمة وصناعة التاريخ.. لا بد أن يكونوا على مثل الجبال الرواسي في سلامة تصورهم، ثم في استعدادهم للالتزام وسلامة التطبيق للفكرة التي يشاد على أساسها البناء ويصنع من خلالها التاريخ.

أقول هذا الكلام وفي العالم الإسلامي تمخُّض جادٌ وشارات من ضياء هنا وهناك، وتباشيرُ تؤذن ـ على ما يصحبها من شديد الامتلاء ـ بالكثير من الخير إن شاء الله، الأمر الذي جعل أعداء هذه الأمة في الغرب والشرق، يعكفون على دراسة الأحداث ومقدماتها وما يمكن أن يكون لها من نتائج، ويولون لكل تطور أو تغيير إلى الأفضل في واحد من بلاد المسلمين قدراً كبيراً من التحسبات، واستخلاص العبر والدروس التي يفيدون منها في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع..

وإذا كان الأمر كذلك، فإن طبيعة المرحلة تقتضينا أن نذكر بأن الذين تناط بهم الريادة يجدر أن يكونوا كِفاء المرحلة المرتقبة بحلوها ومرها وسائر ما يكون من توقعات، لأن بجانب تلك التباشير نذر سوء أطلقتها وثيقة صلح مشؤومة هي حديث الساعة اليوم، ولا أحد يدري حجم ما يمكن أن تلد من الشر. وإن كان من الممكن أن تكون لو كنا على مستوى التحدي، منعطفاً يسلم إلى فجر جديد بإذن الله.

والمنار الهادي في هذا الذي نلمح إليه رسولنا الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، إذ نرى في الآيات التي تذكره، وهو الأمين المؤتمن، بأن يتبع ما يوحى إليه، دستور القضية كلها، فالرسالة المحمدية بكل أبعادها، كفاؤها أنه يكون من قلّده الله أمانة حملها وتبليغها على الصراط لا يريم، مستمسكاً بالذي أوحي إليه لا يتزحزح، كل أولئك في حالات الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والسلم والحرب، في كل

سواء، وذاك الذي كان والحمد لله... ففي فواتح سورة يونس يقول ربنا جل وعلا: ﴿أكان للناس عجباً أنْ أوحينا إلى رجلٍ منهم أنْ أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنّ هذا لساحرٌ مبينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢].

والدرس الكبير الكبير ما ترى من أن السورة الكريمة ختمت بقوله سبحانه: ﴿واتبعْ ما يوحىٰ إليك واصبرْ حتىٰ يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩] أمر باتباع ما يوحى إليه، والصبر على الدعوة وما يكتنف بناء المجتمع عليها من مصاعب، حتى يحكم الله، ومن أحسن من الله حكماً..

وفي فواتح سورة الأحزاب نقرأ قول الله جل وعز خطاباً لنبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه:

﴿يا أيها النبيُّ اتق الله ولا تُطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليماً حكيماً ﴿١﴾ واتبعْ ما يوحىٰ إليك من ربك إنّ الله كان بما تعملون خبيراً ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: ١-٢].

ومسؤولية اتباع ما يوحى، وهو القرآن الكريم، ذات دلالة أعمق وأوسع في بناء الفرد والجماعة والدولة في خضم الحياة الواسع، وضمن كل الظروف على تباين ألوانها ومعطياتها، ولذلك كان لا بد مع الإدراك كله والالتزام كله: من توكلٍ على الله، فهو المعين على لأواء الطريق، وما تحمل مهمة التغيير هدماً وبناءً، من متاعب ومعوقات، ذلكم قوله تعالى بعد الأمر بالتقوى، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، ثم الأمر باتباع ما يوحى ـ وهو ملاك الأمر كله ـ ﴿وتوكّلْ على الله وكفىٰ بالله وكيلاً﴾ [النساء:٨١]،[الأحزاب:٣] وفي العديد من الآيات نجد ﴿إنْ أتبعُ إلا ما يوحىٰ إليّ قلْ هلْ يستوي الأعمىٰ والبصيرُ﴾ [الأنعام:٥٠] ﴿قلْ إنما أتبعُ ما يوحىٰ إليّ من ربي﴾ [الأعراف:٢٠٣] ﴿إنْ أتبعُ إلا ما يوحىٰ إليّ﴾ [يونس: ١٥].

وليس هذا فحسب، فاليد البانية لا بد أن تتابع الطريق، وأن تصبر فيه على معوقات الرغب والرهب، ومحاولات الفتنة، ففي سورة المائدة:

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ [المائدة: ٤٩]. فإذا كان هذا كلُّه للرسول عليه الصلاة والسلام فما بالك في المطلوب من الأمة؟!

مرة أخرى، ذلكم هو المنار الهادي في حياة الرسول الكريم ﷺ، وعلى من ولاهم الله ريادة الأمة أن يكونوا أكفاء الرحلة الطويلة على هدي ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ زادهم مع العمل: توكلٌ على الله، وكفى بالله وكيلاً.



من شعب الإيمان وتكامل البناء في آية البر

«١»

كان من حكمة الله تعالى وكريم رحمته بعباده، أن جعل الإسلام وحدة متكاملة لا ينفصم جزء منها عن الجزء الآخر. وهذه الوحدة تتمثل في تلك البنية المطلوبة للفرد والجماعة في العقيدة والعمل والسلوك الخلقي. وكانت هذه القضية من الوضوح بحيث لا يتسنى لمنصف أن يقول: الإيمان من الدين، فما شأن الأخلاق مثلاً، الصلاة من الدين فما شأن العلم والبناء. والصبر والوفاء... إلى غير ما هنالك. أما الذين يضعفون عن الاستمساك بالدين في جميع الشؤون، ويحاولون أن يفهموا الدين أجزاء وتفاريق تبعاً لأهوائهم وضعفهم، فأولئك لهم شأن آخر.

فعندما شاء الله تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، حاول اليهود استغلال هذه الواقعة، ليقولوا لبعض المسلمين: هذا محمد كلَّ مرة يدعوكم إلى شيء، يوماً إلى بيت المقدس، ويوماً إلى الكعبة، فما هذا الدين وما هذه العبادة؟ فنزل الوحي على رسولالله يبين ان الأمر بيد الله، وأن الخلق خلقه يوجههم كيف يشاء إلى أي جهة أرادها، والقضية الكبرى أن يكون هنالك إيمان صادق وامتثال لأمر الله تعالى في العادة والعمل والسلوك. ومما نزل في ذلك: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة: ١٧٧].

وإذا علمنا أن البرَّ اسم جامع لكل صنوف الخير، استبانت لنا تلك الوحدة التي أشرنا إليها.

فالآية جاءت على ذكر بعض أركان الإيمان، وبعض أركان الإسلام، وعرّجت على ما به يكون التضامن والتعاون في المجتمع، ثم ذكرت بعض الأخلاق من الوفاء بالعهد، والصبر في السراء والضراء وعند القتال، وبينت بعد ذلك أن العمل بهذه الأمور هو من سمات الصادقين المتقين.

وعندما تنطلق العقول والقلوب، وتتحرك الهمم والعزائم، وتتعاون الأيدي، انطلاقاً من هذا التصور، حدِّث ولا حرج عن أفضل النتائج في التطوير إلى ما هو الأفضل.

إن حسن التصور لهذه الوحدة في الإسلام، كُلاً لا يتجزأ، وإتباع ذلك بالعمل: من خير ما يسهم في سلامة بناء المجتمع على الشكل المرضي، وتنميته على صعيد الإنسان وما تحت يد هذا الإنسان من ثروات وطاقات.

وفي ظل هذه الحقيقة يقول الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة فأعلاها كلمة لا إله إلا الله، وادناها إماطة الأذى عن الطريق» رواه البخاري ومسلم وغيرهما. ارايت أيها المؤمن!! بين كلمة التوحيد وبين إماطة الأذى عن الطريق سلسلة طويلة من الممارسات لشؤون الحياة.. مطلوب أن يأتيها المسلم باستقامة يسلم معها البناء وكل ذلك من الإيمان.



آية البر.. تذكر بنظائرها في البناء «٢»

على الطريق الهادية التي أشرنا فيها إلى واحد من المعالم القرآنية في آية البر من سورة البقرة، نذكر اليوم أن القرآن الكريم دلنا في أكثرَ من موطن على أن أخلاق عباد الرحمن والمؤمنين تشمل في حجمها وأبعادها ساحة من الأعمال والفضائل تتسق مع تلك الوحدة التي رأيناها في آية البر.

فمثلاً: تجد في فواتح سورة: «المؤمنون» مجموعة من محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق يذكرها القرآن على أنها من الصفات اللازمة للمؤمنين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ١-٩].

وهكذا نرى هذا الاقتران والتكامل: خشوع في الصلاة، إعراض عن اللغو، عفة وبعد عن الفاحشة، أداء للأمانة، ورعاية للعهد.. وبياناً لأهمية الصلاة قال مرة اخرى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

وفي سورة الفرقان تجد من صفات عباد الرحمن ما يزيد الأمر وضوحاً في أن الإسلام، كما يبني الحياة بكل أبعادها وساحاتها، يريد للمسلم أن تمتد يده إلى البناء وسلوكُه قائم في وحدة متكاملة لا يتجزأ، سواء في علاقته مع ربه في المسجد، أو علاقته بأهله ومجتمعه، أو انتمائه إلى امته، فعباد الرحمن لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ولا يشهدون الزور،

وتراهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً. ويشتد خوفهم من عذاب الله فيقولون ﴿ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ﴿٦٥﴾ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٥-٦٦].

وهم في الوقت نفسه على غاية الاتزان في التعامل المالي والاقتصادي ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

حتى إذا وصلنا إلى سورة الشورى رأينا من الآيات ما لا يدع عذراً لمعتذر، أو نافذة هروب لمتأول، في أن القرآن بعيد عن دعوى التجزئة والبعثرة، وأن السلوك كل لا يتجزأ في ظل المنهج الرباني الشامل ذلكم قوله تعالى: ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴿٣٦﴾ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴿٣٧﴾ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴿٣٨﴾ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٦-٣٩].

هذه الصفات التي شملت ما شملت فقرنت بين الفردي الاجتماعي من الأخلاق، دليل على أن تحقيق البناء على خصائص مثمرة والتنمية المزدهرة في المجتمع الإسلامي لا بد له من الإنسان الذي يبنى في عقيدته وسلوكه على هذه القاعدة العريضة.



مرة أخرى.. بصائر في تكامل البناء

المعلم القرآني الذي أشرنا إليه في صفحات قريبات حول وحدة الإسلام وتكامله وأبعاده في الحياة، وأن بنية المسلم في عقيدته وعمله وسلوكه، لا بد أن تتسق عند الممارسة على صعيد الإنسان والمجتمع، مع تلك الوحدة تنظيماً وبناءً لكل شأن من شؤون الحياة، وهو ما قرره القرآن الكريم من صفات أهل الإيمان وعباد الرحمن.

هذا المعلم العظيم الذي يعتبر حجر الزاوية في بناء المجتمع، بل والبناء الحضاري عموماً من وجهة النظر الإسلامية، لم يكن نظرية تجريدية زين بها الورق وكفى، أو حفظت في الذاكرة وتبخرت في العمل، لا: بل كانت بإيجابيتها وواقعيتها سمة مميزة للفرد والجماعة، لأن الرسول ﷺ ـ وهو المبين عن الله ـ كان في سلوكه وتربيته للمسلمين يترجم تلك المعالم القرآنية ترجمة عملية إلى دنيا الواقع، ويجعل منها صورة حية تحكم الفرد والجماعة عند كل حركة من حركات البناء، على مدى تلك الرحلة الشاقة في بناء مجتمع إسلامي أمثل على أنقاض مجتمع جاهلي لا يدع في الفوضى والتناقض زيادة لمستزيد.

هذا هو ﷺ وهو يريد للمسلمين القوة والمنَعة في مواجهة أعداء الله، خصوصاً اليهود فيما كان لهم من سلطان اقتصادي عند الأوس والخزرج ومن حولهم قبل الإسلام، يقول في معرض الحث على الغرس والاستنبات والإرشاد إلى هذا الجانب الاقتصادي «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة» رواه مسلم.

وفي رواية له «لا يغرس مسلم غرساً، ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة».

بهذا الأسلوب الحكيم في التعليم والدعوة، يرغّب رسول الله المسلمين في الزرع والغرس بإشعارهم أن الأمر لا يقتصر على الفائدة في الدنيا، ولكنه أمر مثوب ومأجور عند الله. حتى الاعتداء على الزرع أو الغرس هو جناية يؤاخذ عليها الجاني، ولكنه صدقة تكتب لمن زرع وغرس.

وإذا كان الآخرون يدعون دائماً إلى الرفق بالحيوان، فإننا نشكو اليوم ما يعاني المسلمون من عدوان الكفرة على إنسانيتهم ووجودهم، وأقرب مثل لسلسلة المآسي التي لا تنقطع ما يحصل في أوغندا من التصفية الجسدية للقضاء على الإنسان المسلم.. في ممارسات تتقطع لها القلوب ولكن رسولنا، يوم أرسى قواعد البناء وتقدم الركب الحضاري في دنيا الإنسان، اعتبر من تكامل بنية المجتمع أن تمتد الرحمة حتى إلى الحيوان قال ﷺ فيما أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من رواية أبي هريرة رضي‌الله عنه: «**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبُ من العطش مثلَ الذي كان قد بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم امسكه بفيه حتى رقيَ فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له**» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: «**في كل كبد رطبة أجر**».



شريعتنا.. والبناء

لست هنا في هذه العجالة من القول، بسبيل أن أقيم الدليل على أن ديننا الذي ارتضاه الله لعباده وأتم عليهم به النعمة، يحمل المنهاج الشامل المتكامل المتوازن الذي يتسع للعاجلة والآجلة، والمادة والروح والعقل والقلب، فينظم شؤون الدنيا كما يوضح امور الآخرة، وكل شيء عند الحكيم الخبير بمقدار.

ولكني أود أن أتناول القضية من أبسط وجوهها فأدعو بثقة كل أولئك الذين ما يزال في نفوسهم شيء من الغبش حول هذا الموضوع، والذين يسوؤهم أن يكون الأخذ بالشريعة أهم مطلب من مطالب الشعوب الإسلامية، أن يقلبوا صفحات الكتاب العزيز، وهو كلي الشريعة وأصل أصولها، ليجدوا أن هذا الكتاب لم يفرط في شيء، وأن تناوله الحكيم لشؤون الدنيا والآخرة جميعاً يبدو أمراً بدهياً ومقولة لا تحتاج ـ مع الإنصاف المطلوب لسلامة الحكم، والتحرر من الهوى ـ إلى ذاك التّعبَ في إقامة الدليل.

وإذا نظرنا في حديث رسول الله ﷺ كان ذلك خيراً على خير، لما أن السنة هي البيان القولي والعملي للقرآن.

ولننظر على سبيل المثال في سورة البقرة ثاني سورة من سور القرآن، وهي سورة مدنية نزلت كلها بعد الهجرة، كما أنها إحدى الزهراوين ـ البقرة وآل عمران ـ وفيها آيات هي من أواخر ما نزل، كما أن فيها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١] وهي آخر ما نزل من القرآن.

ها نحن نقرأ في أول السورة قوله جل شأنه: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١-٢] ولنفتح القلوب والعقول هنا لكلمة (هدى) بمدلولها الأشمل، ولتخصيص المتقين بالهدى ـ مع أن الهدى للجميع: لأنهم هم

المنتفعون بهذا الهدى ثم يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة: ٣-٥].

ولنقلب الصفحات المباركات مصطحبين دلالة الهدى وصفات المتقين الجوامع لنقع في أواخر السورة على آيتين كريمتين: ـ والمثال لا يقتضي الحصر ـ هما آية الدين والآية التي تليها، وهي ذات الرقم ثلاث وثمانين بعد المائتين. وآية الدّين أو المداينة هي أطول آية في كتاب الله. وفيها مع أختها ـ كما يبدو للقارئ ـ تنظيم لشؤون الدّين وتوثيقه والشهادة والرهن وكل ما هو من ذلك بسبيل. فأنت حين تقرأ هاتين الآيتين بشيء من التدبر والإمعان، تجد نفسك أمام قضايا تنظم علاقة الدائن بالمدين والراهن بالمرتهن. كما تنظم الشهادة والكتابة والتوثيق عموماً. وقد تكون قضائية تنفيذية في بعض وجوهها.

ذلكم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾[البقرة: ٢٨٢] ثم قال جل وعز: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

أعود مرة أخرى إلى التذكير بأن قراءة هذين النصين.. مع التدبر والتجرد عن الرواسب المُستكِنَّة تنشئ بكل يسر قناعة لمن أراد مقنعاً ولكن أين المنصفون؟؟

إن أمتنا مدعوة لأن تكون على غاية اليقظة عند بناء مجتمع العقيدة التي عنوانها الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وعندها ما ليس عند غيرها من عوامل الإحكام في البناء وخصائص التنمية البشرية والمادية عندما تنهل من معينها الصافي في عقيدة حقة وشريعة منورة بتلك العقيدة، ولاعليها أن تفيد مما يصل إليه العقل ـ وهذا حقها ـ مما لا يتعارض مع ذلك المنهل العذب، علماً بأن أحكام العقل السليم المتحرر من سلطان الهوى لا تتعارض أبداً مع كلام الله خالق العقل والمنعم به على الإنسان والحمد لله أولاً وآخراً على نعمة الإسلام.

أرأيت إلى العناية بالإنسان وحقوقه المالية وغيرها، وتنظيم هذه الحقوق في كتاب الله تعالى، تنظيماً يضمن لكل ذي حق حقه، كما يضمن سلامة العلاقة بين الإنسان في المجتمع الإسلامي وأخيه الإنسان، بحيث يكون للتعاون على البر والتقوى سلطانه على الجميع.

وهكذا يتلو التالي هذا الكلام الإلهي الحكيم وله ـ كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام ـ بكل حرف عشر حسنات، والحسنة بعشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء، ويقرأ ذلك المصلي في محرابه، والعالم في مسجده ومدرسته وجامعته، والطالب على مقعد الدرس وهكذا.

نصوص تنظم العلاقاتِ الماليةَ وغيرَها بين الناس، ويؤجر التالي لهذه النصوص ـ على مجرد التلاوة ـ بكل حرف عشر حسنات: فما بالك إذا صحب التلاوةَ التدبرُ والعمل.

ترى أيُّ أثر باعث على الالتزام وتقديس الكلمة الربانية وإنشاء الحراسة للأحكام من داخل النفس قبل السلطة التنفيذية ـ أن لو تحرك الباعث القلبي ـ على صعيد الإحكام لبنية المجتمع والحيلولة دون الضعف والتخلخل؟

ومما تجدر الإشارة إليه بناءً على ذلك: أن الفارق بين هذا التنظيم في نصوص الكتاب العزيز وبيانه من السنة النبوية المطهرة: أن التشريع هنا يقوم على العقيدة مباشرة، بينما تقوم السنة بدور البيان والتفصيل، وقد يكون فيها تخصيص للعام وتقييد للمطلق إلى غير ذلك: فترى هنا الخطاب النديَّ المثقل بالدعوة إلى البر بقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا﴾ إيذاناً بأن على المؤمن أن يلتزم بالحكم بوصفه مؤمناً: فمن التناقض بمكان أن يؤمن بمنزل الشريعة، ويتعدى حدودها، فلا يعمل بأحكامها ولا يلقي لذلك بالاً.

وختمت آية المداينة بقوله تعالى: ﴿واتَّقُوا اللَّه ويُعلِّمُكُمُ اللَّهُ واللَّهُ بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ﴾ أرأيت إلى هذه الومضة من ومضات الإعجاز: اتقوا الله، اتقوا غضب الله وعقابه بالعمل بما أمركم واجتناب ما نهاكم، وهو سبحانه العليم بما يصلحكم وما فيه خيركم في الدنيا والآخرة فهو يعلمكم ويشرع لكم ما فيه مصلحتكم على وجه الحقيقة، وهو سبحانه بكل شيء عليم ومن ذلك علمه بما يصلح شأن عباده، وعلمه بمن يمتثل ومن لا يمتثل.

وختمت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿واللَّهُ بما تعْملُون عليمٌ﴾ إيقاظاً للوازع الإيماني في النفوس، كيما تكون في أعماق المكلف ـ ذكراً كان أو أنثى ـ حراسة للتشريع الذي يحكم تصرفاته، إذ يرى بعدها: أن وجوده الذاتي مرتبط بالعمل بأحكام الشريعة التي قامت على تلك العقيدة الإيمانية الخالصة.



فإذا قضيت الصلاة...

عندما نواجه آياتِ القرآن وأحاديثَ الرسول ﷺ مواجهة تتسم بالتجرد وطلب الهداية دون مقررات سابقة ومعوقات تصرف الناس عن الهدى، نجد أن ما أنزل الله على نبيه، وما بيّن نبيه صلوات الله وسلامه عليه لهذا المنزَل، هو الخير كل الخير للفرد والجماعة في الدين والدنيا، وهو الرحمة كل الرحمة في عاجل الأمر وآجله. كما أنه ـ بحق ـ دواء الأمة لكل أدوائها. وذلكم هو الشفاء والرحمة بلا ريب ﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيدُ الظالمين إلاّ خسارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

لهذا كان الذين يواجهون كتاب الله وحديث رسوله بمسلّمات وقناعات تتعارض مع الحق، ولا يريدون بها بدلاً مهما قام على سوئها من الحجج والبراهين.. بل يريدون أن يطوّعوا النصوص لها: هم الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى في شأن كلامه المعجز ﴿ولا يزيدُ الظالمين إلاّ خسارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

خذ قضية الحوافز للبناء والعمل، والتنمية التي يراد لها أن تقوم على العلم وحسن التقدير لتلك الطاقات البشرية والطبيعية، بانضباط يضمن الاستقامة والمتابعة مهما كانت الظروف. فإنك واجد أن في القرآن ما يتسع لها بحكمة بالغة، وربط طبيعي بين العقيدة وبين ما يبنى عليها من أعمال.

فعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ تطالعنا خواتم سورة الجمعة ـ وهي سورة مدنية ـ بقوله جل شأنه:

﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا نُودي للصلاة من يوم الجُمُعة فاسعَوا إلى ذكر الله وذَروا البيع ذلكُم خيرٌ لكُمْ إن كُنتُم تعلمُون ﴿٩﴾ فإذا قُضيت الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكُروا الله كثيرًا لعلَّكُم تُفلحُون ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ٩-١٠].

هنا تؤذن الآية الكريمة بما يفترض ـ في المجتمع المسلم ـ أن الناس يعملون ويكدحون ويكسبون رزقهم، ويسهمون في تنمية مجتمعهم من الناحية الاقتصادية ـ ناهيك عن أن في هذا العمل امتثالاً لأمر الله عز وجل. والبيعُ والشراء من أوضح صور التعامل والكسب.

فإذا نودي للصلاة من يوم الجمعة: كان عليهم أن يلبوا النداء، فينقلبوا إلى المسجد يسمعون ذكر الله المتمثل في هذا اليوم المبارك بالخطبة التي تحمل العظات والتذكير، ويؤدون صلاة الجمعة، تاركين البيع والشراء وما يتعلق بهما مما يشغل عن ذكر الله المقصود في الآية. وهم مبشَّرون بأن ذلك خير لهم في عاجل أمرهم وآجله، مدعوون للعلم بأحقية ذلك إن كانوا حقاً يعلمون.

ولكن ماذا بعد ذلك؟ ماذا بعد أن تقضى الصلاة؟ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ .

إن المؤمنين مأمورون أمراً يبدأ من الإباحة بمتابعة أعمالهم بعد الصلاة، وقد عُبر عن ذلك بالانتشار في الأرض، ليشمل ـ والله أعلم ـ ما هو أكثر من البيع والشراء: وهم يطيعون الله تعالى بالامتثال لهذا الأمر، فيكون كسبهم المشروع وتنمية مواردهم من هذه الطريق طاعة لله وعباده.

وهذا يجوز بنا إلى قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ فالأمة وهي تنطلق من عقيدة التوحيد ـ فالله جل شأنه: هو الخالق، والملكوت ملكوته، والرزق من عطائه وفضله ـ لا بد أن تكون هذه المسلَّمة مصاحبة للعمل عندها ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

هذا الانتقال من طاعة الله بسماع الذكر وصلاة الجمعة، إلى طاعته سبحانه بالانتشار في الأرض طلباً للرزق وصلة الأرحام وما إلى ذلك، لا بد أن يصحبه أن الابتغاء كائن من فضل الله عز وجل نظير قوله تعالى في سورة الملك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥] .

إن ضمان سلامة العمل عند البناء وتنمية طاقات الأمة ومواردها، وضرب الإنسان في آفاق الحياة ـ كما يريد الإسلام ـ إنما يكون على النهج السوي إذا صحبته الاستقامة ومراقبة الله عز وجل. هذه المراقبة التي تعني أن يذكره العاملون والبناة عند كل خطوة، ومع كل حركة جادة وهم يكدحون.

ومن ثمرات ذلك أداء حقوق الله وحقوق العباد على الوجه الذي ينبغي، والدخول إلى الرزق من الباب الحلال، وقل مثل ذلك في الإنفاق وتوظيف المال عموماً. وفي ذلك العلاجُ المجدي لما قد يطرأ من مشكلات، والفلاح كل الفلاح للفرد والجماعة.

ويستوقفك هذا التكامل في المنهج، كما يوحي به قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا انحراف ولا استهتار، ولا عدوان على القيم، ولا تجاوز لحد من حدود الله أو حرمة من حرم المجتمع أو الأفراد. وهذا مقتضى ذكر الله كثيراً باللسان وبالعمل، وذلك واضح من ترتيب الفلاح على هذا الذكر الكثير الذي يطرد الغفلة عن الأقوال والأفعال.

ولقد تبدو هذه القضية ـ كما قد يُتوهم ـ صغيرة لأول وهلة، ولكنها ذات حجم كبير في حياة الفرد الذي يتحرك في كسب المال وعمارة الأرض وهو يستشعر الرسالة وضوابطها، وموضعه من بنية الجماعة التي تنير طريقها هذه الرسالة الربانية لما فيه سعادته للدارين: خصوصاً إذا لاحظنا عموم الخطاب في الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ الآية. الأمر الذي يوجب أن يكون ما ذكرنا هو المنطلق على الصعيد العام فضلاً عن الصعيد الخاص.

ذلك بأن أمتنا تبني ـ في ظل شرعة الإسلام ـ للدنيا والآخرة وتنتظرها دائماً مهمات كبار ليس أقلّها بناءُ حضارة تشرق عليها إنسانية الإسلام.

ومصدر التلقي في ذلك كله واحد. فالذي خاطب المؤمنين بوجوب الصلاة هو الله، والذي أمرهم إذا قضيت الصلاة أن ينتشروا في الأرض ويبتغوا من فضله ويذكروه كثيراً هو الله. وفي ذلك ما فيه من إحكام البناء على قاعدة سليمة، وتنمية

لخيرات المجتمع وأبواب الرزق الذي هو من فضل الله، في تكامل وتناسق تظهر فيهما حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ويا نعم ما تصنع المعالم القرآنية في حياة الأمة، حين تحملها إلى ساحة البناء ـ بأوسع مدلولاته ـ على مركب من امتثال أمر الله والوقوف عند حدوده في كل صغيرة وكبيرة، وفي ذلك ما فيه من الخير العميم والله المستعان.



من غشنا فليس منا

يدور دولاب الزمن، وتنقضي في المجتمع أمور، وتتجدد حاجات، ويظل هذا القرآن الكريم مُعتَصَمَ الأمة في دينها ودنياها وآخرتها، كما أنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

وكان من عظيم حكمة البارئ جل وعلا أن وكل إلى نبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بيانَ هذا الكتاب، فكانت أقواله وأفعاله وتقريراته ترجماناً عملياً لكل تلك المعالم التي رسمها القرآن للأمة.

ومن هذه المعالم التي تتعلق بمال المجتمع واقتصاده، وترتبط أيما ارتباط بسلامة بنائه وتنميته، ذلك المعلم الذي دعا إلى الحفاظ على المال ليوضع موضعه الملائم، ونهى عن أن يأكل الناس بعضُهم أموال بعض، علماً بأن المال في حقيقته مال الله والعباد مستخلفون فيه، وإذا كان الأمر كذلك فعليهم أن يكونوا أمناء على هذا الاستخلاف، ﴿وأنفقوا مما جعلكم مُستخلفين فيه﴾ [الحديد: ٧] وفي شأن الإسهام في تحرير الرقيق بمعاونة من يكاتبون ليتحرروا وقال تعالى:

﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ [النور: ٣٣]

ولقد كان من بيان رسول الله لهذا المعلم القرآني في الحفاظ على المال والنهي عن أكل أموال الناس بالباطل ـ لتستقيم مسيرة الأمة بناءً وتنمية على النهج المستقيم ـ ما نشهد من تحريم الشارع كلَّ الطرق التي تأتي بالمال من طريق غير مشروعة كالغش المادي والفكري، واستغلال المنصب، والتعسف في استعمال السلطة أو الحق، والاحتكار والرشوة والربا وغير ذلك.

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: ـ أصابته السماء ـ أي المطر ـ يا رسول الله، قال: «افلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس!! من غشنا فليس منا» رواه أحمد وأصحاب السنن..

أجل من غشنا فليس منا، قاعدة ينطق بها ويعطيها أبعادها رسول يوحى إليه، وهو المبين عن ربه وله ـ مع أمانة البيان ـ سلطة التنفيذ.

وإذا كان الغش إخفاء الرديء وإظهار الجيد تمويهاً وتضليلاً، فإن ذلك لا يقتصر على واقعة الطعام ـ وهو الحَب هنا ـ التي كانت سبب ورود الحديث، ولكنه ذو أبعاد تمتد إلى كل مجال وكل ميدان لأن لفظ «من غشنا» أو «من غشَّ» عام في كل ما يسمى غشاً، وفي كل من يسمى غاشاً والله أعلم.

فانظر أي زجر زجره عليه الصلاة والسلام لأولئك الذين يحلو لهم التمويه وكسب المال من غير حِلّه سواء في البيع والشراء أو في غيرهما، حين يجعل الغش سبباً لطرد الغاش من كيان الأمة بقوله: «ليس منا» وحسب المرء خزياً وعاراً وسوء عاقبة عند الله أن يكون غاشاً لنفسه ولأمته.

وما من ريب في أن من الأمراض الفتاكة التي تنخر في جسم الأمة، وتعرقل مسيرتها في البناء والتنمية الغش، لما يحدث من ضرر للفرد والجماعة، وكم له اليوم من أبواب وشعب ومنعطفات.

ثم إن الكفاءة العلمية التقنية ضرورة لا بد منها على صعيد البناء والتنمية، ولكنها وحدها لا تكفي بل قد تكون إذا خلا القلب من العقيدة، وانهزم الخلق: سلاحاً فتاكاً يسيء ولا يحسن، بل يهدم ولا يبني.

فمن كان صادق النسبة إلى هذه الأمة: فليقف على مورد النصح لها في توفير الإمكانات، واستثمار الموارد على طريق التنمية ـ والدين النصيحة ـ ونحن أمة: يعوزها اليوم الكثير من الوقت، والكثير من الحيطة في الإفادة من العلم التقني،

لتكون مواردنا وخيراتنا في خدمة وجودنا الاقتصادي والثقافي. فلتتعاون أيدي الأمناء على تحقيق هذه الأغراض في ضوء معالم القرآن، وبيانه من حديث رسول الله. وليكن ذلك عيناً ساهرة لا تغفل عن تلك الحقيقة التي حملها قوله ﷺ: «من غشنا...» نعم ليس من الأمة من غشها في ميدان من ميادين وجودها، ولا هي منه في قليل ولا كثير.

بل ليس من الأمة من كان ديدنه الغش ـ عموماً ـ فالمسلم لا يغش، وهذا صريح في رواية لمسلم في قول ﷺ: «من غشَّ فليس مني»، كما هو صريح في رواية لأبي داود والترمذي وابن ماجه «ليس منَّا من غشَّ» إنه خلق ديني أولاً، وحضاري ثانياً: أن المسلم بوصفه الإنسان الحضاري الحق: ليس من خُلقِه الغش لأحد، ولأمته بالأولى.



الفصل الثامن

أمتنا وأعداء الحق والإنسان



حتى تتبع ملتهم...

في واحدة من صور الهداية في القرآن الكريم: ما نجده من القواعد التي تتسم بالجزم والحزم واليقين فيما يتعلق ببنية المجتمع وسلامة كيانه وضمان استمراره معافىً من الأذى، بعيداً عن عوامل الانهيار: من ذلك ما جاء في شأن العلاقة باليهود والنصارى من قوله تعالى: ﴿ولن ترضىٰ عنك اليهودُ ولا النصارىٰ حتىٰ تتبع ملتهمْ قلْ إنَّ هُدى الله هُو الهُدىٰ ولئن اتبعْت أهْواءهُم بعْد الذي جاءك من الْعلْم ما لك من الله من وليٍّ ولا نصيرٍ﴾[البقرة:١٢٠].

فالخطاب للنبي ﷺ، وفي ذلك ما فيه من تعليم للأمة وإيقاظ وتنبيه. صُدِّرت الآية به (لن) فهم لا يرضون حتى يتبع دينهم، ثم جاء القسم: (ولئن اتبعت أهواءهم التي يدعونك إليها)، وانظر إلى تسميتها بالأهواء: لئن حصل ذلك بعد الذي جاء من الوحي، مالك من الله من ولي يحفظك ويدفع عنك ولا نصير يمنعك منه سبحانه.

إنه ـ لو وعيناه ـ تهديد أيُّ تهديد... سبحان الله، وما قرأت هذه الآية مرة إلا شدتني إلى الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم، ولست الآن بسبيل الحديث عن اليهود، فحديث العقرب والثعلب لا ينتهي، والأمر فيهم أوضح من الواضحات، ولكن تذكيراً لبعض من ينسون أو يتناسون: أنت ترى أن أهل الغرب والشرق من غير ملتنا يرون أنفسهم محور التاريخ. والقرون الوسطى وإن كانت عندنا عصور ازدهار وحضارة وعلم، فهي عصور انحطاط في العالم كله: لأنها كانت عندهم كذلك، ومن أجل أنهم محور العالم ـ كما يزعمون ـ تاريخياً وجغرافياً، كانت تسمية الشرق الأوسط بالنسبة لموقعه من بلادهم. وغير ذلك من التسميات.

ومن أجل هذا: يؤذي اليهودَ ومن على شاكلتهم: أن يتحرك التاريخ اي حركة تخالف نزعاتهم وأهواءهم لأنهم محوره وصنَّاعه بزعمهم. إنهم يغضبون، فيفكرون ويقدرون، ثم يفكرون ويقدرون.. لم يحصل في بعض البلاد الإسلامية كذا؟ لم المطالبة بأن تحكم باكستان بالشريعة الإسلامية؟ ولم تطالب كشمير أن تكون مع باكستان؟ ما دلالة ذلك وما مداه وتأثيره في البلدان المجاورة وغير المجاورة؟

هم يسعون دائماً لأن تكون إفريقية مثلاً نصرانية أو أيَّ شيء غير الإسلام، بل يطمعون في بلد كأندونيسيا أن يكون كذلك، وهم يتساءلون؟ لم يشب البلد الفلاني عن الطوق، فيتململ تحت السياط ليصنع كذا، وبلد كتشاد في إفريقية بأكثريته المسلمة، لا ترى فرنسا ـ وإن خرجت ظاهراً ـ أن يستقل استقلالاً يكون الحكم فيه لأصحاب الحق الشرعيين، وهم الكثرة الكاثرة من المسلمين.

ولذلك ترى أن القوات الفرنسية ما تزال على أرض تشاد لحماية نظام تحكم فيه الأقلية النصرانية الأكثرية المسلمة، كل ذلك مع الدعاوى الحضارية، وزعم حماية الحريات التي نادت بها الثورة الفرنسية، وهكذا ترى المسلمين في نظر الغرب والشرق موضع التساؤل والاحتراس، في كل يوم واقعة جديدة تؤيد هذا الذي نقول.

والمهم بل الأكثر أهمية أن تكون هذه الأمة عند الذي رسم لها قرآنها في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠] ..



مع اليهود...

اليهود هم اليهود .. فقصتنا التي طال أمدها مع الذين غضب الله عليهم: ما تزال ـ على ما يبدو ـ بعيدة النهاية حتى تعود أمتنا سيرتها الأولى: وفي القرآن ضياء على دروب هذه الرحلة ﴿ومن أصدق من الله حديثا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧] فالمسلم يردد قوله ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴿٧﴾﴾ مرات ومرات في الصلاة وخارج الصلاة .

والذي رأيناه من مكرهم وغدرهم، ونراه اليوم من صلفهم وتجاوزهم كل الحدود: كما يمثل في وجهه الأول حقيقة ما هم عليه: ويمثّل في وجهه الآخر انعكاس ما نحن عليه في أنفسهم: فهم ينطلقون من حقيقة ما هم عليه أولاً، ومن قناعاتهم بما نحن عليه ثانياً.

وكل هذا ينبغي أن يزيد الأمة حرصاً على وضوح الرؤية بشأن هؤلاء اليهود، والنظر إلى أمرهم نظرةً جادّةً، لا تدع الوقوف عند الثوابت والاعتبار بالماضي، كما لا تغفل أثر الحاضر في المستقبل: فالخطر الداهم ممن حلّ عليهم غضب الله ولعناته، لا يقتصر على ميدان دون ميدان، وإنما يتعدى السلم والحرب إلى الميادين كلها، والأمة التي تقف على أبواب يقظة جديدة يجب أن تكون أمورها الثقافية ـ بمدلولها الواسع ـ والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، في حسابها عندما تحارب أو تسالم، عندما تهادن أو تخاصم.

من أجل ذلك علينا أن نُحسنَ بناء الفرد على العقيدة وحب الجهاد، وكل ما فيه تحقيق الخير لبني الإنسان ونحول دون زعزعة كيان الجماعة، ونوظف العلم في الإفادة من ثرواتنا، وتنمية طاقاتنا المعنوية والمادية، كيما نستطيع مواجهة المراحل المقبلة، وما تلده الليالي من وقائع وأحداث: ويوم لا نضع في حسابنا ما هم عليه من

خلائق هي من الثوابت التي ذكرها القرآن الكريم، ونهمل طبيعة العلاقة بيننا وبينهم على مدى التاريخ، خصوصاً ما كان من عدائهم للرسالة والرسول، وما تبع ذلك من شرور مزقت ـ فيما مزقت ـ تلك الراية التي كان يجتمع عليها المسلمون... يوم نفعل ذلك على طريق حسم ما بيننا وبينهم، نكون غافلين عن الحقيقة متخلين عن واحد من أمضى الأسلحة في ميدان الصراع: وهل أدل على ذلك من واقع صنيعهم اليوم، ودس أنوفهم في كل ميدان، محاولة منهم للتأثير في حياتنا تحت شتى العناوين، والإفادة من تخلخل الصف وانحسار الإسلام عن حياة المسلمين في كثير من البقاع.

إن باباً عريضاً للعزة والنصر سوف يكون ملكاً لهذه الأمة، إذا هي اعتبرت بالماضي، ولم تغفل طبيعة الصراع في الحاضر، وأنه لا يحسن الظن بهؤلاء الأعداء ومن هم على شاكلتهم، إلا زائغ عن طريق الحق أو غافل: ففي ظلال الإخراج المسرحي لعلاقات مشبوهة وصلح منفرد: نرى من بعض تصريحات رئيس وزرائهم قوله: (لن نتخلى بأي حال من الأحوال عن مدينة القدس عاصمة إسرائيل التي توحدت إلى الأبد) وهو يعتبر ـ كما نعلم ـ الضفة الغربية التي أسماها (يهودا والسامرة) جزءاً لا ينفصم من أرض إسرائيل الكبرى.

وللتاريخ كلمة هو قائلها فيمن يتبرع، أو يساوم على قضية، هي قضية الأمة بكاملها، لأنها في دم كل مسلم وروحه وقلبه، وليست ملك إنسان سوف تبدي الأيام أنه لا يملك ما يساوم عليه. وحسبنا أن نذكر قول الله تعالى بعد أن عرض للكثير من خلالهم ـ والخطاب للمؤمنين: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [البقرة:٧٥ـ٧٧] .

يخاطب الله المسلمين خطاباً يحملهم على اليأس من الطمع في أن يؤمن اليهود لأجلهم، كيف وهؤلاء اليهود يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ويبدلونه وكأن الله غافل عما يعملون: فإذا كان هذا موقفهم من رب العالمين وكلماته فكيف يبقى للطمأنينة إليهم مكان؟!

إنه الدرس الذي لا يصح لغافل أن ينساه. والمعلم القرآني الذي يجب على الأمة أن تسير في علاقتها باليهود على هداه آخذة بعين الاعتبار ماهيَّة الواقع وطبيعة الأوضاع والمراحل هنا وهناك !!



ضُربت عليهم الذلة والمسكنة

يتساءل بعض الناس في هذه الحقبة، كيف يكون اليهود على ما هم عليه اليوم من قوة وسلطان، ونحن نعلم من صريح القرآن الكريم أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة!! وجوابنا على ذلك:

أن الأمة التي تملك نظرات ذاتية أصيلة، لاتجرها الأحداث الطارئة إلى تغيير منطلقاتها القائمة على أسس ثابتة يقينية، ولكنها تدقق النظر وتدقق، لترى أن ما يبدو مخالفاً للحقائق التي تؤمن بها: إنما هو أمر طارئ لأسباب طارئة، وليس أمراً يتسم بالذاتية والأصالة.

فاليهود أفادوا من ضعفنا وفرقتنا، ونفهم بعد الأمة عن دينها ومنطلقات القوة في تاريخها.

ولم يكن نسياننا تاريخاً طويلاً حصدنا منه الصعاب والعلقم في علاقتنا بهم: بأقل إمداداً لهم بالكثير من النشاط النفسي والقوة. وكل نقطة ضعف عندنا كانت عنصر قوة لهم، وهذا في الوقت الذي تجتمع فيه كلمتهم على الباطل، ويستميت أهل هذا الباطل في معاونتهم لما أننا عدو مشترك، كما يفيدون من العلم وما وصل إليه العقل الإنساني في توفير القوة. إنهم يلعبون على كل الحبال، يستغلون بمكر قضايا الدين والتوراة والعبرية، وأنهم شعب الله المختار ولابد من استقرارهم في أرض الميعاد... ناهيك عن أوضاع دولية لا تخفى حيث تلتقي مصالح الشرق والغرب على تقويتهم وإضعافنا، خصوصاً ونحن نعاني فترة من الضياع، ولا يحسن الكثير منا بذاتيته ولا صدق انتمائه إلى أمة صنعت للإنسانية أرم حضارة وأنبلها. ولا ننسى ما لليهود من قدرات اقتصادية وإعلامية في أقوى دول تحرك ميزان القوى في العالم. ولكن هذا كله لا يعني أن ننسى أو نتجاهل الحقائق، فمراحل المواجهة مع

اليهود سوف تكون أعتى وأقسى، ولابد من تقويم للمراحل السابقة ما لها وما عليها، وأن يكون في الذهن ما عليه اليهود ـ على وجه الحقيقة ـ وما وصفهم به القرآن، وما كان منهم في التاريخ إلى جانب الإعداد بأوسع أبعاده ومدلولاته.

أجل... ومن الحقائق: أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأنهم باؤوا بغضب منه سبحانه، جاء ذلك في أكثر من آية، وفي أكثر من مواطن في الكتاب الكريم، وما هم عليه الآن: لا يغير من هذه الحقيقة شيئاً، وسلوا الأوروبيين عن الأسماء الساقطة التي يطلقونها عليهم، صحيح أنهم يخافونهم في بعض الحالات، ولكنهم لا يحترمونهم: لأنهم ليسوا أهلاً للاحترام.

وحين تعود أمورنا طبيعية، يتضح لكل ذي فعلاً: أن اليهودي مضروب عليه الذلة والمسكنة، وأنه ماكر جبان، وأن حبه المال لا يدع للعرض ولا للكرامة عنده أيّ مكان. والآن عندما يقاتلون، يقاتلون على أوضاع تشعر بالكثير من الخوف ﴿لا يُقاتِلُونَكُمْ جميعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ﴾[الحشر: ١٤].

وبعد هذا: أود أن أعود إلى التأكيد: أنه: لا بد للمرحلة القادمة في مواجهة اليهود من تمثل ذلك كله، وأن ما هم عليه اليوم إنما هي أمور طارئة كان من جملة أسبابها أن أمتنا ليست في وضع طبيعي كما تفرضه المواجهة بكل صورها الدينية والحضارية والثقافية: فلا بد من التغيير الجذري في النفوس والسلوك حتى ترجع كفتنا من جديد. والله المأمول أن تحملنا دروس الماضي، وتهالك بعض بني جلدتنا واستخذاؤهم أمام إسرائيل: على أن نغني المشاعر بحقائق القرآن، والسيرة، والتاريخ، وأن نضع الأمور مواضعها إعداداً واستعداداً. امتثالاً لأمر الله في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠] وأن نكون على ذكر من أن الأسباب التي من أجلها ضربت على اليهود الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، وانصبت عليهم لعناته إلى الأبد، هي أسباب قائمة لا محالة، فما كان عليه أجدادهم هو في دمهم وأخلاقهم. وهل تلد الحية إلا الحية؟!

ثم هم راضون عن صنيعهم كل الرضى، ولذلك خاطب الله اليهود في عصر الرسالة ـ كما أشرت غير مرة ـ خطاب من صنعوا ما صنع أجدادهم: لأن اليهود هو والأحفاد راضون كل الرضى عن صنيع الأجداد، لا يخرجون عن ذلك قيد أنملة. يقول الله تعالى خطاباً ليهود المدينة: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾[البقرة: ٩١] ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴿٨٧﴾﴾[البقرة: ٨٧] ﴿وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾[البقرة: ٧٢].

الا ما اكثر الدروس واقل المستنفعين، وما اكثر العبر واقل المعتبرين!!



البناء.. وغطرسة يهود

«١»

كلما امتد الزمن وتعاقب الليل والنهار، تكشفت الأيام عن جديد في مكر يهود، ونواياهم التوسعية في دنيا المسلمين وديارهم. وفيما يبيتون دائماً من إلباس الاعتداء الظالم وغصب الحقوق ثوب الشرعية والحق التاريخي، ناهيك عما يحاولون من غزو ثقافي واقتصادي يعوق مسيرة البناء والنماء، ويعرقل مناهج التقدم والازدهار. وذلك كله ـ وقليله كثير على صعيد الأذى والبغي ـ نذير مخاطر جمة يمكن أن يكبر حجمها ـ لا سمح الله ـ خصوصاً بعد أن اتخذهم بعض الناس أولياء من دون المؤمنين، مجاهرين بالعداء، قول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٥١﴾﴾[المائدة:٥١] .أرايت: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وقوله جلت حكمته في سورة الممتحنة: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴿١﴾﴾ [الممتحنة:١] .

وإذا كان الأمر كذلك ـ وكانت المعرفة بحقيقة العدو وما هو عليه: من أبجديات الأمور التي لا بد منها على حلبة الصراع؛ كان التذكير بمقومات السلوك والتعامل عند اليهود ـ على وجه العموم ـ، وبمعالم شخصية اليهودي ـ على الأخص ـ ضرورة ملحة ـ لهذا الجيل والأجيال القادمة ـ لا بد أن تأخذ مكانها المناسب ضمن برنامج المواجهة مع العدو وتتخذ مسارها في أقنية التحدي، لما أنهم ـ ونظراءهم ـ الخطر الداهم الذي يهدد ـ كما أسلفنا ـ

اقتصاد الأمة وثقافتها، ويشوه في نظر الغافلين أو المتغافلين قيمها الحضارية، وقد يحاصر بعض بلدانها، ويحملها على الأضيق من سبيل الحياة، والأسوأ من مفهومات الحضارة والتحضُّر.

وحاضرهم معنا صورة أكثر شناعة ـ كما تدل الوقائع المتجددة كل آن ـ وأكثر إفادة من المعلم التقني ومتعلقاته، من ماض جنينا في القريب منه والبعيد كل صاب وعلقم.

أما وقد أوضح الكتاب العزيز وبيانه من السنة المطهرة والسيرة العطرة هذه الحقائق أوضح بيان: فالمهم أن لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لزخرف القول عند العدو ومن يظاهره من أعداء الله والمنافقين. وكم هي ثقيلة أمانة الحفاظ على النشء تعليماً وتربية وإعلاماً، من عبث العابثين وتمويه أصحاب المصالح القريبة المموِّهين!!.

إن زبانية يهود، يجمعون ذويهم من أقاصي الأرض، بما في ذلك: العالم، والطبيب، والمهندس وذوو المهارات الفنية وغيرهم ـ يعينهم مع ذلك أعداء آخرون حاقدون ـ يجمعونهم تحت شعارات توراتية يزعمونها، وأباطيل تاريخية يفترون فيها على التاريخ، ويوهمون أتباعهم بأحقيتها، ويجد ذلك استجابة نلمس آثارها في الهجرة التي تزداد يوماً بعد يوم! دولة تُمدُّهم بالمال والسلاح، ودولة تُمدُّهم بالعلماء والتقنيين البارعين من كل ما يسعف في إلباس الباطل ثوب الحق، وإمداده بالقدرة العلمية والسلاح الذي يعمل عمله في ساحات المواجهة ـ أن لو كان هنالك من يواجههم بقيم الإسلام والجهاد الصادق المخلص الذي شرعه الإسلام: خصوصاً وأن قوة يهود ليست قوة ذاتية وهم الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وكلها قوة نابعة من ضعف أمة الإسلام وتمزقها، ومعاونة من هم على شاكلتهم من الأعداء.

ألا وإن من تلك الشعارات التوراتية الدينية ـ وحقيقة الدين منهم براء ـ ما يزعمون من أن الدار الآخرة عند الله هي لهم فقط خالصة من دون الناس أجمعين، لأنهم شعب الله المختار الذين يحابَوْن ـ ولله المثل الأعلى ـ على حساب الآخرين.

وقد بيّن القرآن قدم هذا الزعم، وردّه عليهم وأكذبهم فيه، حين دعاهم إلى تمني الموت إن كانوا صادقين في دعوى أنهم مؤثرون مفضّلون على الخلق أجمعين.

أي ما دامت الآخرة لهم، فليتمنوا الموت إن كانوا على الصدق في هذه الدعوى المريضة. والفرية التي لا تكاد تعدوها فرية .

ثم نفى ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم أن يتمنوا الموت، بل هم على العكس، جبناء أذلاء يخافون الموت ويحرصون على الحياة أكثر من المشركين أنفسهم، حتى إن أحدهم يود لو يعمَّر ألف سنة، ولكن ذلك لن يغنيه شيئاً من عذاب الله تعالى: وذلك بسبب ما يقترفون من جرائم وجنايات في هذه الدار. وتكسب أيديهم من ألوان الإثم، ضاربين عرض الحائط ما يحكم به الدين السماوي وتقتضيه الأخلاق التي يزكيها الدين الخالص.

ذلكم قول الله جل شانه في سورة البقرة تبياناً لهذه الحقيقة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٤- ٩٦] .

وبعد: ففي ضياء المعلم القرآني، وعلى هدي من الوقائع التي لا ينكر مساءتها البالغة عاقل، تبدو معركتنا مع اليهود ـ على ما يعترض الطريق من منعطفات ـ طويلة الأمد، متعددة الساحات، والبناء والتنمية على أسس سليمة على كل صعيد: من الأسلحة الماضية في هذه المعركة ـ وبخاصة بناء الإنسان ـ وما حصل من اغتصابهم موطن القداسة من الأرض التي بارك الله حولها تحت شعارات مرفوضة ومنها دعوى أن القدس عاصمتهم إلى الأبد ـ يرضى بذلك من يرضى تحت عناوين أسوأ من سابقتها ـ والمعاذ رب الأرض ومقدسها ـ ويسخط من يسخط.. أقول: ما حصل من ذلك ـ وهو واقع أليم ـ نذير خطر على مناهج الأمة

في استئناف سيرتها الخيِّرة بالإسلام، وكلام الله قد كشف عن طبيعة سلوك المغضوب عليهم، ومقومات تصرفاتهم وأهدافهم، ومن أصدق من الله حديثاً!! إن واحداً من أمضى الأسلحة ـ على المدى الطويل ـ أن نعمق معرفتنا بحقيقة العدو، ونحسن تربية الأجيال على ذلك يرتضعونه مع اللبن، ويحسُّون به مع كل حرف يقرأ ويكتب والله المستعان.



البناء... وغطرسة يهود
«٢»

أتينا فيما سبق من القول على ذكر واحد من المعالم القرآنية التي تكشف عن بعض من السمات التي تعرف بها شخصية اليهودي في تصوراته وسعيه لتحقيق هذه التصورات في دنيا الواقع، وما لبعض المزاعم والمفتريات على الله وعلى التاريخ: من أثر في ذلك.

وما أحسب مسلماً منصفاً غير مقطوع الصلة أو ضعيفها بمنابع الخير والمعرفة الحقة، ينازع في ضرورة فقه هذه الحقيقة على الوجه الذي ينبغي، وأن يوسَّع لها في داخل النفس والمشاعر، بدءاً من الأسرة ومروراً بكل مرحلة من مراحل التربية والتعليم، وكل صورة من صور الإعلام: لما أن ذلك لصيق بطبيعة المواجهة مع الذين لا يرقبون في أمتنا إلاً ولا ذمة، ولا يرعون أيَّ ضابط من ضوابط الدين والأخلاق أو معنى من المعاني الإنسانية في هذا الوجود.

والعدول عن هذا: إجحاف في قدر الحقيقة قدرها، وإخلال بالمنهج التربوي الذي يجب أن يقوم عليه بناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، وهذا الإخلال معناه قذف هذا المسلم إلى معركة يفقد أهم سلاح من أسلحة المواجهة فيها، والكفر كله ملة واحدة.

وعندما يتناصح المسلمون في هذا الأمر الجلَل، فإنما يقدرون تلك الضرورة قدرها، كيما يحسنوا التعامل باللغة المناسبة، لصدٍّ واحد من المخاطر على ثقافتنا واقتصادنا بل ووحدتنا، وما نهدف إليه في رحلة البناء والإنماء اللذين نبتغيهما ـ بعون الله ـ على كل صعيد.

وهل ننسى ـ بعد هذا كله ـ ان الصراع مع أعداء الله بعامة ـ ومع يهود بوجه خاص ـ هو في بعض وجوهه صراع حضاري، حيث تريد اليهودية والصليبية المتصهينة ومعهما عباد الوثن ـ وما أكثر الأوثان ـ أن تتخذ من إسرائيل مهماز الانقضاض على حضارة الإسلام التي يصورونها على غير حقيقتها، ويفترون في تحديد معالمها ـ وهي المعالم الخيرة التي أضاءت طريق الإنسان ـ على الواقع والتاريخ لأغراض هابطة لا تخفى.

ولئن كان من وسائل العدو في تحقيق الأهداف: جمع الطاقات البشرية والعلمية التقنية وما يتصل بها من يهود الأرض في دعاوى يلصقها بالدين والتوراة والتاريخ: إن علينا ـ مع إعداد العدة ـ أن نكشف الزيف ونجلي الحقيقة، لأن القناعة بالهدف تأتي الخطوة الأولى في طريق تحقيق الهدف.

ولقد رأينا ونحن نصحب المعلم القرآني على هذه الساحة إكذاب الكلمات الهادية في سورة البقرة اليهودَ في زعمهم أنهم أهل الآخرة لا يشركهم فيها أحد: فهي خالصة لهم دون الناس.

وما رأيناه في سورة البقرة نجد تقريره وتوكيده في سورة الجمعة ـ وهي سورة مدنية أيضاً ـ نرى هنالك الرد القاطع على دعوى أخرى، هي زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس: فكما رد القرآن عليهم ـ وهم مدّعو الاستمساك بوحي السماء ـ دعوى خلوص الآخرة لهم من دون عباد الله الآخرين، بأن أمرهم بتمني الموت إن كانوا صادقين. كذلك ردّ عليهم وأكذبهم هنا فاضحاً مفتراهم: بأن أمرهم أن يبرهنوا على صدق دعواهم، بتمني الموت: وما داموا لا يتمنون الموت، بل هم مستمسكون بالحياة، فدعواهم كاذبة وهم فيها أدعياء.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى في السورة المومى إليها ـ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ـ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة:٦-٧].

ثم نفى عنهم ذلك، وأن عدم التمني كائن بسبب ما يقترفون من الضلال والتوعد أمر الله، وبما تكسب أيديهم من الإثم في تعاملهم مع الخالق سبحانه وتعاملهم مع العباد، فقال جل شأنه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧﴾ [الجمعة: ٧].

وختم الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ له دلالته في تقرير أن اليهود ظالمون لأنفسهم وللحقيقة، وأنه معاقبهم على ظلمهم ما دام يعلمهم وهم الظالمون.

ثم كشفت الكلمة القرآنية عن سطحية التفكير عندهم بهذه القضية: فالأجل المضروب للإنسان آت لا محالة، والموت ملاقيكم أيها الظالمون مهما تخذتم من الأسباب وركبتم متن التعنُّت والتحمُّل في نكران الحقيقة، وأنتم مردودون بعدها إلى الله عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية، وهو ـ سبحانه ـ لا يظلمكم، ولكنكم أنتم أنفسكم تظلمون. ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة: ٨].

هكذا تجلّي الآيات الحقيقة التي ـ وإن كانت قد نزلت في اليهود ـ ينفع تمثُّلها واستذكارها نفعاً بلا حدود: فالفرار من الموت لا يؤخر أجلاً، كما أن الإقدام لا يقرب أجلاً، وعرصات القيامة بانتظار أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويدَّعون ما لا يقوم عليه دليل وهم في دعواهم كاذبون مفترون. وهنالك يجدون ما عملوا حاضراً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

أما بعد: فإن أشداق اليهود تتحلَّب لثروات وخيرات العالم الإسلامي، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين لا تنتهي. وعلى الأمة أن تتسلح ـ مع الإيمان الصادق والإعداد الصحيح ـ بسلاح اليقظة والحذر وتربي أجيالها على ذلك، كما تكون في مسيرتها على دروب البناء بشتى ميادينه وصوره، على صعيد الطاقة البشرية وكل الطاقات الطبيعية وغيرها في مأمن ـ بعون الله ـ من عاديات هذا الوباء الماكر عند

يهود وسدنتهم من أعداء الله والإنسان، خصوصاً بعد النذر التي ذرت قرونها من هنا وهناك، ويتلقفها من أبناء جلدتنا مع عندهم أهلية التفنن والاستخذاء، ويعتذرون بالنقيصة بعد النقيصة وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.



أعداء جبريل

سبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض، دعا عباده إلى الصراط السوي، فاستجاب من استجاب، وأعرض من أعرض، فكانت السعادة لمن استجاب، والشقوة على من أعرض والعياذ بالله.

يعجب المرء، ويكاد لا ينقضي عجبه من صنيع أناس، يرون الحق ابلج نيِّراً كالشمس الطالعة في رابعة النهار، فيعرضون عنه تحت ستار من فاسد التأويل، ومنتحل الأعذار. ويلهثون وراء الباطل وقد أشربوا حبُّه، مع ما يبدو للعاقل من أشواكه ونتنه؛ لأنه مباءة الأذى والضلال المبين. أقول هذا والأمة ـ وهي على طريق البناء ـ في تسابق مع الزمن، تسمع وترى من صنيع أولئك الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، فراحوا يصافون اليهود العابثين ببيت المقدس أعداء الله؛ ويفسحون لهم في حياة الشعب المسلم، ويلبسون الباطل لبوس الحق، حتى صرح مسؤول كبير في منصب ديني في بلد عزيز على الأمة كبير: أن أسعد يوم من أيام هذا البلد هو يوم الصلح مع هؤلاء الأناس الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً. ويا ليت لأولئك الذين يَلِغون في الإثم ويتجاهلون ثوابت القرآن والحديث والسيرة، قلوباً يعون بها ولو بعضاً مما أنزل الله على رسوله ﷺ في شأنهم، إذن لذكروا واحدة من خصالهم، وهي تصريحهم بأن جبريل عليه السلام عدوهم، وما جاء في صريح الآية الكريمة بأن الله تعالى عدو للكافرين وهم المقصودون بذلك أولاً وبالذات.

سأل اليهود رسول الله ﷺ ـ كما روى الترمذي وغيره ـ والحوا في المسألة عن أمور حسبوا أن يعجزوه بها. فلما أجابهم، قالوا: فحدثنا: من وليُّك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «فإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو

وليه، ولما ساءهم ذلك قال صلوات الله وسلامه عليه: «فما يمنعكم ان تصدقوه» قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله عز وجل في ذلك قرآناً يتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿قُلْ من كان عدوًا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة:٩٧] إن جبريل نزل بالقرآن على النبي ﷺ فيه الهداية الكاملة، فهو هدى وبشرى للمؤمنين فكيف تكون صفة أعدائه؟ ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ﴿١٩٢﴾ نزل به الروح الأمين ﴿١٩٣﴾على قلبك لتكون من المنذرين ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٣ـ ١٩٤] ، ومن عادى الله وملائكته ورسله وجبريل وميكايل فقد عادى الله تعالى، فاليهود بعدائهم لجبريل قد عادوا جميع الملائكة، وبعدائهم لرسول الله ﷺ عادوا جميع الرسل، وبذلك كانوا أعداء الله. فالله تعالى عدوهم، وأين من ذلك زعمهم انهم أبناء الله وأحباؤه.

وهكذا جاءت الآية التالية فاصلة حاسمة ﴿من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٨] وبعد: فإن أمتنا فاتها الكثير من الزمن ــ بعد الذي مر بها من نكسات ــ وهي بحاجة اليوم إلى الكثير من الضنى والتعب لمتابعة رحلة البناء بواقعية وتنمية لقدراتها المعنوية، ومواردها المادية، على أساس من عقيدتها في كتاب ربها وسنة نبيها دونما غفلة عن سنن الله في الكون، طبيعة التعامل مع الواقع. واليهود أسوأ عصبة تقف في طريقها وتهدد مسيرتها، والذين يصافون اليهود ويفتحون لهم أبواب بلادهم على مصاريعها، يقومون بدور الجناية على هذه الأمة، في دينها ودنياها وتاريخها، ويعرقلون مسيرتها، فيما تريد ان تبني، وفيما تريد أن تعمل وتنمي، نسأل الله الهداية ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴿٤٦﴾﴾[الحج:٤٦].



من آفاق البناء.. في التصور والعمل
أبو بكر.. وآفاق الحركة والمنكر في يهود

إن الذي رأينا في مناسبة خلت من دلالة المعلم القرآني في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا عليكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذا اهْتَدَيْتُمْ إِلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جميعًا فَيُنَبِّئُكُم بما كُنتُمْ تعْمَلُون ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥] وما ردّ به أبو بكر رضي الله عنه على من يضعون الآية في غير موضعها: يفتح للمسلم آفاقاً ينبغي تبينها لما لها من أبعاد في طريقة التفكير، وصياغة العمل والسلوك، كيما نكون قادرين على متابعة رحلة لا اختيار لنا معها هي رحلة التصور الواعي والسلوك المنبثق عنه.

فأبو بكر رضي الله عنه وهو في موقع المسؤولية الكبرى: أهمّه ـ وهو يحسُّ آلام الأمة وآمالها ويحكم في حقبة مثقلة بالعمل الدؤوب لتمكين الدولة بعد رسول الله ﷺ والقضاء على فتنة الردة التي خاضها الهدامون الذين زاغوا عن الحق الأبلج وباض الشيطان في رؤوسهم وفرّخ ـ : أهمه أن يتجه بعض الناس في فهم الآية اتجاهاً يصرف على العمل والإسهام في التمكين ودرء الفتنة. ولكنه كان حريصاً على سلامة الارتباط الفكري للمسلمين فاستدل على ما ذهب إليه بحديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

هذه واحدة. والثانية أن أبا بكر الصديق لم يذهب إلى ما ذهب إليه من دلالة الآية على استنفاد الجهد بالعمل وعدم التعلُّل بصنيع الآخرين ـ وهو في حالة قعود وركود ـ وإنما كان رضي الله عنه على الحال التي وصفنا وكان من قبلها الأنموذج الصادق القدوة لرجل العقيدة: تصديقاً وبذلاً وحباً للرسول عليه الصلاة والسلام.

خذ لذلك مواقفه في مكة والدعوة تشق طريقها عبر ألوان من الأذى والفتنة عن الدين، ثم مصاحبة لرسول الله ﷺ على طريق الهجرة، رحلة المخاطر التي لا تقف إلا عند الموت، وما هو منه بسبب، حتى أذن الله أن يتولى الخلافة ويتابع المسيرة بصدق وحزم، ويحول دون كبوة التاريخ فيما اقتلع الردة من جذورها، ردَّ العادين عن الإسلام ودولة الإسلام.

وإذن فأبو بكر يحكي بإصلاح المسار قصة المسلم الذي كان له الهم الأوفر في صناعة تاريخ هذه الأمة عن إيمان وفقه في الدين، ورغبة صادقة في مرضاة رب العالمين.

ثم إن النصوص الوفيرة في كتاب الله وبيانه من حديث رسول الله القولي منه والفعلي ناطقة ـ بوجوب الدعوة، والعمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالمين بعيداً عن التعللات واختلاق المعاذير، وبالوعيد بمسؤولية من يتقاعس عن العمل والجهاد وهو قادر على ذلك.

وفي موعظة هادية لرسول الله ﷺ بياناً للقرآن على هذه الساحة قال رسول الله ﷺ فيما روى أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد ـ وهو على حاله ـ فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه: فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فاسقون﴾ ثم قال: كلا، والله لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ـ أو لتقصرنّه على الحق قصراً».



اليهود.. ورحلة البناء

«١»

مع طلوع شمس كل يوم وغروبها، تطالعنا الأنباء بجديد من صنع اليهود على شتى الأصعدة. ولا يعلم إلا الله متى ستصحو أمتنا ـ على صوت النذير ـ صحوتها الفاعلة المؤثرة في مجرى الأحداث لصالح الحقوق المضيَّعة والكرامة المهدورة.. الصحوة التي تبدأ ـ أول ما تبدأ ـ بإحسان صلتها بالله عز وجل، وبذل الأموال والأنفس تحت راية الجهاد في سبيل الله، بلا حدود ولا قيود، إلا ما كان من إخلاص النية وطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى، وما يتبع ذلك من التخطيط المنهجي الذي لا يُغفل الواقع، وجهاد النفس ولا يتهاون في شأن من شؤون الأمة.

ولكن هل سمعتم أو قرأتم أن هنالك عجباً من العجب؟ نعم هنالك من أبناء أمتنا من يعجب لصنيع إسرائيل حفيدة التقزُّم اليهودي، ولكنني أعجب من عجب هؤلاء!!

ذلك بأن المسلم بعد أن يكون على ذكر مما فسح القرآن في معالمه الخيِّرة من كشف عن خلائق يهود، ومسابقتهم إلى المكر والحيلة والأذى، وعلى ذكر أيضاً من حلقات تاريخهم الهابطة مع هذه الأمة، وهي حلقات سداها ولحمتها بالحق وأهله، والدس والخديعة والمراوغة من أيام الذميم عبد الله بن سبأ وحتى يوم الناس هذا ـ وبخاصة من أيام الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة وذيولهما.

أقول: بعد أن يكون المسلم على ذُكرٍ من ذلك كله ـ وبعضه يكفي ـ ينبغي أن لا يعجب، مما تتكشف عنه الأيام والليالي من جديد في عدوانهم.. بل ينبغي أن يعجب إذا تظاهروا بصلاح الحال، معتقداً أنهم يبيتون أمراً إداً، يحاولون إخفاءه بلين الأفعى..

ولكنهم اليوم أصبحوا من الاستهانة بهذه الأمة: بحيث يعلنون أكثر مما يُسِرُّون، ويجاهرون بأغراضهم المدمِّرة التي يزعمون أنها من بشريات دينهم، وبالإصرار على دوام الاغتصاب للأرض والمقدسات أكثر مما يخفون! وبخاصة بعد شناعة معسكر داوود وذيوله ولواحقه والعياذ بالله.

وإذا كان على الأمة أن تحزم أمرها على طريق استرجاع الحق المغتصب من الآثم المعتدي، وتتجه بإيمان وموضوعية وجهة البناء الذاتي، وحشد الطاقات البشرية والاقتصادية والعلمية، كيما تكون في خدمة معركة المواجهة الفاصلة إن شاء الله.. فإن عليها أن تعيد التصور الإسلامي لحقيقة اليهود ـ كما هي في الكتاب والسنة والسيرة والواقع التاريخي ـ وطبيعة المعركة معهم قدراً أكبر من الأهمية، ليكون ذلك عوناً للعاملين في إزالة الركام، والمعوقات التي تبرزها طبيعة المواجهة على طريق النماء الاقتصادي والاستقرار في المجتمع: فكم تسببوا ويتسببون بالمتاعب لمجتمعاتنا حتى على مستوى البنية العسكرية في كثير من المواقع!!

وإني مذكِّرٌ بما جاء في واحدة من السور المدنية به وهي سورة الصف ــ من إفصاح عن بعض خلائقهم في إيذاء أقرب الأنبياء عليهم السلام منهم ــ كما تقتضيه ظواهر الأمور وهو موسى عليه السلام، وإن كان هو من صنيعهم براء!

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف:٥].

وإلى أن نلتقي على قدر آخر من البيان فيما نقصد إليه: ارجو ان نستذكر جميعاً أن ميادين الصراع مع هؤلاء الأناسي متنوعة متشابكة، وإحكام المسلمين لخطة البناء والنماء، يقتضيهم أن يضعوا في مقدمة اهتماماتهم، إماطة الأذى الذي يطرحه من آذوا موسى عليه السلام: عن طريقهم، بل عن طريق الإنسانية كلها ــ على غفلة الكثيرين أو تقاسم المصالح معهم ـ كيما يصحب الاهتمام بالتنمية والبناء، اهتمام بإزالة العقبات، وكسر القيود المعوقة عن نصرة الحق والإنسان من هنا وهناك.

أعداء جبريل.. ورحلة البناء

«٢»

أشرت فيما سبق إلى واحد من المعالم القرآنية الذي تطالعنا به إحدى السور المدنية ـ وهي سورة الصف ـ وذلك في قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف:٥].

موسى عليه السلام يقول لقومه اليهود: لم تؤذونني وأنتم تعلمون صدقي بما جئتكم به من رسالة التوحيد، وأني رسول الله إليكم بها، فهي ليست من عندي ولكنها من عند الله رب العالمين.

إذن هنالك إيذاء متعمد لرسولهم الكريم، وهو إيذاء يأخذ طابع التجدد والديمومة؛ ولذا جاء التعبير عنه بفعل المضارع الذي يقتضي ذلك ﴿تؤذونني﴾ وهم يتعمدون أذيته مع أنه من بني قومهم، وهم على علم بأنه رسول من عند الله إليهم ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

أرأيت إلى هذا الإصرار؟ لم يشفع لموسى بن عمران عبد الله ورسوله وكليمه، عند اليهود: أنه من قومهم ولا أنه ـ كما يعلمون على وجه التحقيق ـ رسول الله إليهم. الأمر الذي يدل على أن الحق الذي دعاهم إليه هو المستهدف ـ في الأصل ـ وأن تزيين الهوى والشيطان، هو الذي يحكمهم فيما يصنعون.

وقد نبه الله المسلمين إلى أن من الخطورة بمكان: أن يؤذي القوم رسولهم لأن ذلك دليل الضلال والصد عن سبيل الله، ونهاهم عن أن يكونوا كأولئك الأناسيِّ الضالين المضلِّين، الذين آذوا موسى عليه السلام بأذيةـ هي لون من الوان الإيذاء ـ وذلك بإشاعة أن في جسم هذا النبي الكريم عيباً ينزل من قدره عند الناس، وإلصاق ذلك مع مدعاة للضعة والرثاء!!

ولكن الله الخالق الحكيم الذي يغار على عباده المؤمنين، لاشيء رسله عليهم السلام: برأ رسوله موسى مما يقول المفترون، وبيَّن أنه ذو جاه كريم عنده: ذلكم قوله جلت حكمته في سورة «الأحزاب»:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب:٦٩] روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى كان رجلاً حيياً ستّيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستُّر إلا من عيب بجلده إما برص، وإما أُدرة ـ انتفاخ الخصية ـ وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل. فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، عز وجل وأبرأه مما يقولون....» الحديث.

وقد أثنى النبي صلوات الله وسلامه عليه، على موسى بصبره على أذى قومه واحتسابه ذلك عند الله: فقد جاء في حديث رواه البخاري وأحمد «أن رسول الله ﷺ بلغه عن رجل قال في قسم قسمه ذات يوم»: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فاحمرَّ وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وبعد: فقد عاقب الله بني إسرائيل على عدولهم عن اتباع الحق زيغاً وضلالاً مع علمهم أنه حق ـ كما دلت الوقائع ومنها هذه الواقعة مع موسى عليه السلام ـ عاقبهم بأن أزاغ قلوبهم جزاء زيغهم العمدي مع علمهم أنه زيغ.. أجل أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة، وألبس نفوسهم القلق وغشاها الخذلان ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف:٥].

لا يهدي القوم الفاسقين ـ الذين يخرجون على الحق الذي يعلمون أنه حق، ويعدلون عنه ـ متعمدةً ذلك قلوبهم ـ إلى الضلال المبين والصد عن سبيل الله. كما في قوله تعالى: ﴿ونُقلِّبُ أفئدتَهُمْ وأبصارَهُمْ كما لمْ يُؤْمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ ونذرُهُمْ في طُغْيانهمْ يعْمهُون ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] . وقوله سبحانه: ﴿ومن يُشاقق الرَّسُول منْ بعْد ما تبيَّن لهُ الْهُدى ويتَّبعْ غيْر سبيل الْمُؤْمنين نُولِّه ما تولَّى ونُصْله جهنَّم وساءتْ مصيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥] .

والحق أن في الآية التي نسعد باصطحابها من سورة «الصف» ـ بالإضافة إلى الكشف عن بهتان اليهود وإيذائهم لموسى عليه السلام، وزيغهم عن الحق مع علمهم به، تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام فيما كان يلقى ـ وهو يؤدي أمانة التبليغ والدعوة ـ من أذى الكفار والمنافقين حلفاء اليهود والمشركين.

غير أن الذي ينبغي التنبه إليه، ولا تصح الغفلة عنه بعيداً عن التهاون وعدم المبالاة: أن الآية تضع أيدي المسلمين على واحد من مكامن البلاء في هؤلاء المغضوب عليهم، لكيلا يأخذهم تيه النسيان!!

وما أشدَّه بلاءً أن تنسى الأمة، فتواجهَ الأعداء الماكرين المتربصين بها الدوائر بلا ذاكرة.

إن العصا من العصية ... وهل تلد الحية إلا الحية

إن هؤلاء الأناسيَّ الذين نبَّه القرآن ـ ومعه السنة المطهرة ـ على خلائقهم المتأصلة فيهم، وما تزال الوقائع تقرر ذلك وتؤكده صباح مساء.. إنهم في هذا القرن وما سبقه وما يلحقه: من تلك السلالة التي كشفت زيفها النصوص وأيدت ذلك الوقائع.. ولقد أثبت اليهود في مختلف الأزمنة والبيئات أنهم جديرون بهذه النسبة إلى أولئك الذين كان من بعض خصالهم الذميمة قتل الأنبياء وإيذاؤهم ـ حتى لو كان الرسول من قومهم ـ.

فأية عماية تتخبط بها الأمة ـ وهي تريد أن تبني لمستقبل الأجيال ـ إن هي أغمضت العين عن البيان القرآني، وهداية معالمه، وما صحب ذلك من نصوص السنة الصحيحة الموثقة ووقائع السيرة المطهرة في أن الإخلاص لعملية البناء

الكبرى على صعيد العالم الإسلامي، وإتاحة الفرصة للكفايات أن تنمو على كل صعيد، وللطاقات أن تعطي عطاءها في كل ميدان: يقتضي العاملين على إعداد الجيل تنشئته على هذا التصور المنبثق عن هداية الكتاب والسنة والوافر من الوقائع في القديم والحديث، وإرضاعه الفكرة النقية ـ وأن لله سنناً في كونه لا تتخلف ـ مع مايلزم من المعرفة بالواقع وأبعاده، وترتيبه على الإخلاص في الدين وتوحيد الوجهة لرب العالمين.

فذلك واحد من أمضى الأسلحة التي لا يجوز التخلي عنها، بجانب ما ينبغي من شتى ألوان الإعداد المطلوب، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.



مع أدعياء التميُّز والتوراتية

البناء.. والتحدي

كثيرة كثيرة هي تلك الشواهد التي نجدها في معالم الكتاب العزيز وهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في سننه وسيرته، ناهيك عن وقائع التاريخ قديمها وحديثها في الماضي والحاضر، والتي تدل على أن مدعاة العجب العجاب ـ كما سبقت الإشارة ـ أن يدرك بعضَ الناس العجبُ لما يفتنُّ به اليهود أدعياء أنهم مستمسكون بالتوراة: من ألوان الأذى، وقلب الحقائق والانسلاخ عما تقتضيه توراتيُّهم التي يزعمون، ولما تتفتَّق عنه حيلهم وافتراءاتهم من دعوى أن كل ما يفعلون من الأفاعيل، وما يرتكبون من المآثم: إن هو إلا دفاع عن النفس، ورد لعدوان الآخرين على حقوقهم المزعومة التي هي إفك مفترى ودعوى بلا دليل!!

وأنت يدهشك عجب هؤلاء، لأنهم على علم بأن الشيء من معدنه لا يستغرب: فحين نعجب للعقرب تلدغ، وللثعلب يمكر ويروغ، يكون عجبنا هذا مدعاة للدهشة من هذا الفصل بين الإناء وبين ما ينضحه: إذ كل إناء بالذي فيه ينضح!!

وإنا ـ إذ نعوذ بالله من شر كل ذي شر ـ نعوذ به ـ جل شأنه ـ من أن يصحبنا شيء من الغفلة عن حقائق الأمور، وأن نتخلى عن المعرفة بها عند الإعداد لمنهج من مناهج البناء، وعند المحاولة ـ التي يراد لها أن تكون مستبصرة جادة ـ لإنماء طاقات المواجهة في النفوس على مختلف المواقع النفسية، والثقافية، والعملية!!

ولقد أسعدنا ـ من قريب ـ اصطحاب واحد من المعالم القرآنية التي أشرقت بها سورة «الصف»، وذلك في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۝﴾ [الصف:٥]. حيث تلا هذا الاستفهامَ الإنكاري من كليم الله عليه السلام: إعلانُ الكلمة القرآنية معاقبة

هؤلاء الزائفين، العادين على الحق يتنزل من السماء في شخص الموحى إليه موسى، مع علمهم أنه حق منزل من عند الله.. معاقبتهم بضرب أسداد الزيغ على قلوبهم، وغشاوة الحيرة والقلق على نفوسهم، جزاء هذا الخروج على سواء الصراط ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف:٥].

والواقع أن الأمر لم يقتصر على موسى عليه السلام، بل إن هذه السورة المدنية التي تنزلت على رسولنا ﷺ ورحى الحرب دائرة في معارك المواجهة مع اليهود والمشركين والمنافقين.. كشفت عن إيذائهم لعيسى عليه السلام أيضاً، وامتداد ذلك إلى تكذيبهم بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام .

ذلكم قول ربنا العليم الحكيم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: ٦].

ولست هنا بسبيل الحديث عن عدائهم السافر لعيسى عليه السلام، حيث بلغ بهم الأمر أن ازمعوا قتله وصلبه متخذين الأسباب لتحقيق ذلك!!

ولكن الله حال ـ بقدرته ـ دون ما أرادوا﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

ولكني بسبيل الكشف عما هدى إليه المعلم القرآني من تكذيبهم بمن جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ومبشراً بمحمد عليه الصلاة والسلام، بأسلوب لا يرقى إليه شيء من الالتباس، أو أثارة مما يدعو إلى الشك والارتياب.

وكأن المعلم القرآني يضع أيدينا على حقيقة أن تكذيب الأحفاد لمحمد عليه الصلاة والسلام مع بشارة عيسى عليه السلام به تصريحاً لأجدادهم السابقين، والنص على ذلك في التوراة قبل التحريف.. امتداد لما كان عليه أولئك الأجداد، لما أن الأحفاد قانعون وراضون بالنهج الزائغ الذي كان يحكم تصرفات الأجداد، والطينة واحدة، وأسلوب التفكير واحد، فلم يبق للفارق الزمني اثر يذكر..

فاليهود في عهد موسى وعيسى، واليهود في عهد محمد عليه الصلاة والسلام، يلفهم جميعاً حزام مقيت من تكذيب المرسلين عليهم السلام، ومناصبة الحق وأهله شرَّ ألوان العداء!

أرأيت إلى هذه النقلة في النظم المعجز من كلام عيسى عليه السلام إلى الإخبار عن تكذيبهم بالرسول عليه الصلاة والسلام؟! هذا قول ربنا الحكيم الخبير على لسان عيسى عليه السلام:﴿يا بني إسْرائيل إنِّي رسُولُ اللَّه إليْكُم مُّصدِّقًا لِّما بيْن يديَّ من التَّوْراة ومُبشِّرًا برسُولٍ يأْتي منْ بعْدي اسْمُهُ أحْمدُ﴾ [الصف: ٦] يتلوه ما ذكرنا آنفاً من التكذيب القائم على فرية فاقعة هي أن هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحر مبين.. يقفون هذا الموقف مع علمهم اليقيني بأنه الرسول الذي يرتقبون وهم يعرفونه بصفاته المذكورة في التوراة ــ قبل تحريفهم الكلم عن مواضعه فيها ـ كما يعرفون أبناءهم.. ولكنها الغواية المطبقة على الصدور، والحسد الذي أعمى البصيرة وأوصد أبواب الخير!!

هذه واحدة من الحقائق التي يجب أن لا تغيب عن البال عند تنشئة الأجيال وإعدادها على صعيدي المناهج والتطبيق.

علماً بأن العدو يعمل جاهداً من طريق أصابع العبث بالمناهج، والتخطيط الإعلامي المدروس، لا على تنشئة اليهودي على الباطل الذي يراد فحسب، بل على تنشئة أولادنا في الأرض المحتلة وأشباهها على ذلك أو ما هو منه بسبيل!

وهذا الهدم للمعرفة المطلوبة في نفس الطفل واليافع والشاب ـ وهو هدم يؤرق أهل الغيرة المخلصين ـ لا بد أن يقابله بناء صحيح سليم لمن ولانا الله أمرهم لا تعوزه دقة المنهج، ولا يُفتقد معه التطلع الصادق إلى مرضاة رب العالمين..

كل أولئك كيما يكون الجيل ـ ذكوره وإناثه ــ معتزاً بدينه وأمته وحضارته، قادراً على استيعاب المرحلة القادمة بأبعادها ثقافة وجهاداً، والإعداد لها في ميادين العقيدة والعلم والاقتصاد وما يتصل بذلك.

وحجر الزاوية أن يكون الجيل الذي يحمل الرسالة ويتجه وجهة تحقيق الذات بها ـ كما أراد له الإسلام: على علم بالحقائق الواجب الانطلاق منها في مواجهة العدو المغرق في عداوته لهذه الأمة.. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



البناء في مجتمع المدينة.. واليهود

البناء الثقافي في المجتمع الإسلامي الأول، والذي عُني أول ما عني ـ بعد ترسيخ العقيدة ـ بتزويد الإنسان المسلم بالمعرفة، وبسلّم للقيم توزن به الأمور، وبضوابط ترسم المنهج لعلاقة الإنسان بربه عز وجل، ولعلاقته بعباده سبحانه.. هذا البناء ـ وهو ينمي الحوافز القادرة على تحويل المبادىء إلى عمل وإنجاز ـ لم يكن في غيبة عن الاهتمام بوضوح الرؤية عند تحري الأسس التي تقوم عليها الحركة، وإقامة الحراسة التي تضمن ـ بعون الله ـ استمرار فاعلية الفرد والجماعة على الوجه الذي ينبغي.

وفي جملة ذلك: ما عليه المجتمع في تركيبه البشري، وفي كياناته الفكرية والاجتماعية والاقتصادية.

من هنا جاء ما نلمسه في معالم القرآن الكريم إبان العهد المدني، من الكشف عما كانت عليه طبيعة الواقع البشري في مجتمع المدينة يوم أسلس قياده لخاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام.

وملاحظة ذلك توحي بالاهتمام الذي أشير إليه، لأن للبناء الثقافي الذي يجمع بين المعرفة والسلوك جميعاً، أثره البالغ في بنية المجتمع عموماً في جوانبها الفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وكل ما يتعلق بذلك في قليل أو كثير.

ومعلوم أن اليهود كانوا متمركزين في تلك الحقبة هناك في ضواحي المدينة وفي خيبر، ولهم بروز واضح على الوثنيين في عالمي الثقافة ـ بسبب أنهم أهل دين سماوي كما كانوا يدلُون بذلك عليهم ـ والاقتصادي بالدرجة الأولى، الأمر الذي يجعل لهم نوعاً من التأثير بلغ مبلغ أن يسألهم زعماء قريش أن يحكموا في أن ما هم عليه من عبادة الأوثان افضل أم ما عليه محمد عليه الصلاة والسلام؟! وكان

جوابهم على غير ما يعرفون من كتابهم: بأن ما هم عليه قريش هو الخير وهو الأفضل. ذلكم قوله تعالى في الآية الحادية والخمسين من سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾.

وهذا البروز في عالمي الثقافة والاقتصاد: كان يجعل لمكائدهم ودسائسهم سوقاً رائجة لا يؤمن شرها: ولما كان الأمر كذلك ـ والله هو العليم الحكيم ـ وجدنا آيات الكتاب الكريم تعمل عملها في توعية المسلمين وتبصيرهم بحقيقة هؤلاء اليهود وخلائقهم، وما يبطنون من حب الأذى للمسلمين، حسداً من عند أنفسهم، وكراهية منهم أن يصل إلى هؤلاء المسلمين شيء من الخير في دين أو دنيا.

ويستوقفك في المنهج الرباني: ما كان ـ بجانب التوعية والتبصير الموحى إليهما ـ من تزويد المسلمين ـ في ضوء العقيدة ومعايير الإيمان ومكارم الأخلاق ـ بقدر كاف من المعرفة التي تتصل بمواقف اليهود المجافية للحق، وبالكشف عن أن ذلك مما يتوارثه الأبناء وفيهم عن الآباء، كما توارثه هؤلاء الآباء عن الأجداد، وهكذا دواليك!

وفي الوقت نفسه، نجد الآيات تقيم الدليل تلو الدليل، على سوء منطلقاتهم وأهدافهم، والقيم المهزوزة المادية البحتة التي تحركهم من هنا وهناك. ناهيك عن النسبية في الأخلاق التي يتميز بها سلوك اليهودي المنحرف في علاقته بالآخرين: فليس هنالك ثبات في شيء من الأخلاق، بل هي تابعة لمصالحهم ـ مهما تنافت مع الخلق الكريم، ولقيمهم المهزوزة الهابطة، مهما تناقضت مع دعاواهم على صعيد الإعلام والتغرير بالآخرين.

ونماذج هذا المسلك القرآني مبثوثة في كثير من السور المدنية: نذكر منها: سور البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والتوبة، والجمعة..

ولقد كانت لنا فيما سبق، وقفات مع بعض المعالم القرآنية من خلال آيات في سورة المائدة وغيرها تتعلق بهؤلاء الأناسي أعداء الله وملائكته ورسله، والجناة على الحق وأهله في بني الإنسان.

وإلى أن نلتقي على عطاء جديد من تلكم المعالم الهادية المشرقة بدائم العطاء الرباني في الأحكام، والعبر، والأخلاق المتصلة بالتزكية والتربية: أود الإشارة إلى أنه كلما ازدادت المعركة ضراوة وشراسة بين أهل الإيمان أعداء الحق والإنسان، وتشعبت ميادينها وأسلحتها المتطورة في الظاهر والباطن: اشتدت ضرورة التذكير بالثوابت المرتبطة بعقيدة المسلم، وهي الثوابت التي بسطتها معالم الكتاب العزيز في شأنهم، وتنمية الإحساس بحقيقة مواقفهم التي ما تزال تؤكد وتؤكد صدق تلك الثوابت من أخلاقهم ومنطلقاتهم، وهي مواقف ما تزال تتجدد صورها، والحقيقة واحدة، بدءاً من عهد النبوة وحتى يوم الناس هذا، ولا يتجاهلها ـ وقد وصلت حالنا معهم إلى ما وصلت إليه ـ إلا من سفه نفسه وحقت عليه الضلالة، وكان في طاعة الشيطان ومَرَدَة الظالمين.

وويل للذين يتجاهلون ذلك ـ وهم في موقع التأثير والتنفيذ ـ من غضب العزيز الجبار، ثم ما يجلّلهم قريباً أو بعيداً من ظلام التاريخ، والذكر غير الحسن ﴿ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون إنّما يؤخّرهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار ﴿٤٢﴾ مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواءٌ ﴿٤٣﴾﴾[ابراهيم:٤٢ـ٤٣].



الركام اليهودي.. والبناء وإزاحة الركام

ما مر في تاريخنا من أذى اليهود ومواقفهم المظاهرة على الحق المعادية للإنسان: بدءاً من عصر النبوة وحتى يوم الناس هذا ـ حيث الحال الأليمة غير الخافية على منصف ـ: صورة تطبيقية لما دلَّ عليه القرآن الكريم من خلائقهم، وصفاتهم النفسية، فيما مردوا عليه، من خيانة العهد، والكيد، والدسّ والمكر والافتراء وتحريف الكلام عن مواضعه وفيما استمرؤوه من أساليب العداوة للإسلام والمسلمين، والقيم التي يحتكمون إليها، ناهيك عن الأهداف التخريبية التي يعملون لتحقيقها، ومنها: أن يكونوا ذوي السلطات والكلمة المسموعة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً في أرضنا وفكرنا!!

ولقد جنَتِ الأمة من صنيعهم ـ وما تزال ـ ما لا يسع عاقلاً جهله أو تجاهله..

نقول هذا الكلام ـ والأرض التي بارك الله حولها في قبضتهم، والمسجد الأقصى يئن من عدوانهم ومجاهرتهم بانتهاك الحرمات، وسوء الأدب مع الله ومع الناس.

وعلى صعيد الواقع: تبدو الشجاعة في النقد الذاتي، مقدمةً صحيحة لازمة للشجاعة في ميادين الصراع مع العدو.

فالأمر ليس أمر أعداء الله فحسب، ولكنه أمر الغفلة عما دلَّ عليه القرآن، وبينة السنة، وصدق ذلك كلّه بأوضح الصور ـ الواقع العملي فيما نطقت بها سيرة النبي ﷺ على صعيد التعامل معهم، وكيف كانوا يقابلون الحسنات بالمكر والسيئات، والعهود بالخيانة، وتبييتِ التحالف الماكر مع المشركين.

أقول: ولكنه أمر الغفلة، ولكن لا بد من أن يضم إليه أن القضية عند البعض قضية ضعف الإيمان بما دلَّ عليه القرآن الكريم بالأسلوب الواضح المعجز، وبينته السنة القولية والفعلية بالحجة الدامغة، والإعراض عن دلالات الوقائع العملية عبر

القرون في سلسلة نكدة الحلقات ـ نعيش اليوم حلقة شديدة النكد والأذى منها ـ في علاقة أمتنا بمن قال الله تعالى فيهم خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام ببيان يتخطى الزمان والمكان، بدءاً من الآية الرابعة والأربعين في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء:٤٤- ٤٦] .

فكل ما حمل التاريخ من مثالب وموبقات، هي صور ناطقة بما دلّ عليه القرآن الكريم وبيانه من السنة في شأنهم، حيث تهدف النصوص ـ وهي قطعية الثبوت قطعية الدلالة ـ إلى أن يكون المسلمون ـ وهم يحملون للبشرية رسالة البناء الحضاري الأمثل ـ أكثر وعياً للحقيقة وتصديقاً بها، واستخداماً واعياً لما تنطق به الوقائع في ميادين الصراع والفتن... على كل هذا: تزداد الحاجة إلحاحاً ـ يوم بعد يوم ـ إلى تنمية الإحساس بضرورة التدبر، وشدّ أبناء الأمة إلى الاستمساك بما جاء به الهدي الرباني من حقائق لم يطرأ عليها ناسخ، لأنها لا تقبل النسخ، وصدقتها الوقائع وما تزال، وإلى الاعتبار بصنيع هؤلاء المخلوقات مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وما دعا إليه: رداً على إحسانه إليهم وكريم سلوكهم معهم سواء بالوثيقة التي أعطت كل ذي حق حقه ونظمت ـ في مقابل ذلك ـ الوجبات في حدود النصفة والعدل بين الجميع، أو في الحركة والتعامل.

ومن ذا الذي لديه مسكة من سلامة التفكير بتجرد ونشدان للحق: ينسى تحريفهم الكلم عن مواضعه وكتمانهم ما أنزل الله عليهم في التوراة من صفات النبي ﷺ والتبشير بمبعثه، مع أنهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم؟!

إن أمتنا ـ وهي تعمل على أن تبني تاريخها الحديث بعقول وأيدي أبنائها المعتزين بانتمائهم إليها، وتستأنف مسيرة العطاء الحضاري المتميز في ضوء المنهج المتكامل المتوازن الذي سداه ولحمته مفاهيم الإسلام دون تجاهل للواقع الإقليمي والعالمي...

إن أمتنا ـ وهي تشمر عن ساعد الجد لتحقيق ذلك ـ مدعوة أكثر من أي وقت مضى، إلى إزاحة الركام أياً كان لونه وانتماؤه الخارجي، وعناصر الهدم، ما كان من داخل الأنفس وما كان من خارجها، كيما تسلم لها قواعد البناء مفيدة من التطور العلمي وغيره، وتنمو على أرضها العوامل التي تحقق قدرتها الذاتية بحيث تفكر بعقول أبنائها، وتستقل بصنع القرار المصيري، والحفاظ على ما به وحدة كلمتها واجتماع العقول والقلوب على كلمة سواء، نابعة من أصالتها المصونة بالعبودية الصادقة لله عز وجل، لا لأحد سواه!

ولا بد من التنبه إلى أن الغفلة عن طبيعة الصراع بينها وبين اليهود، وعن تاريخ بدء هذا الصراع معهم لم كان؟ وكيف كان؟ ما هي عوامله وما هي مظاهره: نقطة ضعف هي عون للعدو فيما يريد.

إن هذا العدو المثقل بحقد القرون: إذهو حتى على أصعدة الفكر والثقافة والإعلام، ناهيك عن الصعيد الاقتصادي.. لا يدع باباً من أبواب الدس والمكر وقلب الحقائق، إلا ولجه خدمة لمعركته مع هذه الأمة ذات الرسالة الإنسانية، والتي ناصبها العداء منذ وقفة التوراة على البشارة بنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، واشتد غليان الحقد في نفوسهم يوم أشرقت شمس الإسلام على الدنيا، واهتزت جنبات البلد الأمين بالكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وبدأت تتنزل الكلمات الهاديات وحياً من السماء ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء:٤٤-٤٥].

❁❁❁

على طريق البناء والنماء

صنيع اليهود.. والرد الإيجابي

أشرنا في كلمات سلفت: إلى أن جانباً من جوانب الصراع مع أعداء الحق والإنسان، يتمثل في الثقافة والإعلام، حيث الدعاوى المريضة في حقهم التاريخي، وأنهم شعب الله المختار الذي لا يُسأل عما يفعل، والمفتريات التي لا تقف عند حد. الأمر الذي يؤكد ضرورة مراعاة التوعية وتعميق الصلة بالحقائق القرآنية عند البناء، وتنمية الملكة القادرة على استنطاق الوقائع التاريخية في الماضي والحاضر: فذلك أمر من شأنه أن يحدد المواقف كما ينبغي، وأن يرتفع بالأجيال إلى المنطلقات الصحيحة التي رسمتها معالم القرآن الكريم، وترجمتها إلى عمل وحركة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

ويزيد الأمر تأكيداً أن بعضاً من أبناء جلدتنا يُدخل عليهم - إذا أحسنا الظن - من طريقين: أولُهما - جهل أو تجاهل الحقائق التي نطق بها الكتاب والسنة ثم وقائع التاريخ. ثانيهما - انهزام نفسي يؤدي إلى الانخداع بما يدعيه العدو من الموضوعية والانسجام مع حقائق الدين والتاريخ. علماً بأن الموضوعية المدّعاة والانسجام المزعوم منه براء. وعلى هدي الضرورة المشار إليها، يبدو عجباً من العجب ما يستغربه بعض الناس من مواقف يهودية مفرطة في المادية تتعلق بالاقتصاد والمال، وسلوك السبل الهابطة لتوفير الأغراض التي لا تمتُّ إلى الإنسانية بصلة.. يعجبون ويأخذهم الاستغراب، مع أن واحداً من المعالم القرآنية - وما أكثرها - قد وقف المسلمين على أن الانحراف والمادية في تحصيل المال والوصول إلى الهيمنة الاقتصادية من أي طريق - بلا استثناء - والشحّ الذي لا يتناهى، وارتباط ذلك بسلوك اليهودي وفكره!! كل أولئك من طباعهم وخِلالهم

المتأصلة العفنة التي لا تقبل المماراة أو الشك، حتى وصل الأمر بهم في هذا المضمار إلى البذاءة في كلام عن رب العزة جل جلاله وإساءة الأدب معه سبحانه: من ذلك ما نجد في سورة آل عمران ـ وهي من أطول السور المدنية ـ بدءاً من الآية الحادية والثمانين بعد المائة، ذلكم قول الله جلت حكمته: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران:١٨١-١٨٤].

هذه الظاهرة الأثيمة من إساءة الأدب والنطق بفاحش القول على ساحة الرغبة الجامحة في الحرص على المال، وحب السيطرة على الاقتصاد، ينبغي أن تشد الأمة وهي تواجه تحديات متنوعة، لعل من أشرسها تحديات اليهود ومن يظاهرونهم أو يدورون في فلكهم ونشدان رضاهم... أجل ينبغي أن تشدها إلى اليقين بحقيقة ما يحمل اليهوديُّ بين جنبيه من الانحراف، وإلى المزيد من الإحكام في وضع لبنات البناء من كل جوانبه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، لأن التأثر والتأثير متبادل بينها، ولا بد أن يرافق ذلك، تنميةُ الكفايات التي تحفظ ثروة الأمة وتضعها موضعَها على الطريق التي تبني القوة وتواجه التحديات باللغة المناسبة التي لا يصلح غيرها. وذلكم هو الرد الإيجابي الطبيعي على تخرصات أعداء الله ومحاولاتهم الدائمة أن يمسكوا ـ هم ـ بعاتق الميزان في الاقتصاد، كيما يصلوا من وراء ذلك إلى ما يبتغون من الفساد والإفساد وإقامة ما يدعونه (إسرائيل الكبرى) على حساب الحق وأهله.. والله من ورائهم محيط.

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير الذي جاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين.

على طريق البناء

الهدي النبوي.. ومعالجة أباطيلهم

هذه كلمات موصولة بما وجه إليه المعلم القرآني ـ فيما رأينا في كلام قريب ـ من دلالة الآيات في سورة آل عمران على ظاهرة يهودية عميقة الجذور من بواعثها التناهي في الحرص على المال والهيمنة الاقتصادية دونما ضابط من دين أو خلق.. تتمثل في إساءة الأدب مع الله عز وجل، والبذاءة في نسبة ما لا يُنسب إليه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه. والآيات المومى إليها: هي قوله تعالى:﴿لقدْ سمع اللهُ قوْلَ الَّذين قالُوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحْنُ أغْنياءُ سنكْتُبُ ما قالُوا وقتْلهُمُ الأنبياء بغيْر حقٍّ ونقُولُ ذُوقُوا عذاب الْحريق ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١] إلى قوله:﴿فإن كذَّبُوك فقدْ كُذِّب رُسُلٌ مّن قبْلك جاءُوا بالْبيِّنات والزُّبُر والْكتاب الْمُنير ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤].

ولعل من الخير أن نعلم أن هذه الآيات قد تنزلت تكشف عن قالة اليهود، وقالة السوء هذه... والمسلمون يتحركون في كل ميدان، بناءً للإنسان في عقله وقلبه وجسمه، وتنميةً لقدرته على متابعة المسيرة الخيّرة في ظل مقتضيات الدعوة، وبناءً للمجتمع في كل جوانبه الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية وغيرها على أساس من الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» ورسول الله ﷺ يقود هذه العملية الكبرى التي هي ـ في حقيقتها ـ بناء الخير للإنسانية كلها، ويبذل قصارى جهده في نفي الأذى عن الحركة، وإبعاد عناصر الهدم اليهودية وغيرها عن طريق البناء والبُناة.

وكانت عناية الله من وراء ذلك كله تحفظ وتكلأ وترعى، حيث يتنزل الوحي على الوقائع، وعلى محور الهداية بشكل عام. ولقد ورد في سبب نزول الآيات المشار إليها عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير: أنه لما نزل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿من ذا الَّذي يُقْرضُ اللهَ قرْضًا حسنًا فيُضاعفهُ لهُ أضْعافًا كثيرةً واللهُ يقْبضُ

ويبصُطُ وإليه تُرجعون ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل ﴿لقدْ سمع اللهُ قوْلَ الَّذين قالوا إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ﴾ [آل عمران:١٨١] الآيات.

هذا المعنى العميق الجميل الذي يشرق به قول الله سبحانه: ﴿من ذا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قرْضًا حسنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] والذي يرف على قلب المؤمن فيدفعه إلى البذل في سبيل الله عن رضىً وطمأنينة طمعاً بفضل الله عز وجل، لأن هذا البذل يبلغ من السمو أن يكون قرضاً حسناً لله الذي بيده ملك السماوات والأرض والمال ماله والخير خيره.. هذا المعنى الذي يبلغ ما الله به عليم من السمو والإشراق: تحوّل في نفس اليهودي المادية الهابطة إلى هذا الذي كشفت عنه الآية الكريمة؟! الشح القاتل، والحرص الذي يتجاوز عند هؤلاء الأناسي دعوى الدين والخلق.. كل ذلك حملهم ـ وهم أعداء الله والإنسان ـ على القولة النكراء: ﴿إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ﴾كبرت كلمة تخرج من أفواههم وساء ما يظنون.

والجناية على الإنسانية بمدلول هذه الظاهرة عند هؤلاء: قرينة الجناية عليها بقتل رعاة الهداية والخير أنبياءِ الله عليهم الصلاة والسلام، ومن هنا جاء الاقتران بينهما في الآية الكريمة ـ والله أعلم ـ في الوعيد والجزاء ﴿سنكْتُبُ ما قالُوا وقتْلَهُمُ الأنبياء بغيْرِ حقٍّ ونقولُ ذُوقُوا عذاب الْحريق ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران:١٨١].

هذه حقيقة قررها القرآن الكريم وشهدها الصحابة رضوان الله عليهم، وهم يزاولون عملية البناء بقيادة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. والغفلةُ عنها أشبه ما تكون بشد عجلة التاريخ إلى الوراء، وحين تصدق الأمة في إحكام البناء، لا غنى لها عن خط موازٍ مصاحب ينفي عناصر الهدم، ويحول دون الأذى، ودون أن يتسرب فيصدِّع البناء.

ودواء الأمة من هذا العنصر الهدام، اقتداء واعٍ حكيم بما صنعه سيد القادة الأمناء ذوي البصيرة ﷺ حين عالج اليهود بالقوة الفاعلة ـ بأوسع معانيها ـ بعد أن نقضوا العهود ولم يُجد الإحسان فضلاً عن الإقناع... وهل تلد الحية إلا الحية؟وصلى الله وسلم وبارك على إمام الهداة معلم الناس الخير.

البُناة في مجتمع المدينة.. وموقف أعداء الإنسان

لا نزال مع المعلم القرآني في عطائه على ساحة الكشف عن تلك الظاهرة اليهودية في ميدان المال والاقتصاد، حيث الحرص الذي أعمى بصائرهم، فنطقوا بالهجر المستكره المستنكر من القول، ونسبوا إلى الله سبحانه ما هو منزّه عنه سبحانه وتعالى، ولبئس ما يقولون من دعوى أن الله فقير وهم أغنياء!! وقد مر بنا أن سبب نزول الآيات التي نلمح إليها في سورة آل عمران ما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يُقرضُ الله قرْضًا حسنًا فيُضاعفهُ لهُ أضْعافًا كثيرةً واللهُ يقبضُ ويبصُطُ وإليه تُرجعُون ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥] حيث قال اليهود هنالك ما قالوا، وجاء الرد عليهم يبين الافتراء الكاذب، ويحمل الوعيد، وما سيكون لهم يوم القيامة من عذاب الحريق وسوء المصير.

على أن هنالك رواية أكثر تفصيلاً في الموضوع تدل على مقدار تفاعل الصحابة رضي الله عنهم مع الدعوة، وحقيقة أنهم كانوا يزاولون أمانة إنشاء المجتمع المسلم - مستبصرين - وقد أخذت البنية الثقافية أبعادها بشكل ملحوظ، وأصبح كل واحد منهم في فهمه وتصرفه: صورة حيّةً متحركةً للقيم التي آمن بها.. هذا إلى جانب الإدراك لطبيعة الأرض التي يتحركون عليها ليمارسوا عملية البناء الكبرى على شكل يتسم بالتكامل، وينمي في المجتمع الوليد كل مقومات الوجود الذاتي.. بعد الذي كان قبل الإسلام من التبعية والفرقة وسلطان يهود البارز في ميداني الثقافة والاقتصاد: فقد ذكرت كتب السيرة ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المِدراس فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له:

اشيع. فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله واسلم. فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، لو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما اعطانا الربا. فغضب أبو بكر رضي الله عنه، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فاكذبوا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ابصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟» فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص ﴿لقدْ سمع اللهُ قوْل الذين قالُوا إنّ الله فقيرٌ ونحنُ أغْنياءُ﴾: [آل عمران: ١٨١] . وأورده الحافظ ابن كثير يرحمه الله: من رواية ابن أبي حاتم.

والحق أن هذه الرواية كما تجلّي حقيقة اليهودي في نظرته إلى المال وتحكيم معايير ذلك فيما يقول وفيما يفعل، وسوء أدبه البالغ مع الله عز وجل، تقدم لنا بشكل واضح ذلك الإنسان المسلم الذي أحكم بناؤه العقليُّ، والنفسيُّ والفكريُّ، ونمت في أعماقه بواعث الحراسة الأمينة للعقيدة الصحيحة التي قام عليها مجتمع المدينة بعد الهجرة... وكان من هذه الحراسة المتبصّرة ما وصل إليه المسلمون بعد التجربة المريرة مع يهود أنه لا يصلح في مقارعتهم إلا اللغة التي واجههم به رسول الله عليه الصلاة والسلام جهاداً صادقاً في سبيل الله..

صلوات الله وأزكى تسليماته على سيد الحكماء والمجاهدين وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

حقيقة القوم.. وبنيتنا الثقافية

من ملامح الإعجاز في القرآن الكريم، أنه عندما يريد تقرير حقيقة تتخذ طابع الإطلاق والديمومة، لا يدع السبب الذي ذكرت معه يحتويها على شكل يزعزع إطلاقها وديمومتها... ولكنك تجد لكل من الخصوص والعموم مكانه من الواقعة الخاصة والحقيقة المرتبطة بها على وجه العموم والإطلاق... وذلك ما رأيناه في كلمات قريبات دلّ المعلم القرآني معها على ظاهرة غاية في السوء ما نزال نراها في يهود اليوم كما رأيناها في يهود الأمس. سداها ولحمتها شدة الحرص على المال أياً كان الطريق لتحصيله، والتفاني في سبيل السيطرة على الاقتصاد ـ كما هو ظاهر في هذا العصر ـ مهما كلف ذلك من تجاوز لأبسط القيم وحقائق الدين والأخلاق!!

آذنت بهذه الظاهرة تنبيهاً للمسلمين، ولبني الإنسان في كل عصر: آياتٌ من سورة آل عمران بدئت بقوله تعالى: ﴿لقدْ سمع اللهُ قوْل الّذين قالُوا إنّ الله فقيرٌ ونحْنُ أغْنياءُ﴾ قدّمتها وأعطتها صنعة الإطلاق بالنسبة لليهود عموماً، من كان منهم في عهد موسى عليه الصلاة والسلام، ومن كان في عهد نبينا المصطفى ﷺ ومن أتى ويأتي بعدهم. وكان ذلك على شكل لم يدع لسبب النزول ـ وهو سبب خاص ـ أن يحدَّ من هذا الشمول لهم جميعاً أينما كانوا وحيثما وجدوا، إلا من تحوّل إلى الإيمان وسلك سبيل الاستقامة والخير.. فالله تعالى يقول: ﴿ لقدْ سمع اللهُ قوْل الّذين قالُوا إنّ الله فقيرٌ ونحْنُ أغْنياءُ سنكْتُبُ ما قالُوا وقتْلهُمُ الأنبياء بغيْر حقٍّ ونقُولُ ذُوقُوا عذاب الْحريق ﴿١٨١﴾ ذلك بما قدّمتْ أيْديكُمْ وأنّ الله ليْس بظلّامٍ للْعبيد ﴿١٨٢﴾ ﴾[آل عمران: ١٨١-١٨٢]. وهؤلاء الذين سمع الله قولهم، نفر من اليهود في عصر النبوة، ولكن الآية نقلتنا إلى التعميم، لما أن الحكيم الخبير سبحانه وتعالى هو أعلم بخلقه:

فاليهودي هو اليهودي، لا يغير من صغار نفسه ومسلكه الماديِّ الماكر اختلاف الزمان أو المكان، أو زخرف العناوين، ودعوى التحضر وحق التعالي على الناس، وعند الحاجة يلجأ إلى النفاق والتمويه.

من أجل ذلك ـ والله أعلم ـ كانت النقلة ـ والإشارة إلى هذه الحقيقة كثيرة في القرآن ـ إلى ظاهرة معروفة عنهم وهي قتل الأنبياء بغير حق، وجاء الوعيد الشديد على الأمرين جميعاً وهما: قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقتلهم الأنبياء بغير حق!! وأنت واجد أن الذين جاهروا الله بالهجر من القول في موضوع الفقر والغنى هم أولئك الذين عاصروا التنزيل الحكيم في عصر النبوة في المدينة المنورة وما حولها، وأن الذين قتلوا الأنبياء بغير حق هم من أجدادهم الذيم لم تشرف بهم الأرض ولا بكت عليهم السماء قبل قرون وقرون.. غير ان الآية حكمت على اليهود بأنهم قتلة الأنبياء، وبأنهم لا يتورعون عن قول: إن الله فقير ونحن أغنياء.

هكذا تُلمح واحدةً من سمات الإعجاز في كتاب الله الكريم كلام العليم بذات الصدور: إذ إن الآية ـ كما أسلفنا ـ تجاوزت خصوص سبب النزول، إلى الإطلاق في هذه الحقيقة التي نشهد اليوم بعد خمسة عشر قرناً من الزمان تقريباً بواعثها. ولم تخل حقبة من تاريخنا معهم من ذلك!! الأمر الذي يدل على أنها ظاهرة يهودية، بل هما ظاهرتان ثنتان: سوء الأدب مع الله ـ وما أسوا باعث ذلك ـ وقتل الأنبياء بغير حق!! وما أشنعها جناية على طريق الإنسانية: أن يقابل المصطفَوْن لهداية البشر وإسعادهم في الدنيا والآخرة بالقتل. وآخر صنيعهم على هذه الساحة محاولة قتل عيسى عليه السلام. وشاء الله أن يخيب فألهم فلم تنجح المحاولة. وقطعاً لدابر الجدل العقيم الذي يجنح إليه أهل الضلال تبرئة كاذبة لما يقترفون من المآثم، وتوبيخاً لهم وتقريعاً قال تعالى في أعقاب الآية السابقة: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢] فالله تعالى يكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق، ويدخلهم جهنم قائلاً لهم: ذوقوا عذاب الحريق ويبين أن ذلك قد أصابهم بما قدمت أيديهم، فالله لا يظلم أحداً من خلقه ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

الا إن البنية الثقافية في مجتمعاتنا اليوم بأمس الحاجة إلى مزيد من الوضوح بشأن ما قدم القرآن الكريم عن هؤلاء الفئام من الناس من حقائق، وما كشف عن ظواهر وخلائق، وتنمية الإحساس بأنهم كذلك على وجه اليقين . وأن الصهيونية مخلب أسود من مخالبهم.. وذلك مقدمة طبيعية للجدية في المواجهة في كل الميادين وبخاصة ميادين العلم والجهاد الماضي إلى يوم القيامة.



أوكار الهدم المضلّل.. ومسيرة البناء

الطريقة التي سلكها القرآن في الكشف عن خلائق اليهود من خلال الوقائع التي كانوا هم صانعيها ومن خلال أساليبهم الماكرة في التعامل الباطني، والوثنية الطاغية عليهم في علاقتهم بالمال والاقتصاد واستهداف السيطرة على الآخرين من خلالهما.. هذه الطريقة تتبدى حكمتها يوماً بعد يوم، عندما يتدبرها الناقد البصير في إطار علاقتهم بأمة الإسلام.

ومهما حاول إعلامهم وإعلام ذويهم والمؤتمرين بأمرهم، والغزو الفكري الذي يبثون سمومهم من خلاله ـ تقديمَ الشخصية اليهودية الصهيونية بصيغة جديدة أخرى! فلا يغيِّر ذلك من الحقائق التي عرض لها القرآن، وترجمتها فِعالهم إلى حركة واقعية بدءاً من سلوكهم المفرق في الانحراف مع الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام..

هذا السلوك الذي كان امتداداً لمواقف أجدادهم من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، الأنبياء الذين ما زالوا هم يتاكلون بالمتاجرة باسمائهم وعناوينهم.. ومن كل قضية تمتُّ إلى دين الله والحق بصلة، الأمر الذي جعل منهم في كل عصر أوكار هدم وركاماً يعترض رحلات الخير والبناء، وتنمية القدرة الذاتية عند الأمة.

وهنا تكمن الضرورة التي نكرر التذكير بها، أعني ضرورة أن يكون لهذه الحقائق التي تحدد ماهيتهم وطبيعة سلوكهم لتحقيق أغراضهم والمنطلقات التي يرتد إليها تعاملهم مع الآخرين ـ مكانها الطبيعي في البناء الثقافي، والحكم على الوقائع وصانعيها وتفسير التاريخ المشترك عند أجيال الأمة، كيما يتسق ذلك مع رحلة الصراع بين أمتنا وبين أولئك الذين ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.. وكيلا نكون ـ كمن يضرب في حديد بارد، أو يكتب على الماء.

لقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ـ وهذا خبر من عند رب العالمين ـ ولكن ضعف المسلمين وتخلفهم عن الإعداد الذي أمر الله به للجهاد، والذي له ما له من الميادين التي يخضع الكثير منها للتطور العلمي التقني.. ناهيك عن تفرقهم الذي أورث فشلهم وذهاب ريحهم.. ولكن هذا كله مضافاً إليه موالاة أعداء الله في كثير من الأحيان، وأخذ اليهود بأسباب القوة، أظهرهم بهذا المظهر الذي يبدون عليه، فقوتهم ـ على الحقيقة ـ أبعد ما تكون عن أن تكون ذاتية أصيلة، ولكنها في قدر كبير منها ـ على الأقل ـ تتصل بالوضع الدولي وبما عليه المسلمون ــ وهو الأهم ـ من واقع لا يغبطون عليه.. وإن كانت بعض تباشير الخير من هنا وهناك في خضم المخاض الذي يشهده العالم الإسلامي تظهر في الأفق والحمدلله والعاقبة للمتقين!

وفي عود على بدء: يشدنا المعلم القرآني إلى متابعة النظر في الآيات التي بدئت بقوله تعالى:﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨١]. إذ لا يكفي أن يكون همُّنا وصف الحقيقة كما كشفت عنها الكلمات النورانية وحسب: بل ما بدَّ من استثمار الأمانة في حملها وأنها اليقين الذي لا يقبل الشك، ومقتضى الإيمان والمعرفة أن تأخذ الحقيقة القرآنية مكانها اللائق في مناهجنا العلمية والتربوية والإعلامية.. وأن لا نفقد الشجاعة في تحديد ما هو صواب وما هو خطأ، على صعيد الرصد للأسباب والنتائج في علاقاتنا مع الأعداء قديماً وحديثاً. إن هول الظاهرة المنكرة التي تحدثت عنها الآيات الكريمات، وما رتب الله عليها من أليم العذاب في الآخرة، والإيذان بأن ما يناله أصحابها هو عين العدل.. إن ذلك كله قمين بأن يشد أزر من يتهمون بالجحود والبعد عن معطيات الواقع عندما ينادون بالاستمساك المبصر بما أوحى الله إلى نبيه عليه الصلاة والسلام وعدم الركون إلى الذين ظلموا وظاهروا على الإسلام والمسلمين، ويربؤون بالأمة ـ وهي في حلبة الصراع بين حقها وباطل الآخرين ـ أن تتزحزح عن مواطن الحق أو أن تهمل إعداد العدة كما أمر الله وبيّن بالقول والفعل نبيه عليه الصلاة والسلام، وشرف صحبه الكرام باتباع النور المبين والجهاد في سبيل الله، وزكى الله صنيعهم بقوله سبحانه: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٣] والحمد لله أولاً وآخراً ولله عاقبة الأمور.

البناء.. وأمانة التوعية في المواجهة

سبحان الله.. ما أشبه الليلة بالبارحة.. فكم تشكو أمتنا والعقلاء من غيرنا، من بهتان اليهود وقلبهم الحقائق، وإلباس العدوان والاغتصاب ثوب الشرعية والحق الموروث!! وهذا الذي نضجُ منه بالشكوى في العصر الحاضر إلى من لا جدوى منهم ولا نفع: دلنا القرآن قبل ألف وأربعمائة عام أو تزيد، على أنه هو التصرف الطبيعي الذي يتسم به سلوك من غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً. الأمر الذي يؤكد ما سلفت الإشارة إليه غير مرة من أن البعد الزمني لم يغير، ولن يغيْر من الحقيقة شيئاً، ولكن قد تختلف الأساليب التي انضم إليها الإفادة من معطيات العلم الحديث، وتسخيرها لأغراضهم العدوانية التي يريدون.

فبعد الآيات التي سعدنا باصطحابها ـ أو باصطحاب الخطوط العامة لمدلولاتها ـ وهي قوله تعالى في سورة آل عمران:﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴿١٨١﴾﴾[آل عمران:١٨١] إلى قوله:﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[آل عمران:١٨٢] نقرأ في الآية التالية وهي الثالثة والثمانون بعد المائة قول الله جل شأنه:﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران:١٨٣] تحمل هذه الآية الكريمة تكذيب هؤلاء اليهود الذين زعموا لمحمد ﷺ أن الله عهد إليهم في التوراة أن لا يؤمنوا لرسول ويصدقوه في دعوى الرسالة من عند الله، حتى يأتيهم بقربان تأكله النار.. أجل حتى يأتيَهم بما يتقرب به إلى الله من نَعَم وغيرها ـ كما يقول العلماء ـ فإن قُبِلَ جاءت نار بيضاء من السماء فأحرقته، وإلا بقي مكانه، وعهد إلى بني إسرائيل في ذلك إلا في المسيح ومحمد.. لقد زعموا ذلك، فأُمر النبي ﷺ أن يقول لهم توبيخاً على تلاعبهم بأمور الدين، وكشفاً لبهتانهم: «قد جاءكم رسل من قبلي كزكريا ويحيى وسائر من قتلوا من

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات وبالقربان الذي تأكله النار، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين في دعوى انكم تؤمنون بهم وتتبعونهم إن جاءوكم بما تطلبون من الخوارق.. غير أن الذي حصل انكم مع تحقيق ما رغبتم قتلتموهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين في انكم تؤمنون عند الإتيان به».

إن الآية دالة بوضوح على إصرارهم على القتل، لأنهم علقوا إيمانهم على معجزة طلبوها، وجاءت المعجزة، فلم يقفوا عند التكذيب وعدم الإيمان، بل أقدموا على قتل أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين أجرى الله على أيديهم المعجزات، لتكون دليلاً يدعو إلى التصديق والاستجابة لدعوة الحق من عند الله عز وجل.

ويلاحظ أن الخطاب هنا لليهود الذين كانوا في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، وإن كان الإجرام المتحدث عنه قد وقع من أجدادهم، على الجميع غضب الله. وإنما كان ذلك ـ كما أشرنا من قبل ـ لأن الجبلة واحدة، والسلوك واحد، والأحفاد راضون كل الرضى بما صنع الأجداد من هذه الموبقات التي كانت عدواناً على رسالة السماء والرسل، وكان لها ما لها من انعكاسات سيئة في حياة الناس. وهؤلاء الأحفاد غير البررة حاولوا قتل عيسى عليه السلام. واليهود في عصر النبي ﷺ ـ مع كل إحسانه إليهم وتوثيق ما لهم من حقوق ـ حاولوا قتله غير مرة ومن المحاولات العزمُ على إلقاء حجر ثقيل عليه، ودسُّ السم في الطعام. غير أن الوحي أطلعه على صنيعهم. وعندما أخفقوا فيما قصدوا إليه عمدوا إلى ما لا يقل شناعة وأذى، وها هو ذا تاريخهم معنا عبر القرون.. وهو تاريخ زاخر بحلقات اليهودية واذيالها هدماً وهدّامين. وهكذا نعود لنقول: ما أشبه الليلة بالبارحة، وأن ما تقفنا عليه معالم الكتاب العزيز في شأن اليهود وغيرهم من الأعداء، يظل أمانة يجب اداؤها على صعيد المعرفة والتكوين واستنطاق الوقائع وما تعطي من دروس، كيما تكون الأجيال كفاء التحديات التي يلزمها ألوان من الإعداد، تبدأ بالاقتناع المنبثق من العقيدة وتبنّي حقائق الكتاب والسنة وما تمليه الوقائع، لتأخذ طريقها إلى العلم والأخذ المدروس بالأسباب، وتنمية روح الجهاد وطلب الشهادة في سبيل الله والتسلح المطلوب الذي توجبه المرحلة ـ بعد الإعداد الروحي ـ في أعلى كفاياته والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مواجهة يهود... ومن على شاكلتهم

كلما تفاقمت أحداث المواجهة والتحديات، وتلونت أساليب الوصول إلى سيطرة الباطل باسم الحق. والعدوان الآثم باسم الحصول على الحق المتوارث المشروع. وما هو من ذلك بسبيل في حلقات البهتان والمكر والخديعة، والعمل على وضع أمتنا موضع الضعيف المستجدي من عدوه المستكبر المتغطرس.. كلما تفاقمت تلك الأحداث التي تؤرق المخلصين تجددت الحاجة إلى تعميق الصلة بالحقائق التي كشف عنها الخبر الصادق والمنهج الواجب سلوكه على صعيد التعامل مع التحديات..

ولقد كان مما وقفنا عليه واحد من المعالم القرآنية المباركة في سورة آل عمران، الكشف عن بعض السمات السلوكية التي تبرز واحدة من الظواهر اليهودية. تلك الظاهرة التي تقوم على تجاوز كل القيم عندما تكون القضية ذات علاقة بالاقتصاد الذي يبغون ربوياً ينفذون من خلاله إلى الهيمنة وفرض ما يريدون في مجال السياسة والإعلام وما إليهما، وبالمال الذي يعملون على ابتزازه من كل طريق ممكنة لديهم بعيداً عن كل ما يدّعى من الانتساب إلى دين سماوي أو خلق فاضل مزعوم. يصحب ذلك كلّه إصرارهم على الأذى ومحاولة ستر الضلالات بالدعاوى الباطلة والبهتان: فقالوا في الأولى: إن اللّه فقير ونحن أغنياء في مقابلة دعوة اللّه عباده إلى الإنفاق في سبيل اللّه وتسمية ذلك قرضاً حسناً له سبحانه. وزعموا في الثانية أن اللّه عهد إليهم أن لا يصدقوا رسولاً من الرسل حتى يأتيَهم بقربان تأكله النار. وتبيّن كذبهم بقتلهم أنبياء جاؤوهم بالبينات وبما طلبوا، وذلك ما كشف عنه المعلم القرآني أيضاً في قول اللّه جل شأن ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾[آل عمران:١٨٣].

وما من ريب في أن تجدد الحاجة إلى وعي الحقائق كما جاء بها القرآن وبينتها السنة المطهرة، يوجب أن تأخذ المعرفة الصحيحة بها: أبعادها المطلوبة في البنية الثقافية وتكوين الاتجاه الفكري عند المسلم.. ولسوف يعمل ذلك عمله في تنمية

القناعة الحقة والمشاعر الصادقة التي تحمل الجيل المسلم على أن يقف الوقفة التي تمليها العقيدة، ويستلزمها التصديق بحقائق الكتاب والسنة في مواجهة أعداء المغضوب عليهم وأعداء الحق والإنسان. وإذا كان الأمر على هذه الأهمية، فلا مندوحة ـ في الوجه المقابل ـ عن تصور ما ينال الأمة من الأذى حين تهمل ـ وهي تعمل على بناء قدرتها الذاتية المتميزة ـ إحكام الصلة بين الجيل المسلم وبين عطاء المعالم الخيّرة في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، وفي الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ المبلغ عن الله والذي لا ينطق عن الهوى!!

ناهيك عن أن هذا يكون عوناً للعدو من حيث يريد الموفقون أو لا يريدون. ذلك بأن ما قرره القرآن ـ مثلاً ـ في شأن من باؤوا بغضب من الله، ليس كلاماً لتزجية الوقت أو التفكه الأدبي ـ أعوذ برب القرآن من أن يحسب ذلك حاسب أوتي أثارة من دين أو عقل ـ ولكنه بيان الهداية للمسلمين بل ولمن وراءهم لو نشدوا الحق، في منهج رباني متكامل يحملهم إلى ميادين البناء الصالح للفرد وللمجتمع، وينبههم على مكامن الخطر في واقع أولئك الذين لا يرجون لله وقاراً، ولا يحسنون إلا الهدم والعدوان على الحق وأهله، حتى الأمور المأمونة لديهم يسخرونها لتحقيق ما يحلمون به من سيطرة باطلهم واستكبارهم في الأرض على حساب المسلمين وديار المسلمين.

ولقد تحسن الأمة صنعاً إذا هي عملت ـ مع الأخذ بالأسباب وفق سنن الله ـ على أن يكون توثيق الصلة بما جاء من وعد الله ووعد رسوله عليه الصلاة والسلام: هو الخطوة الأولى على طريق البناء الذاتي والحيلولة دون التقليد الأعمى لما عليه الأقوياء المتجبرون، ودون عوامل الضعف والخور: أن تتسرب إلى الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى..

ومن أراد مزيداً من الأدلة على صدق هذه المقولة الخيّرة فليستنطق الواقع بتجرد وشعور بالمسؤولية وجرأة في البحث عن الحقيقة وإنكار للذات. والله مع الصادقين المخلصين ولن يتِرهم أعمالهم.

البناء... وصورة أخرى للظاهرة في مواجهة باطل أصحابها

مما لا ريب فيه أن عملية البناء الكبرى التي قاد خطاها سيد الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، وقدَّم فيها المنهج والتطبيق، كان يكتنفها الكثير من المشاق والصعوبات، لكن ذلك ـ على شدته ـ ذلَّله ـ بعون الله ـ الإيمان الصادق عند من ولاه الله أمرهم، والطاعة الخاشعة لله ولرسوله، والاستعداد للبذل وحس التحمُّل للمسؤولية ورعايتها في كل ميدان ندبت إليه القيادة الحكيمةُ الفردَ أو الجماعة إليه. أضف إلى ذلك توافر العيون المبصرة التي قدرت على تصنيف المهامّ والقضايا في ضوء الموالاة والمعاداة. ولا تسل عن عناية الله ورعايته لمن أخلصوا دينهم له سبحانه، وصدقوا في المواطن، وفاءً بالعهد الكبير..

وكان من توفيق الله تعالى تنبيه أولئك العاملين بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام على تحركات يهود ومنطلقاتهم في التعاون مع أعداء الإسلام، وتشبثهم دون جدوى بما عهدوه لأنفسهم من سلطان اقتصادي وثقافي! أقول هذا ونحن على موعد مع صورة أخرى من صور الظاهرة التي تمثلت ـ مع سوء البواعث ـ ببذاءة التعبير وإساءة الأدب جهاراً مع الله عز وجل من قبل أعداء الحق والإنسان. وذلك في ساحة الحرص على جمع المال من حِله ومن غير حِله مهما تكن الوسيلة إلى ذلك.. تلك الصورة: هي ما جاء في الآية الرابعة والستين من سورة المائدة، ومعلوم أن هذه السورة المباركة ـ والقرآن كله مبارك ميمون ـ من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا

اللهُ ويسعَوْن في الأرْضِ فساداً واللهُ لا يُحبُّ المُفْسدين﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤]. ولا يخفى أن قالة السوء الآثمة هذه ـ والله أعلم ـ صنو قولهم: ﴿إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ﴾. والوقوف عند الظاهرة التي تسهم في الدلالة عليها هاتان الصورتان ـ وغيرهما كثير ـ مدعاة لتبيُّن الملامح الأساسية التي يقوم عليها السلوك المادي الهابط المعادي للفضيلة والحق عند اليهود. وهو سلوك يمكن أن تفسَّر ـ في ضوئه ـ كثير من تصرفاتهم التي قد يغفل عن مراميها من يضلُّون السبيل باسم التجرّد المزعوم والموضوعية المصطنعة.

على أية حال.. من الخير أن نذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو يبني المجتمع الأمثل في المدينة، ويقدمه للإنسانية صورة حيّةً عن تكامل البنية الإسلامية في الثقافة والاقتصاد والاجتماع والتدبير، ضمن إطار تشريعي قائم على عقيدة التوحيد لا يدع شاردة ولا واردة... من الخير أن نذكر أن الرسول الله ﷺ ـ وهو يفعل ذلك وينمي في المسلمين القدرة على الوجود الذاتي المتميز الذي يُملي ولا يملى عليه - قد كان الجانب الاقتصادي عنده بحسبان فقام ـ بشكل مبكر ـ بإزاحة سلطان يهود عن سوق التعامل، وأحدث للمسلمين سوقاً به يتحررون من ظلم أولئك المارقين واستغلالهم، وتكون لهم اليد العليا في تنمية الثروة، واستثمار الطاقات على صورة تتّسم بالاستقلال، والقدرة على تحكيم ضوابط الشريعة في البيع والشراء وتبادل المنافع، وفي سائر صنوف التعامل المالي والاقتصادي على وجه العموم. كما رغَّب في العمل والتعاون عليه، وشجَّع على الكسب المشروع، وشرع من الأحكام ما يكفل النشاط الاقتصادي كجواز السلَّم ناهيك عن الأحكام الأخرى التي جاءت في القرين الكريم وتفصيل بيانها ولقد تسبب ذلك ـ على ما يبدو ـ في هبوط الميزان الاقتصادي عند اليهود، وقلة الموارد حسب معاييرهم الظالمة، وضاقت بهم الحال قياساً بما سبق أن كانوا عليه قبل دخول الإسلام المدينة، حيث كانوا من أكثر الناس مالاً، ناهيك عن تسلطهم في سوق التعامل وحصر التحرك الاقتصادي ليكون وفق نهجهم وما يرغبون.. هنالك انطلقت ألسنتهم ـ وقد ضيق عليهم ـ بما اعتادوا عليه

من البذاء وسوء الأدب مع الله جل جلاله. فأضافوا إلى تكذيبهم النبي ﷺ أن اتهموا من لا تنفد خزائنُهُ وهو مالك الملك سبحانه بالبخل وعبّروا عن ذلك بقولهم ـ والعياذ بالله ـ: ﴿يدُ الله مغلولةٌ﴾ أي: مقبوضة عن إدرار الرزق عليهم، كنوا بذلك عن البخل. تعالى الله عن ذلك!! تماماً كما قالوا أخزاهم الله: ﴿إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ﴾ ولقد جاء الرد القرآني بالدعاء عليهم وتقرير أن الله تعالى هو الجواد الكريم سبحانه ﴿غُلَّتْ أيديهمْ﴾ أمسكت عن فعل الخيرات. وهو دعاء عليهم من الحكيم الخبير بما تنطوي عليه نفوسهم من الخبث وسوء الطوية ﴿ولُعنُوا بما قالُوا﴾ دعاء آخر بطردهم من رحمة الله بسبب قالة السوء هذه ـ وما أكثر أسباب الغضب عليهم والطرد من رحمته سبحانه ـ ﴿بلْ يداهُ مبسُوطتان يُنفقُ كيْف يشاءُ وليزيدنَّ كثيرا منْهُم مَّا أُنزل إليْك من رَّبِّك طُغْيانا وكُفْرا وألْقيْنا بيْنهُمُ الْعداوة والْبغْضاء إلىٰ يوْم الْقيامة كُلَّما أوْقدُوا نارا لِّلْحرْب أطْفأها اللَّهُ ويسْعوْن في الأرْض فسادا واللَّهُ لا يُحبُّ الْمُفْسدين (٦٤)﴾[المائدة:٦٤] مبالغة في الوصف بالجود، وثنّى اليد ـ كما يقول العلماء ـ لإفادة الكثرة: إذ غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه، وهو سبحانه ينفق كيف يشاء من توسيع وتضييق لا رادّ لفضله، ولا يقع منه ظلم لأحد من خلقه سبحانه وتعالى.

هذا: وقد تنبه علماؤنا ـ رحمهم الله ـ إلى أن الصورتين المومى إليهما تشتركان في التعبير عن الظاهرة التي ألمحنا إليها من قبل. وهو ما يجب أن يكون في الحسبان اليوم. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لآية المائدة: (يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة: بأنهم وصفوه ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه بخيل. كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بقولهم: ﴿ يدُ الله مغلولةٌ ﴾.

الا إن هذا النهم الأحمق للمال أصم سمعهم وأعمى أبصارهم فقالوا ما قالوا. واليوم يفعلون ويفعلون تحت مظلة الاقتصاد والحقوق المشروعة!! ولكن تبدو ملحةً ضرورة التنبه إلى صنيعهم، ولكم تصرخ هذه الحقيقة في الأمة أن تبني فتحسن البناء، فرحلة الصراع طويلة، وأن تحسن التعامل مع ثرواتها الاقتصادية وطاقاتها

البشرية، وموقعها الجغرافي، ورصيدها في التاريخ: فالله يمهل ولا يهمل، وذاكرة التاريخ لا تضيع صغيرة ولا كبيرة، واليوم الذي يقول فيه رب العزة الواحد القهار:﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الصافات:٢٤] آت لا ريب فيه.

وصلاة الله وسلامه على إمام المجاهدين وسيد البناة المربين وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين.



بناء المؤمن المجاهد.. في مواجهة أعداء الله ومخرقاتهم

هذا حديث موصول بعطاء المعلم القرآني في الآية الرابعة والستين من سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

لقد بدئت الآية بالإعلان عن قالتهم الظالمة التي لم تترك زيادة لمستزيد في نكارة الكلمة وسوء المنطق، إلا ان يكون شيئاً آخر من عندهم.. وختمت بتقرير أنهم يسعون في الأرض فساداً وكلمة (الفساد) هنا من المطلق كما يقول العلماء، وما أكثر الوان هذا الفساد الذي يسعون به في الأرض، ولعل من الإعجاز القرآني ما نشهده اليوم على ساحة الواقع من فسادهم وإفسادهم، ناهيك عن مسيرة السوء عبر التاريخ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وإذا تجاوزنا السطح إلى العمق: وجدنا في نطق اليهود بهذا القول المخزي الذي كشفت عنه الآية الكريمة ـ مع زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم على دين موسى عليه السلام وما جاءت به التوراة... ـ وجدنا في نطقهم هذا وما سبقه من الافتراء على الله بزعم أنه جل شأنه فقير ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ وهم أغنياء.. وجدنا ما يعنيه هذا العبث من اتخاذ الدين ستارة لضلالاتهم، وعدوانهم الذي لا ينتهي على الحق وأهله، في بهتان مردوا عليه يتوارثه بعضهم عن بعض جيلاً بعد جيل.. ثم ما كان للإجراء الاقتصادي الوقائي الذي اتخذه الرسول

الكريم في توجيه دفة الصراع بينهم وبين المسلمين، وهو تدبير لصالح الحق في مواجهة الباطل، فقد ساهم أن يوضع حد لاستغلالهم وغشهم، وأن ينقذ الإسلام مجتمع المدينة من سيطرتهم الجشعة على ساحة المال والاقتصاد، ويكون للناس رأيهم الذاتي فيما يأخذون وفيما يدعون، وهم يديرون حركة الحياة الاقتصادية في ضوء شريعة الإسلام.

ولن يُنهيَ رحلة الصراع ـ بين أمتنا وبين من لُعنوا وقست قلوبهم ـ لصالح الحق في مواجهة الباطل، إلا سلامةُ التصور لحقيقة ما عليه هؤلاء الناس كما دلت عليه معالم الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبي وسيرته عليه الصلاة والسلام، ومصاولتهم ـكما يوجب الدين الحنيف الذي لا يبغي إلا الخير لبني الإنسان ـ بالقوة المُعَدَّة على الوجه الذي ينبغي في شتى الميادين العسكرية والاقتصادية والعلمية والإعلامية وكل ما تتطلبه المعركة الشائكة المتشعبة الميادين، بعيداً عن مقولة الغفلة أو التغافل في التفريق بين اليهودية ومخلبها الصهيونية.

والسبيل إلى ذلك: بناء متكامل يحسب لكل قضية حسابها في إعداد الإنسان وتنمية طاقات المجتمع، وثرواته البشرية والمادية، وتسيير ذلك ـ في ضوء المنهج الرباني ـ على المحجة التي سلكها معهم محمد عليه الصلاة والسلام، سواء أكان ذلك في التعامل اليومي أم في غيره، حيث رافق ذلك الإعداد الصحيح، واتخاذ الوسائل الكفيلة ـ بعون الله ـ بالنصر عليهم، ووضع حد لفسادهم وإفسادهم، الأمر الذي كان فيصلاً بين الحق الصراح، والباطل المزخرف المموَّه، وموجهاً فريداً لبناء حضارة الإنسان.

ومن الخير: الإشارةُ إلى تأكُّد ما ورد من أن قالة الفقر والغنى التي أوضحت الكلمة الهادية في كتاب الله نسبتها إليهم: قد جاءت مع أختها في السوء وهي قولهم: «يد الله مغلولة» على لسان بعض علمائهم وهو فنحاص اليهودي أخزاه الله. وأن أبا بكر رضي الله عنه انكر عليه ذلك أشد الإنكار.. فتذكّر ذلك ضروري لتأكيد الحقيقة

وتنبيه من يغفلون أو يتغافلون. على أن بعض الروايات قد نسبت ذلك إلى شاس بن قيس ـ منهم ـ الأمر الذي يدل على أن ألسنة السوء فيهم قد ولغت في هذا الإثم ولقت في شره وفساده، كما يزيد الأمر توكيداً على توكيد. ولقد رد الله على اليهود قولتهم فيما افتروه وائتفكوه ـ كما أشرنا من قبل ـ فقال جل وعلا: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾. وقد وقع ما تضمنه الدعاء عليهم، فإن عندهم ـ على وجه اليقين ـ من البخل والشح، والحسد، والجبن، والذلة والمسكنة في أنفسهم أمراً عظيماً. ولا يغرنك تقلبهم المستكبر في هذه المرحلة التي سوف ينهيها ـ إن شاء الله ـ الجهاد الصادق المخلص تحت راية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله. أما الخالق جل جلاله: فهو المنزه عن أي صفة من صفات النقص، متصف بصفات الكمال جميعها. ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ فهو سبحانه واسع الفضل، جزيل العطاء لا معقب لحكمه ولا راد لفضله، كما جاء في قوله جل شأنه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [ابراهيم :٣٤] .

أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يمين الله ملأى، لا يغيضها سحاء الليل والنهار. ارايتم ما انفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه». قال: «وعرشه على الماء، وبيده الأخرى، الفيض أو القبض، يرفع ويخفض». وقال: يقول الله تعالى: «انفق انفق عليك». ثم قال تعالى في آية المائدة: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وإذن فالقضية هنا لا تتعلق بالحوار والإقناع: لأن البواعث منحرفة عفنة تقوم على الحسد والطغيان والحقد. من أجل ذلك يزدادون بما هو هداية ونور: طغياناً وكفراً والعياذ بالله. هذا في الوقت الذي يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً ـ والحمدلله ـ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢] .

فإذا كان نور الهداية الذي أنزل على رسول الله ﷺ يزيدهم ـ بحقدهم وسوء طويتهم ـ طغياناً وهو المجاوزة لحدود الحق هنا، كما يزيدهم كفراً وهو التكذيب والتعنُّت فيه: فمعنى ذلك أن الله ييئس المسلمين من صلاحية هؤلاء، لحوار أو اقتناع بالحق.

وإذن: فالمعقول المقبول: ملء الوقت بالإعداد الجاد وبناء شخصية المؤمن المجاهد على أساس من الإيمان والعلم، واستنفاد الوسائل المعنوية والمادية التي تنمي قدرة الأمة على نصرة الحق في خاتمة المطاف والله الهادي إلى سواء السبيل.



البناء.. وعنصرية أعداء الحق

«١»

تعدد ميادين المعركة مع أعداء الحق والإنسان ـ كما أسلفنا ـ يوجب على الأمة أن تُعدَّ لكل ميدان عدته، خصوصاً وإن القوة المأمور بإعدادها في القرآن جاءت مطلقة تتسع في إطلاقها لكل لون من ألوان الإعداد تنشئه من طريق العلم التجريبي أو التطوير الصناعي وما إلى ذلك مما يطرحه الزمن في أي عصر.. وما من ريب في أن الميدان الثقافي واحد من تلك الميادين لا بد له من الإعداد الذي يتناسب مع طبيعة المواجهة فيه. وقد كفانا القرآن الكريم مؤونة التنقيب والبحث، فلم يدع في بيان خلائقهم وما هم عليه زيادة المستزيد. والعنصرية الحاقدة التي ألمحنا إليها في كلمات سابقات: السمات البارزة في مكرهم وما يثقفون به أجيالهم في مواجهة الأمة المسلمة، وهي ذات نسب إلى ما كان منهم قبل قرون متطاولة من دعاوى كان منها أنهم مكرمون عند الله لأنهم يهود، ومن أجل ذلك لا تمسُّهم النار يوم القيامة إلا أياماً معدودات وقد رأينا في آيات من سورة البقرة ردَّ هذه الدعوى الباطلة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢]

وفي عود على بدء يمكّننا من توظيف الحقائق في معالجة الواقع والإسهام في إزالة ما يعوق الطمأنينة والاستقرار على صعيد الفرد والمجتمع.. نعود إلى التذكير بالفارق البعيد بين إكرام الله للأمة المحمدية بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس، وارتفع بها إلى الأفق الوضيء في الشهادة على الناس يوم القيامة، وبين دعوى اليهود من عند أنفسهم أنهم مفضلون مكرمون لأنهم عنصر فريد في بني الإنسان لا يُسألون عما يفعلون، مع أنهم على الأذى والعدوان وهدم القيم والانحراف عن التوحيد: مقيمون.

هنا تكريم يرتبط بالإيمان والعمل، وتشرط له الاستقامة على متابعة الطريق في كل ما من شأنه تحقيق رسالة الإسلام في النفس وفي المجتمع بناءً وإنماءً يعمر الأرض، ويفيد مما سخر الله في الكون. ويحمي إنسانية الإنسان من حيث هو إنسان ويؤول بالمؤمنين إلى سعادة الدارين. وهناك عند المفسدين في الأرض أعداء الله وأعداء الإنسان: دعوى عريضة تنفث بعنصرية محمومة تنعكس على تصرفاتهم، وبخاصة في مجال الاقتصاد والثقافة والإعلام لتحقيق أغراضهم في أرض المسلمين ظلماً وعُتُوّاً.

ولما كان التاريخ سلسلة متكاملة الحلقات: فلننظر إلى حلقة أخرى تزيد وضوح الرؤية فيما قلناه: فقدوقعت جريمة زنى من اليهود في العصر النبوي في المدينة، فتحاكموا إلى النبي ﷺ فحكم على الزانيين بالرجم فأبى اليهود فجيء بالتوراة فوُجد فيها النصُّ على الرجم في مثل الحالة الواقعة. فنزلت الآيات تبين أنهم أعرضوا عن حكم الله وكذبوا لأنهم يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم هذا الافتراء ذلكم قوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران:٢٣-٢٥].

إن انعكاس مشكلة الأمة مع اليهود على الواقع وما يُحدثه من معوقات لمسيرة البناء: جدير أن يشدَّ الأمة أكثر وأكثر إلى تعميق الحس الإيماني في النفوس وإلى تنمية قدرتها في شتى الميادين العلمية والاقتصادية وغيرها في مواجهة أناسي حدثنا القرآن عن أخبارهم ونبهنا إلى عدوانهم وعنصرتهم.



البناء... وعنصرية أعداء الحق

«٢»

عندما سلكنا سبيل التذكير بما عليه اليهود من دعوى أنهم شعب الله المختار وأن لهم أن يفعلوا ما يشاء لهم هواهم أن يفعلوه، وكشفنا عن الجذور الأولى لهذه الدعوى في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠] عندما سلكنا هذه السبيل، كان في الحسبان: اجتباء اللّه لأمتنا بجعلها خير أمة أخرجت، لا لنفسها فحسب بل للناس جميعاً، فهي خير أمة لخير الإنسانية، وقل مثل ذلك في مكرمة الشهادة على الناس يوم القيامة، فأين هذه من تلك؟

ومهما يكن من أمر: أود أن يُعلم أن هذه القضية لا يراد معالجتها من زاوية الوصف التاريخي مبتورة عن الواقع الذي يظهر عليه أعداء الإنسان في تعاملهم مع الأعداء والأصدقاء: بل هي قضية من الواقع وإليه: فما لم تُعَبّأ النفوس بالاقتناع الإيماني والعقلي بما يجب في مواجهة الأمة لليهود، وانهم بهه كما تدل عليه نصوص القرآن وكما كان سلوكهم مع رسول اللّه ﷺ من أول الأمر قبل اربعة عشر قرناً من الزمان بهه بجانب ضلالهم ومكرهم وما يتسمون به من العنصرية البغيضة ـ ما لم تعبّأ النفوس على هذه الشاكلة وتعمل العقيدة عملها في انطلاقة الخير. يظل في الأمر نوع من التخلخل لا يدعو إلى التفاؤل. ولكن حين يَسْلم المنطلق ويجري الإعداد بمختلف ميادينه الجهادية والعلمية والاقتصادية وغيرها: يكون من وراء ذلك كشفُ الغمة إن شاء اللّه. والمؤمن إذا عاش عاش سعيداً وإذا مات مات شهيداً.

هذا: ومما يؤكد هذا الذي نقول عن العنصرية في حياة هؤلاء القوم ومسلكهم في التعامل حيث يُنَشَّؤون على ذلك وينعكس على تصرفاتهم: ما عرضت له سورة آل عمران المدينة من إعطاء اليهود أنفسهم الحق في أن يؤدوا الأمانة أو لا يؤدوا. في أن

يفوا بالحق أو لا يفوا على الصعيد الاقتصادي في التعامل مع من يعاشونهم من العرب معللين ذلك بأنه ليس عليهم في الأميين سبيل. ذلكم قول الله تعالى في الآية الخامسة والسبعين من السورة: ﴿ومنْ أهْلِ الْكتاب منْ إن تأْمنْهُ بقنطارٍ يُؤدّه إليْك ومنْهُم مّنْ إن تأْمنْهُ بدينارٍ لاّ يُؤدّه إليْك إلاّ ما دُمْت عليْه قائمًا ذلك بأنّهُمْ قالُوا ليْس عليْنا في الأُمّيّين سبيلٌ ويقُولُون على الله الْكذب وهُمْ يعْلمُون ﴿٧٥﴾﴾. [آل عمران: ٧٥] فلا يؤدي هؤلاء الأمانة إلا بالإلحاح والمطالبة والملازمة في استخلاص الحق. هكذا منهم ومنهم. ولكن الآية ـ كما أشرنا ـ تعرض في الواقع لجذر هذه القضية العنصرية في سوء تعاملهم مع الآخرين، وهي أن عدم الأداء قائم على حقيقة في نفوسهم وهي أنهم هم أرفع مستوى من غيرهم. وأين منهم الأميون ـ على زعمهم ـ وهم العرب: فالبون شاسع بين اليهودي والعربي!! ﴿ذلك بأنّهُمْ قالُوا ليْس عليْنا في الأُمّيّين سبيلٌ﴾ يعني لا حرج عليهم في عدم الأداء والوفاء ما دام التعامل مع واحد من الأميين: فالله تعالى فضلهم وأحل أموال هؤلاء الأميين لهم. وترى أنه بعد هذا التعليل الذي يقدمونه لبيان ما حملهم على أكل الحقوق وعدم أداء ما ائتمنوا عليه. يرد الله فريتهم فريقهم في دعوى أنهم مفضلون ولا حرج عليهم في هذا التعالي بقوله تعالى: ﴿ويقُولُون على الله الْكذب وهُمْ يعْلمُون ﴿٧٥﴾﴾[آل عمران: ٧٥] .

وحين ننظر إلى القضية من زاوية استقرار المجتمع الاقتصادي وإبعاده عن التناقض والهزال: نجد أن هذا الذي كان عليه اليهود وهم يعيشون مع المسلمين في المدينة قبل الجلاء: أمر خطير لا بد أن يحال دونهم ودونه. وذلك ما فعله رسول الله ﷺ وهو يسهر على تكامل البناء الاقتصادي والاجتماعي ضمن البنية المتكاملة للمجتمع: فقد روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل قال نبي الله ﷺ: «كذب اعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

ثم قال تعالى مبيناً ما يجب أن يكون وما هي عاقبة الأوفياء الأتقياء:﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[آل عمران: ٧٦] .

هكذا يبدو واحد من جذور العنصرية التي تستخدم في فهم اليهود الاقتصادي وحرصهم على جمع المال من أي طريق وبأي ثمن.

والكلمة القرآنية تدل أوصح دلالة على ضرورة استخدام اللغة التي لا يصلح غيرها وللأمة خير أسوة بصنيع الرسول عليه الصلاة والسلام من حيث استخدام اللغة المناسبة عند المواجهة. ولله عاقبة الأمور.



البناء.. والثوابت وعنصريتهم

«٣»

ظاهرة العنصرية عند اليهود ودعوى أنهم شعب الله المختار، وليس عليهم سبيل في سوء التعامل مع الآخرين تأميناً لمصالحهم، واستغلال الفرص، واقتناص المناسبات لتأييد ما يدَّعون من ظلم وقع بهم، أو حقوق سلبوها والمتاجرة بذلك، وأن الدار الآخرة ـ بعد هذا كلّه ـ لهم دون غيرهم، لما أن لهم هذا التميز عند اللّه وعلى أرض الواقع..

هذه الظاهرة التي عانت البشرية وتعاني ـ وبخاصة نحن المسلمين ـ منها قد نبَّه القرآن الكريم ـ كما أسلفت ـ على وجودها فيهم وتمرُّسهم بالانتفاع بها لدى الصديق والعدو: في عدد من المواطن، وفنَّد أقوالهم في ادعاء ما يدَّعون.

ولعل في مراجعة ذلك ـ وهو من الثوابت التي نبَّه عليها القرآن ـ بإيمان ووعي لوقائع التاريخ في الماضي، وما يمور به الواقع اليوم: ما يسهم في تغيير هذا الواقع المشكو منه مُرُّ الشكوى، حيث أضاف الجهل بالثوابت القرآنية أو تجاهلها: سهاماً في الصميم قد تكون ـ أحياناً ـ أشدَّ من سهام العدو.

والعمل على تغيير الواقع، أو وضع اليد على الداء والإخلاص في أخذ الأسباب لشفائه مع الاستعانة باللّه تعالى، وصدق التوجه إلى ذلك بعيداً عن تأثير الرغب والرهب الدنيويين: كفيل بعونه تعالى أن يعيد الأمة ضمن منهج مرحلي إلى موقعها الطبيعي قوة ومنعة في مواجهة التحديات، وبخاصة ممن ضرب اللّه عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من اللّه.. ولكن:

خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفِري

ففي سورة البقرة - مثلاً - بعد أن ذكر الله من ضلالهم واتخاذهم العجل إلهاً يعبد، بعد الذي جاءهم موسى بالبينات، وبعد أن لقوا ما لقوا من عناية الله لهم في مواجهة فرعون وقومه نصرة للتوحيد المفترض أن يدوم استمساكهم به: نقرأ قول الله جل ذكره بدءاً من الآية الرابعة والتسعين: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤].

ثم أبان الله موقفهم من ذلك، وعدم صدقهم فيما يدّعون؟ فهم لا يتمنون الموت بل يخافون بسبب ما تقترفه أيديهم من الإجرام والظلم، فقال سبحانه وهو العليم بدخائل النفوس علمه بالظاهر المعلن -﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[البقرة: ٩٥].

ثم جاء الكشف عن الوجه الآخر للحقيقة، وهي أنهم أحرص الناس - حتى المشركين منهم - على الحياة التي يريدونها زاخرة بالمال من أي طريق، وبالشهوات على تنوعها ولو على حساب الآخرين.. جاء ذلك مع الإشارة إلى أن أحدهم مهما عمّر، فلن يزحزحه ذلك عن العذاب الذي ينتظر الظالمين المجرمين في تناقض مع دعاواهم العريضة أنهم أقرب الناس إلى الله: فهم أبناؤه وأحباؤه!!

ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

وفي هذا من التهديد والوعيد - كما ترى - الشيء الكثير: فإذا كان الله بصيراً بما يعملون، ولا تخفى عليه من صنعيهم خافية: فهو محاسبهم ومعذبهم العذاب المهين، جزاءً وفاقاً، والحق أنه جل شأنه لا يظلمهم بذلك، بل هم أنفسهم يظلمون.

وفي سورة «الجمعة»: بعد أن أبان الله عن تكذيبهم بآياته سبحانه، وإعراضهم عن العمل بالتوراة، وذلك بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾[الجمعة: ٥].

بعد ذلك جاء التنديد بدعواهم العريضة أنهم أولياء اللّه من دون الناس، مع ما هم عليه من التكذيب وعدم العمل بما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام من التوراة.. وطُلب منهم أن يقدموا البرهان على تلك الدعوى، فقال اللّه جل ثناؤه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾[الجمعة:٦-٩] .

هكذا تفصح الآيات في سورتي البقرة والجمعة، بكل جلاء ـ ونظائر ذلك كثيرة ـ عن أن هؤلاء الأناسيّ ـ مع دعاواهم التميز عن البشر أجمعين ـ لا يتمنون الموت وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من كل ما هو على النقيض مما يدَّعون.

إن أيديهم ملطخة بالأذى يجنونه، والمآثم يرتكبونها، والظلم يجعلونه ديدنهم في كل ميدان، وما أكثر الوقائع التي يتجدد معها اليقين بهذه الحقيقة القرآنية وأمثالها!

وإذا كان الأمر كذلك: فكيف يتمنون الموت؟ وعلى هذا فدعوى أنهم أولياء للّه من دون الناس، دعوى هابطة مقيتة، يصحبها ما هم عليه من الضلال ومعاداة الحق، وكون الغاية عندهم تسوّغ الوسيلة مهما كان شأنها! فضلاً عن أن يقيموا عليها الدليل ـ مهما حقر ـ من تمنيهم الموت.

وبعد: فإن الحصاد المرُّ الذي أثمره البعد عن الإسلام، والمعرفة اليقينية بثوابت الكتاب والسنة التي لا يفتأ التاريخ يؤكد بوقائعه المتجددة صدقها اليقيني في مواجهة هؤلاء المدَّعين الذين ندَّد القرآن بما يدَّعون وأقام الدليل تلو الدليل على الكذب والتخرُّص في ذلك:

كل أولئك يوجب القراءة المتجددة بحضور القلب والعقل، لكل ما جاء في القرآن والسنة في شأنهم ـ ناهيك عن وقائع التاريخ الماضي والحاضر ـ: وعندها يعود المنصفون المخلصون إلى الاقتناع من جديد، بأن اللغة الوحيدة في مواجهة من لا

يخضعون للحق ولا يذعنون لما توجبه الكتب السماوية كما أنزلها الله: هي الجهاد بمختلف ألوانه ـ بدءاً من جهاد النفس والهوى وخشية الوقوع في مصاب الدائرة - الجهاد الذي يكون خالصاً في سبيل الله. وتعَدُّ له العُدَّة بالأسباب الصحيحة مادة ومعنى وفق سنن الله. رغبة في دفع الظلم، ورفع راية الحق، وصدق ربنا تبارك وتعالى إذ يقول:﴿وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم وعسىٰ أن تحبوا شيئًا وهو شرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].



الوعي.. والبناء

الثوابت.. وعنصريتهم

«٤»

الصراع بين أمتنا وبين أعداء الحق والإنسان: لا تقتصر انعكاساته على ميدان من الميادين، ولكنها تمتد لتأخذ طابع الشمول ـ على صعيد الواقع ـ فيما هو أبعد وأعمق!

من أجل هذا: كان مما تقتضيه طبيعة هذا الصراع ـ وهم الذين بدؤونا به في التاريخ ـ أن يكون الإعداد للمواجهة ـ التي تدل الدلائل كافة على أنها شرسة طويلة الأمد ـ أن يكون الإعداد للمواجهة إعداداً لا يهمل ميداناً من الميادين، اقتصادياً كان هذا الميدان، أو سياسياً، أو ثقافياً، فضلاً عن أن يكون علمياً تقنياً، وكل ما هو بسبب من ذلك كله.

ولقد وضع القرآن الكريم ـ وهو الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ في أيدي الناس من الحقائق على هذه الساحة، ما لا قِبَل لأحد بردِّه على صعيد العلم تاريخاً أو واقعاً.

فهي حقائق تجمع إلى كونها ـ جملة وتفصيلاً ـ من عند اللّه، الأمر الذي يمنحها التوثيق الذي لا شائبة فيه، إلا أن تكون الشائبة في عقل من يدعيها وهواه!! تجمع إلى ذلك أن الأدلة على أنها حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين ـ من الواقع والممارسة ـ تتجدّد وتتكرر مع توالي الزمن كل يوم.

ولقد أشرت فيما سبق إلى جانبين من ظاهرة العنصرية التي أبان عنها القرآن الكريم في سلوكها والتي يزعمون انطلاقاً منها: أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وتصل الدعوى إلى أن الآخرة لهم عند اللـه خالص مـن دون الناس

ـ كائنين من كانوا ـ ولهذا فليس عليهم من سبيل في أن يظلموا، يغتصبوا، ويرتكبوا على المدى كل موبقة، من أجل الوصول إلى غاياتهم في السيطرة، وحيازة الأرض التي يريدون، والمال الذي يبتغون، وأن تكون لهم الهيمنة على الاقتصاد والإعلام يعبث فيه الاقتصاد والإعلام على أوسع مدى ومن ذلك السياسة وتقرير المصير.

يقومون بذلك كله تحت سمع الأقوياء وبصرهم وفي ظل كيان مغتصبة أرضُه، مهجرٍ أهلوه، معتدى على حرماتهم تنكيلاً وقتلاً وإذلالاً، زاعمين أنهم مبشَّرون بذلك في كتابهم السماوي الذي حَمَّلوه فلم يحملوه عملاً وتطبيقاً، ولكن حرّفوه وتأوَّلوه على غير تأويله، ولم يبق لهم منه إلا ادعاء أنهم ينتمون إلى كتابهم السماوي الذي جاءهم به موسى عليه السلام.

ألم تر إلى القرآن الكريم كيف قرر هذه الحقيقة في العديد من المواطن ـ كما أسلفنا ـ ومنها قوله تعالى في سورة الجمعة تنديداً بإعراضهم عن العمل بالتوراة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥].

والجانبان اللذان وقفنا عليه المعلم القرآن لتلك الظاهرة هما:

اولاً: أن الدار الآخرة لهم خالصة من دون الناس أجمعين.

ثانياً: أنهم أولياء وأحباؤه: يقولون هذا مع أنهم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ـ كما جاء النص على ذلك ـ وهو العزيز الحكيم.

ولعل من المفيد أن نعيد إلى الأذهان ماجاء في الكتاب الكريم تنبيهاً على الجانب الأول من تلكم الظاهرة، وهو قوله تعالى ـ بدءاً من الآية الرابعة والتسعين في سورة «البقرة» ـ خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام كيما يقيم الحجة عليهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن

يتمنوْهُ أبدًا بما قدَّمتْ أيْديهمْ واللَّهُ عليمٌ بالظَّالمين ﴿٩٥﴾ ولتجدنَّهُمْ أحْرص النَّاس علىٰ حياةٍ ومن الَّذين أشْركُوا يودُّ أحدُهُمْ لوْ يُعمَّرُ ألْف سنةٍ وما هُو بمُزحْزحه من الْعذاب أن يُعمَّر واللَّهُ بصيرٌ بما يعْملُون ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

أما ما جاء في التنبيه على الجانب الثاني من الظاهرة نفسها: فهو ما نقع عليه في سورة «الجمعة» ـ بدءاً من الآية السادسة ـ خطاباً للنبي ﷺ أيضاً من قول الله جل وعلا: ﴿ قُلْ يا أيُّها الَّذين هادُوا إن زعمْتُمْ أنَّكُمْ أوْلياءُ للَّه من دُون النَّاس فتمنَّوُا الْموْت إن كُنتُمْ صادقين ﴿٦﴾ ولا يتمنَّوْنهُ أبدًا بما قدَّمتْ أيْديهمْ واللَّهُ عليمٌ بالظَّالمين ﴿٧﴾ قُلْ إنَّ الْموْت الَّذي تفرُّون منْهُ فإنَّهُ مُلاقيكُمْ ثُمَّ تُردُّون إلىٰ عالم الْغيْب والشَّهادة فيُنبّئُكُم بما كُنتُمْ تعْملُون ﴿٨﴾ يا أيُّها الَّذين آمنُوا إذا نُودي للصَّلاة من يوْم الْجُمُعة فاسْعوْا إلىٰ ذكْر اللَّه وذرُوا الْبيْع ذلكُمْ خيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تعْلمُون ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة:٦-٩].

الا ما أعظم دروس القرآن على هذه الساحة وكلِّ ساحة، أن لو اعتبر معتبر، وتدبَّر متدبِّر، وجدَّ الذين يحملون بين ظهرانيهم هموم الأمة في سلوك السبيل التي هي الأقوم!!

ومن هذه الدروس ما نرى من اهتمام القرآن بالكشف عن الزغل الذي يراود اذهان ظلمة الحقيقة وانفسهم: لما أن ذلك من الأسلحة التي يستخدمونها في محاولة الحيلولة دون البناء الإسلامي الذي يعيد الأمور إلى نصابها، ودون أن ترتفع قواعده ساحقة في العالمين.

ومن حكمة الأسلوب القرآني في بيان الحقيقة، وإقامة الحجة على وجودها، هذا التوجيه للنبي عليه الصلاة والسلام، في أن يسوق الأدلة القاطعة، التي تكشف عجزهم عن إقامة أي دليل ـ مهما ضعف ـ على صدقهم فيما يدعون ويكذبون على الله ويفترون، سواء في دعوى أن الآخرة خالصة لهم من دون الناس يسرحون فيها ويمرحون، أو في دعوى أنهم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس كذلك، وهم يكذبون في ذلك مرتين: أولاهما في أصل الدعوى، والثانية فيما تستبطن هذه الدعوى من

إسناد الظلم إلى الله، وأنه يجزي الذين حُمِّلوا التوراة ثم أعرضوا عنها ولم يحملوها أي لم يعنّوا أنفسهم القيام بتكاليفها، بل حرفوا وبدَّلوا.. أنه يجزي هؤلاء ما يجزي المؤمنين الصادقين العاملين بما أنزل الله عليهم من كتاب.

وليس من مكرور القول أن نشير إلى أن من عطاء المنهج القرآني على هذه الساحة: ما يحمله هذا الأسلوب الحكيم المعجز من الدعوة إلى توعية المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وتفتيح بصره وبصيرته على الحقيقة في شأن هذا الصنف من أهل الكتاب، في ميدان العلم والتعليم والإعلام..

والذي تعطيه النصوص مجتمعةً: أن هذه التوعية: حقيق أن لا يبتغى من ورائها تكديس المعرفة، والترف الثقافي، والشعور بزيادة المعلومات وكفى، ولكنها عنصر فعال في سلامة التصور التي هي الخطوة السليمة على طريق العمل والتنفيذ.

ولا يخفى أنها ـ إذا اقترنت بإخلاص الوجهة ـ سلاح ماض في معركة تنوعت ميادينها، وتلونت ساحتها، والليالي تلد كل يوم جديداً.

ولا تثريب علينا أن نضيف إلى أن من عطاء الأسلوب القرآني هنا أيضاً: أن مواجهة العدو لا تكون بالشكوى والنواح، ولكن تكون بتشخيص الداء، ودخول البيوت من أبوابها، أخذاً بالأسباب علماً وعملاً وقناعة وإقناعاً للآخرين، وكلِّ ما هو من إعداد القوة بسبيل، مصحوباً ذلك كله بإخلاص النية، وأن يكون الهدف الكبير إعلاء كلمة الله التي لا سعادة للإنسانية على وجه الحقيقة إلا بإعلائها، واتخاذها منطلقاً لحركة الحياة في تخطٍ لحدود الزمان والمكان والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



البنية الثقافية.. ووعي الثوابت
«٥»

النزعة العنصرية عند اليهود وأنهم شعب الله المختار ـ كما يفترون على الله في ذلك ـ هي ظاهرة تتمُّ عنها تصرفاتهم، وينطق بها سلوكهم في الأحوال كافة على مدى التاريخ في الماضي والحاضر.

ونظراً لما تحمل في طياتها من عدوان على الحق وعلى ذوي العلاقة بهم من الناس ـ على الأقل ـ كان اهتمام القرآن واضحاً بالكشف عنها في العديد من المناسبات، والإبانة عن جوانبها المتعددة، مصحوباً ذلك بتفنيد دعاواهم المضلِّلة في شأنها والتي يحاولون ـ زوراً وبهتاناً ـ سربلتها سربال الحق والحق منها براء.

وما أكثر ما يعمل ذلك في تبصير المؤمن على ساحات البناء الثقافي منه وغير الثقافي، حقيقة هؤلاء المغضوب عليهم قتلة الأنبياء، والمفترين على الله الكذب، كما يعطي هذه القضية كما عرض لها المنهج القرآني ـ بكل عدل وإنصاف ـ مزيداً من الأهمية التي تكسو بظلامها الصراع معهم؛ وهو صراع تنعكس آثاره ـ كما سبقت الإشارة غير مرة ـ على شتى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها .

ومع سورة «البقرة» كانت لنا في جولة قريبة بعض الوقفات التي لا متَّسع لأكثر منها، عند آيات كريمات تعرض لدعوى اليهود أن لهم الدار الآخرة المشرقة بحميد العقبى: خالصةً عند الله من دون الناس، وتبيِّن بالعبارة الصريحة والأسلوب الذي لا يدع في تبيان الحق من الباطل زيادة لمستزيد: أن هذه الدعوى مفتراة يعوزها الدليل، ولا دليل من قريب أو من بعيد!!

والآيات التي نعني هي قول اللّه تبارك وتعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ قُلْ إن كانتْ لكُمُ الدّارُ الآخرةُ عند الله خالصةً مّن دُون النّاس فتمنّوُا الْموْت إن كُنتُمْ صادقين ﴿٩٤﴾ ﴾[البقرة: ٩٤].

ونفياً لحصول هذا التمني بسبب ما هم مثقلون به من اجتراح الآثام على كل صعيد: تلا ذلك قوله سبحانه: ﴿ولن يتمنّوْهُ أبدًا بما قدّمتْ أيْديهمْ واللّهُ عليمٌ بالظّالمين﴿٩٥﴾ ﴾.[البقرة: ٩٥].

ثم كشفت الكلمات الهاديات عن كونهم يتصفون بما هو على النقيض من تمني الموت: فهم حريصون أشد الحرص على الحياة رغبةً في تحقيق مآربهم التي يبيتون، وخوفاً مما ينتظرهم في الآخرة من ظلام العاقبة وسوء المنقلب، علماً بأن الحياة مهما طالت لن تكون مزحزحة لهم من العذاب الأليم.

ذلكم قول اللّه جل شأنه: ﴿ولتجدنّهُمْ أحْرص النّاس علىٰ حياةٍ ومن الّذين أشْركُوا يودُّ أحدُهُمْ لوْ يُعمّرُ ألْف سنةٍ وما هُو بمُزحْزحه من الْعذاب أن يُعمّر واللّهُ بصيرٌ بما يعْملُون ﴿٩٦﴾ ﴾[البقرة: ٩٥]..

وقد صحب النظرة العجلى في الآيات المشار إليها نظرة من هذا القبيل في نظائرها من سورة الجمعة تبين كذلك عن زعم اليهود أنهم أولياء للّه من دون الناس، وتقيم الحجّة القاطعة التي تعرّي زيف ما يدّعون ويزعمون، وأنه محض افتراء يدل عليه سلوكهم، ومنهجهم المنحرف مع اللّه ومع الناس.

نقرأ في ذلك قوله عز وجل لنبيه الكريم في خطاب يقضه على الحقيقة في شأنهم:﴿قلْ يا أيُّها الّذين هادُوا إن زعمْتُمْ أنّكُمْ أوْلياءُ للّه من دُون النّاس فتمنّوُا الْموْت إن كُنتُمْ صادقين ﴿٦﴾ ﴾ [الجمعة: ٦].

وأنى لهم تمني الموت الذي لا بد مُسلمهم إلى العقاب الإلهي لا محالة، وهم غارقون في لجج من المآثم والجنايات في نسيان للّه واليوم الآخر!!

ذلكم قوله تعالى في الآية السابعة من السورة:﴿ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ۝٧﴾[الجمعة:٧].

ولكن الموت الذي يفرون منه فراراً نفسياً يتضمن اعترافهم بالتناقض بين دعواهم والواقع الذي هم عليه: هذا الموت: هو مدركهم لا محالة: فإذا جاء الأجل لا يقبل صرفاً ولا عدلاً. ومن وراء ذلك سوء المصير والعياذ بالله.

﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ۝٨ ﴾.

وختم الآية بقوله سبحانه:﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ۝٨ ﴾ يحمل من التوبيخ وشديد الوعيد ما لا يخفى، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه المعجز بمكان.

وبعد: فإن البنية الثقافية في مقوماتها، وعناصر تكوينها حسب مراحل العمر والأهلية على الوجه المطلوب: ذات أثر لا ينكر على تصورات الفرد وسلوكه وتحليله للوقائع في ظل الربط بين النتائج والمقدمات، وعلى مسيرة المجتمع في دأبه على إحكام بنيته وقدرته على العطاء أو عدمها!

من أجل ذلك كانت العناية بإحلال التبصير بحقيقة من يواجهون الأمة بالتحديات، والمفترى من الدعاوى: محلّها في تلك البنية أمراً لازماً لا بد منه لبناء الشخصية التي لا يعوزها عنصر من عناصر التكوين والإعداد المستوفية شرائطها لمواجهة التحديات، والصبر على مشاقّ الطريق!

وعطاء القرآن على هذه الساحة معين لا ينضب، وإعلان يصرخ بالغافلين أو المتغافلين من أبناء هذه الأمة وهي في حومة الصراع مع اليهود ومن يجري في فلكهم تحت شتى العناوين: ما أشبه الليلة بالبارحة: فيهود الأمس هم يهود اليوم على الحقيقة، وإن كانت وسائل الهدم تكاثرت في أيدي هؤلاء باستخدام منجزات العلم التقني، وأساليب التنمية الاقتصادية، ووسائل الإعلام والتحالف العضدي

بينهم وبين أكبر قوة متغطرسة في الأرض، ناهيك عما نحن واقعون فيه من تفرق الكلمة، والمفاهيم المغلوطة عند البعض، ومصلحة الأقوياء ـ على زعمهم ـ في هذا التدليل لأعداء الله والحق والإنسان!

ومهما يكن من أمر: فالتخطيط المرحلي الصادق يوحي بأنه كلما كان التحرك ألصق بحقائق القرآن فيما ذكر من أخلاقهم ونزعاتهم، وبحقائق السنة الشريفة والسيرة المطهرة في استخدام رسول اللهﷺ اللغة المناسبة مهم في المراحل كافة: كانت الطريق أقلَّ ظلمة وأبعد عن التقهقر والخبال، بل وأدعى لتغيير ميزان القوى ـ بعون الله تعالى ـ والنصر المؤزر لراية الجهاد في سبيل الله أسوة بأولئك الذين صدقوا ما عاهدوا عليه وما بدلوا تبديلاً.



البناء.. والافتراء الإعلامي عند اليهود وسورة البقرة

«١»

الإعلام المعادي اليوم يذكّر بما كان من الإعلام اليهودي في عصر النبوة، حيث حمل الافتراء الإعلامي اليهود على الإعلان عن معاداتهم لجبريل عليه السلام، لما أنه الملك الذي يأتي بالشدة وسفك الدماء والحرب ـ على زعمهم ـ وأنهم لولا ذلك لآمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وصدقوه، ولكن ما دام وليُّه من الملائكة جبريل، فإنهم لن يؤمنوا. وسيظلُّون على ما هم عليه من مناواة الإسلام ورسوله الصادق الأمين، واهله اجمعين.

وهذا العبث العابث من التمحلات الظالمة، ما كانوا يبتغون من ورائه إلا تسويغَ كفرهم بما أنزل الله على رسوله محمدﷺ مع ما يجدون في التوراة من التبشير برسالة الإسلام وبالعديد من صفات النبي الكريم، بل وببعض من صفات أصحابه عليهم الرضوان.

فهل تغيَّر اليوم شيء ـ والقوة بجانبهم ـ من تضليلهم الإعلامي ومكرهم وافتراءاتهم عما كان عليه الأمر قبل أربعة عشر قرناً يوم كان هؤلاء المفترون لرسالة البناء بالمرصاد.. يمكرون ويكذبون وينقضون العهود والمواثيق، ويقابلون الإحسان بالإساءة.. فضلاً عن افترائهم على الله وعلى الناس، وطرحهم دعاوى لا تمت إلى الحقيقة بصلة؟!

الواقع أن إعلامهم وإعلام أعوانهم وأذيالهم يدل أوضح الدلالة حقاً: أنه لم يتغيَّر شيء، بل زاد بتجدد الوسائل، وما يتوافر لهم من العلم، ومعاونة أعدائنا الأقوياء وتهاون الأمة بالإعداد الصحيح ناهيك عن تخاذل من هم على ثغور صنع القرار.

وما أشرنا إليه آنفاً من زعمهم أن جبريل عليه السلام عدوهم وانهم من أجل ذلك لا يؤمنون! كان ـ كما جاء في الروايات الصحيحة ـ سبب نزول قول الله تعالى في الآية السابعة والتسعين من سورة البقرة: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتاويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدوٌ لهم وأن ميكائيل وليٌّ لهم.

وقد روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وجرت مناظرة حوار بينه وبينهم في أمر نبوته، حيث جادلهم بالتي هي أحسن، وعرضوا عليه أن يسألوه مجموعة من الأسئلة، فإن أجاب عنها: آمنوا به وصدَّقوا برسالته. فوافق مرحّباً بذلك!

وبعد أن أجابهم عنها جميعها وهو يقول بعد كل جواب: «اللهم اشهد عليهم»، وهم يقولون: اللهم نعم: عاودهم الحقد الدفين، وغيظهم الشديد من أن لا يكون هذا الرسول منهم، فقالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها: إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام، قالوا: جبريل!! ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب: عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات كلنا تابعناك: فانزل الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[البقرة: ٩٧].

هكذا جاء الرد على ما سوّل لهم الشيطان والهوى من هذه الذريعة الباردة﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ فلا وجه لمعاداتهم له وافترائهم، ولكنه الضلال لأن الروح الأمين جبريل نزل بالقرآن على قلبك ـ بإذن الله له في ذلك ـ مصدقاً للتوراة كما أنزلها الله، وهدى وبشرى للمؤمنين المصدقين، وهو رسول من رسل الله وأوليائه، ومن عادى رسولاً من رسل الله فقد عادى جميع الرسل بإطلاق.

وفي استكمال للرد على تلك الذريعة النكراء اليهودية، والفرية التي هي واحدة من تخرصاتهم الباطلة جاء قوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾. [البقرة: ٩٨].

فمن عادى واحداً من الملائكة فقد عادى الملائكة جميعاً، كما أن من عادى رسولاً من رسل اللّه فقد عاداهم جميعاً، ورد عليهم زعمهم أن ميكائيل وليُّهم وجبريلَ عدوُّهم بأن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى اللّه أيضاً!! ومن عادى لله ولياً فقد عادى اللّه وبارزه بالمحاربة.

أعود إلى التذكير بحقيقة أن مما يسهم إسهاماً جذرياً في تغيير الواقع وتجاوزه ـ إن شاء اللّه ـ إلى واقع أفضل في صراعنا مع اليهود وأعوانهم وزبانيتهم ـ على طول الرحلة والمعاناة في ذلك ـ تجديد الصلة الإيمانية بهدي الكتاب العزيز ومعالمه الخيرة، على صورة أكثر جدية وفقهاً لما تطرح تلك المعالم من حقائق ناصعة وثوابت لا خيرة للمؤمن معها في أن يقول أصدق هذا أو لا أصدقه؛ ومن هذه الحقائق والثوابت من صفات اليهود: دأبهم الإعلامي والفكري على اختلاق المفتريات والمصطلحات الآثمة ناهيك عن الدعاوى التي يكذبها وينفيها الواقع: كالذي رأينا ـ وما أكثر الصور والأمثلة ـ من موقفهم من جبريل عليه السلام وهو الروح الأمين الذي نزل بالقرآن على سيدنا محمد خاتم النبيين، حيث كشف القرآن عن الحقيقة ونبه عليها، وعلمنا كيف يكون الرد الموضوعي الحاسم.

وما أحوج الحق دائماً إلى قوة تحميه وتذود عن حياضه في شتى الميادين ـ ومنها الإعلام ـ.



الإعلام المعادي... والدرس البليغ
«٢»

صلى الله وسلم وبارك على إمام المرسلين نبينا محمد الصادق الأمين معلم الناس الخير، كم عانى وهو يرفع قواعد البناء على النهج الذي رسمته الرسالة الخاتمة، وبخاصة من اليهود الذين كان لهم قبل أن يدخل الإسلام المدنية النبوية نوع من السيطرة الثقافية والاقتصادية والإعلامية، يجمعون إليها المكر وإيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج على الدوام، تحت مظلة النفاق ودعوى الصلة الحقيقية بالكتاب السماوي وتراهم لا يَدعونَ باباً من أبواب الإثم إلا ولجوه، افتراءً على الله، وتحريفاً لكلم التوراة عن مواضعه، وسوءَ أدب حتى مع بعض الملائكة عليهم السلام. ويريدون ـ بعد ذلك كله ـ أن يسحروا عقول الناس ويوهموهم أنهم مستمسكون بأهداب الدين الذي جاءهم به موسى عليه السلام، وكليمُ الله منهم براء.

وكان من صور هذا الانحراف محاولتهم أن ينسجوا من طريق الإعلام ثوباً من التدين والتقوى قد يدخل على بعض البسطاء!!

ولكن الكلمة القرآنية هتكت أستارهم وأوضحت للمسلمين معالم الطريق في شأنهم.

وقد وضع المعلم القرآني في سورة البقرة أيدينا ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ على واحدة من تلكم الصور صور التضليل الإعلامي الذي سلكوه في شأن جبريل عليه السلام.

فهم لا يؤمنون ـ على حد زعمهم ـ بالرسول عليه الصلاة والسلام بحجة أن الذي يحمل إليه الوحي من الملائكة جبريل وهو عدوهم.. وإنما كان عدُوَّهم لأنهم يحبون الخير والسلام!! وهو دمويٌّ غليظ يجلب الحرب والدمار وسفك الدماء.

أرأيت إلى هذا التضليل والتزييف؟!

ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد فنزل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴿٩٧﴾ ﴾[البقرة: ٩٧].

إن جبريل عليه السلام لا يأتي بشيء من عنده، ولكنه يمتثل لأمر الله، فينزل بالوحي على الرسول الكريم مصدقاً لما بين يديه، وهدىً لقلوب المؤمنين وعقولهم وبشرى لهم بالخير والمثوبة من رب العالمين.

وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو حق لا مرية فيه ـ فما هو المسوّغ لعداء اليهود الكتابيين للروح الأمين عليه السلام؟!

لقد كشفت الآية الكريمة القناع، وأوضحت أن قالة يهود بشأن جبريل وتذرعهم بعدوانه لكفرهم بما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ ـ وهم يعرفونه من كتابهم كما يعرفون أبناءهم ـ: هي قالة سوء ظالمة تنمُّ عن سوء الطوية، وخبث النفوس، والمحاولة الآثمة في إلباس محاربة الحق الذي نزله به الكتاب، لَبوس الاستقامة وما يلتمس به العذر.

ودرس آخر في تنمية الوعي عند المؤمن، وقدرته على المواجهة وإدانة المسيء أياً كان انتماؤه، وذلك بطريقة موضوعية تقوم على النصفة ونشدان الحق، وإقامة الدليل الذي لا غبار عليه: الأمر الذي يجعله يواجه الإعلام المعادي بالحقيقة كاملة غير منقوصة، بعد أن يكشف تناقضه وما يحمل من عدوان على الحق وأهله!

هذا الدرس العظيم ـ وما أشد حاجتنا إليه اليوم وكل يوم ـ نقع عليه في الآية التي تلت سابقتها مدارَ الحديث: ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿ من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴿٩٨﴾ ﴾[البقرة: ٩٨].

لقد ارتدَّ الأمر على اليهود مدّعي الإيمان، وها هي ذي مقاتلهم يصوَّب إليها السهم المردي: إن معاداة الملائكة والرسل عليه السلام معاداةٌ لله عز وجل، وذلكم هو الكفر البواح! علماً بأن عداءهم لجبريل عليه السلام: عداءٌ لميكائيل عليه السلام الذي زعموا حبه لأنه يأتي بالمطر والنبات.

ومن ثمَّ فاليهود بموقفهم من جبريل عليه السلام، متخذين مما اخترعوا فيه ذريعة لعدم إيمانهم بدعوة الإسلام.. اليهود بموقفهم هذا: واقعون في حمأة الكفر، والله تبارك وتعالى عدو للكافرين!!

لقد أتت الكلمات الهاديات على بنيانهم الواهي من القواعد، وأعطت للأجيال المسلمة على مدى التاريخ ـ أن لو تحقق الوقوف مع ثوابت الكتاب العزيز ـ صورة لا لبس فيها ولا غموض في إلباس الباطل ثوب الحق، وعلَّمت دعاة البناء والخير، كيف يواجهون العدو المستشري من طريق التثقيف الذاتي الأصيل، والإعلام الواعي المستقصي بتحليل مواقفه، وتعريته كما ينبغي، ثم الرد على تضليله وافترائه بالبيان الموضوعي الذي لا تعوزه إقامة الدليل الناصع.

والرغبة الصادقة في تغيير المواقع تكشف عن أن الحاجة إلى هذا الزد من معالم الكتاب والانصياع لثوابته قائمة جد قائمة، لأن العدو لا يزال ولن يزال على ما عهدنا ونعهد وعطاء القرآن لا ينفد وفي بيانه من السنة النبوية، وما تحمل السيرة المطهرة الخير الكثير الوفير.



أعداء جبريل.. و الإعلام منهج البناء إنصافاً ووعياً.. وعمر

«٣»

أثر الإعلام اليوم في تهيئة النفوس لأمر ما، والتحضير لقبول الفكرة المطروحة، أو المصطلح المبتدع، وتحويل السامع إلى حيث يرغب عن الشيء بعد أن كان راغباً به أو العكس، راضياً بأمر بعد أن كان ناقماً منه ساخطاً عليه أو العكس.. هذا الأثر ـ وما نشير إليه ليس على سبيل الحصر ـ تقتضيه اقتضاءً لا محيص عنه. سلامة المنهج في البناء المتكامل المتوازن القوي، والحيطة البالغة في تسيير الطاقات في قنواتها المنتجة: وأن يُحسب حساب ذلك، ويتخذ بشأنه ما يفرضه المسلك الإيجابي والنظر المتبصِّر في أبعاد المعارك التي يتخذ العدو من التضليل الإعلامي المزخرف الذي لا مكان فيه ولو للقليل من الحياء: سلاحاً ماضياً في إدارتها، وتوجيهها الوجهة التي تعود عليه بكسبها.

وكم تعاني أمتنا اليوم ـ وقد تعدَّد أعداؤها وخصومها، وتنوعت معاركها حسب تعدد الميادين ـ كم تعاني من تضليل الإعلام المعادي الذي لا يرقب إلاً ولا ذمة، وتغريره بمن يسمع أو يشاهد، مستخدماً منجزات العلم التقني، والمهارات البشرية، ناهيك عن الترغيب والترهيب، كما يصل إلى أهدافه في إضفاء الشرعية على ما يثقل الكواهل من إيذائه، والسير بها سيرة الغفلة، والرضى بالسيطرة عليها في مقومات وجودها، وعوامل التحرر من ربقة الظلم وموجات الاعتداء!

ولقد كان من هداية الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ما بصَّرنا به المعلم القرآني في أولى الزهراوين، من الدلالة على صورة من صور التضليل والتناقض في الإعلام اليهودي، يوم كان اليهود في عصر النبوة لا

يفتؤون يعملون على تسويغ كفرهم وصدّهم عن سبيل اللّه. ومناصبتهم العداء الظاهر منه والباطن لعملية البناء الكبرى التي قادها المؤتمن على الرسالة الخاتمة محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام.

دابوا على ذلك صباح مساء، حتى وصل بهم الأمر إلى إعلان الكلمة الجاحدة التي تنبىء عما وراءها من الزغل والزيغ، في شأن أمين الوحي والروح الأمين جبريل عليه السلام.

وكما رأينا فيما سبق من القول: ردّ اللّه عليهم هذا الجحود الظالم، والعبث المستهتر الذي سداه ولحمته الإساءة البالغة، دونما استحياء من الله أو من الحق وأهله، إلى ملائكة الله عليهم السلام الذين لا يعرفون إلا طاعة الله وتسبيحه وتمجيده لا يفتُرون.

وكان ذلك في قول اللّه الذي يعلم السر وأخفى: ﴿ قُلْ من كان عدُوًا لِّجِبْرِيل فإنَّهُ نزَّلهُ علىٰ قلْبك بإذْن الله مُصدقًا لما بيْن يديْه وهُدى وبُشْرىٰ للْمُؤْمنين ﴿٩٧﴾ من كان عدُوًا للَّه وملائكته ورُسُله وجبْريل وميكال فإنَّ الله عدُوٌّ لِّلْكافرين ﴿٩٨﴾﴾[البقرة: ٩٧-٩٨].

ويبدو ان هؤلاء المغضوبَ عليهم كانوا يحلمون بأن تعطي تخرصاتهم الإعلامية ثمارها، فلم يقتصروا على ما كان بينهم من الحوار بينهم وبين الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام، ونكوصهم على أعقابهم بعد أن جادلهم بالتي هي أحسن، وأجابهم عن كل ما سألوا .. بل كرروا مسوغ الكفر على مسمع من عمر رضي الله عنه وهو المسوّغ الذي يقوم على معاداتهم لجبريل عليه السلام الذي ينزل بالوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو الروح الأمين، والملك الكريم الذي ينزل بهذا القرآن بإذن اللّه مصدقاً لما بين يديه، وهدىً وبشرى للمؤمنين.

فقد أخرج الإمام الطبري وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن عمر رضي الله عنه قال: «كنت أشهد اليهود في مدارسهم، فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن، ومن القرآن كيف يصدق التوراة».

فبينما أنا عندهم ذات يوم: قالوا: يا بن الخطاب، ما من أصحابك أحدٌ أحب إلينا منك، قلت: ولم ذلك؟ قالوا: لأنك تغشانا وتأتينا، فقلت: إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق القرآن!

قال: ومر رسول الله ﷺ فقالوا: يا بن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به. قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتكم الله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه، وما استودعكم من كتابه، أتعلمون أنه رسول الله ﷺ؟ قال: فسكتوا، فقال لهم عالمهم وكبيرهم: إنه قد غلَّظ عليكم فأجيبوه، قالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت!

قال: أما إذ نشدتنا بما نشدتنا به فإنا نعلم أنه رسول الله ﷺ. قال: قلت: ويحكم إذاً هلكتم!

قالوا: إنا لم نهلك، قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ﷺ ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه!!

قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، وإنه قرن بنبوته عدوًنا من الملائكة.

قال: قلت: ومن عدوُكم ومن سلِمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل.

قالوا: إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب، ونحو هذا! وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا.

قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما عز وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره.

قال: فقلت: والذي لا إله إلا هو، إنهما والذي بينهما لعدوٌ لمن عاداهما، وسلِم لمن سالمهما، وما ينبغي لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل.

قال: ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان فقال: «يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلت قبلُ» فقرأ عليَّ ﴿قُلْ من كَانَ عَدُواً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حتى قرأ هذه الآيات.

قال: فقلت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد جئت وأنا اريد أن أخبرك، وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

وهذه الرواية صحيحة الإسناد وإن كان الشعبي رحمه الله لم يلق عمر رضي الله عنه .

هذا: وفي القصة بتفصيلاتها ما يدل على إحكام البناء في شخصية عمر رضوان الله عليه إذ لم تتطل عليه الحيلة، ولم يخدعه زخرف القول، واستطاع بإيمانه ووعيه لما حوله أن يحكم بهلاك اليهود، لأنهم لم يؤمنوا، وأن من التناقض الفاضح: الزعمُ بمسالمة ملك من الملائكة لسبب كذا، ومعاداة ملك آخر لسبب كيت: حتى كادت هذه الواقعة وما نزل فيها من قرآن تكون من موافقات أبي الفاروق أعظم الله أجره ورضي عنه.

واليوم!! وقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين: تبدو مقارعة الإعلام المضلِّل الضالِّ، بإعلام قويٍّ نظيف يقوم على سلامة التصور لحقنا في ظل الثوابت والوقائع التي لا تزال ماضياً وحاضراً تؤكد صدق ما تهدي إليه معالم الكتاب الكريم.. تبدو هذه المقارعة ضرورة لا خيار معها خصوصاً والرحلة ـ كما يبدو ـ طويلة طويلة مع هؤلاء الأعداء، وبناء القوة على مختلف الأصعدة بشمول تام لأنواع القوة كلها: لا بد منه إذا كنا حراصاً على أن يصدِّق العمل القول، وأن يعمل الإيمان عمله على صعيد الواقع، وقبلَه على صعيد الصدق مع رب العالمين في دعوى أننا ـ بحمد الله ـ من أهل الإسلام الصادقين المنيبين!!



الإعلام المنحرف.. والبناء
عمر واحترام الحقيقة
«٤»

ما من ريب في أن ما يطرحه العدو وسدنته ممن لا يرجون الله وقاراً على طريق الإعلام الهادف المشوب بالغزو الفكري، وحربه النفسية وتزوير التاريخ: يكون من بعض الوجوه امتحاناً لبنية الفرد الثقافية ـ بعد الإيمانية ـ وقدرته على تبين الأمور وعدم الانسياق وراء زخرف القول واتباع كل ناعق!

وفيما حملت مصادر التفسير لكتاب الله وتأويل النصوص على وجهها الصحيح من روايات حول الآيتين السابعة والتسعين والثامنة والتسعين من سورة البقرة: كانت لنا من قريب إشارة إلى وقفة من وقفات عمر رضي الله عنه، دلَّت ـ فيما دلَّت ـ على ما كانت عليه بنية الإنسان المسلم يومذاك في عقله وفكره ومنهجيته في النظر إلى ما يلقى إليه!

والآيتان هما: قول الله جل ثناؤه خطاباً للنبي ﷺ: ﴿قُلْ من كان عدُواً لجبْريل فإنَّهُ نزَّلهُ علىٰ قلْبك بإذْن الله مُصدِّقًا لما بيْن يديْه وهُدًى وبُشْرىٰ للْمُؤْمنين ﴿٩٧﴾ من كان عدُواً لله وملائكته ورُسُله وجبْريل وميكال فإنَّ الله عدُوٌّ للْكافرين ﴿٩٨﴾﴾[البقرة: ٩٧-٩٨].

لقد ألقى اليهود إلى عمر ما حسبوا أنه موصلهم إلى زعزعة الثقة عنده بما هو عليه من الحق الذي خالط نفسه وقلبه عن إيمان وقناعة، بعد أن امتدحوه، وأثنوا عليه الشيء الكثير!

ولكنه ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وقد ألزمه الله بالنصيب الوافر من الإعداد المتكامل، والتربية على حقائق الإسلام، في قلب كبير وعقل متفتح، وذاكرة غير مثقوبة: أقام عليهم الحجة من كلامهم حين لم يَسَعْ واحداً من أحبارهم إلا الاعتراف بأن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول من عند الله، كما نطقت بذلك التوراة في العديد من المواطن!

فعندما كان رضي الله عنه عندهم، ومر رسول الله ﷺ وقالوا: يا بن الخطاب ذاك صاحبك فالحق به، قال لهم ـ وقد قالوا: ذلك صاحبك.. ـ: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه، وما استودعكم في كتابه!! أتعلمون أنه رسول الله ﷺ؟ فسكتوا وقال عند ذلك عالمهم وكبيرهم: إنه ـ يعني عمر ـ قد غلّظ عليكم فأجيبوه.. فطلبوا منه هو أن يجيبه: فقال هذا العالم ـ وقد خجل من جحود الحقيقة التي يعلمها حق العلم ـ أما إذ نشدتنا به، فإنا نعلم أنه رسول الله.

وكانت هذه حجة جديدة عليهم تبطل إصرارهم على عدم الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، وبما جاء به من عند الله عز وجل وحياً بواسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام.

عندها لم يكتف عمر بهذا الإقرار من واحد من كبار علمائهم، وقد استدعى ذلك آثار تكوينه الثقافي هو وإخوانه عليهم الرضوان على الهدى، وما كان من إعداده الإعداد المناسب لحمل رسالة البناء التي لا تقتصر على جانب دون جانب، والقدرة على مواجهات التحديات وما أكثرها على طريق الحق والذائدين عنه.. لم يكتف عمر بذلك، بل قال لهم: ويحكم إذاً هلكتم!! وعندما قالوا: إنا لم نهلك.. أوضح لهم أن هلاكهم إنما جاء من كونهم يعلمون حق العلم أن محمداً ﷺ رسول الله، ثم لا يصدقونه في دعواه ولا يتبعونه!

أرايت!! لقد كانوا يريدون أن يوقعوا عمر في حبالهم التي نسيجها الماكر: الكيد والحقد على الرسالة الخاتمة والمنزلة عليه، فرد كيدهم إلى نحورهم عندما جعل كبيرهم يعترف دون مواربة أن محمداً رسول الله، ورتّب على ذلك أن كفرهم مع الاعتراف بأن محمداً رسول الله يعني أنهم هالكون، لأن علمهم بأنه رسول من عند الله ـ كما بشرت بذلك التوراة ـ يستدعي الإيمان به وبرسالته، ولكنهم تسربلوا ـ طاعةً للشيطان ورواسب الحقد والضغينة ـ ثوب الإعراض عن اتباعه، ورفع العقيرة بتكذيبه وباؤوا بغضب الله ولعناته إلى يوم الدين.

والأدهى من ذلك: أنهم جاءوا للاعتذار بعدم الإيمان: بعذر هو اقبح من الذنب. وذلك عندما تعللوا بعدائهم لجبريل عليه السلام وحبهم لميكائيل عليه السلام: فهم يكفرون بمحمد ورسالته لأن الذي يتنزل عليه بالوحي جبريل، وجبريل عدوهم!!

عندها كشف لهم عمر رضي الله عنه عن تناقضهم وسوء تفكيرهم الذي يدل على سوء الطوية وخبثها، مبيناً أن من عادى جبريل فقد عادى ميكائيل، فكلاهما ملك من ملائكة الله عز وجل، بل قد عادى الله تبارك وتعالى.. كان ذلك ببيانه: أنه ما كان لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل، ولا لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل.

وقد جرى ذلك كله وكأنه يجري على نور من الآيتين الكريمتين اللتين سبقت الإشارة إليهما، وكأن ذلك ـ كما أسلفت من قبل ـ من موافقات عمر رضي الله عنه ـ ﴿ قُلْ من كان عدُواً لجبْريل فإنَّهُ نزَّلهُ علىٰ قلْبك بإذْن الله مُصدقًا لِّما بيْن يديْه وهُدًى وبُشْرىٰ للْمُؤْمنين ﴿٩٧﴾ من كان عدُواً للَّه وملائكته ورُسُله وجبْريل وميكال فإنَّ الله عدُوٌّ لِّلْكافرين ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].



البناء.. والوعي في مواجهة الإعلام المعادي
البقرة والمائدة
«٥»

كان مما علمناه القرآن الكريم في شأن اليهود وتظاهراتهم الإعلامية يسترون بها ما وراءها من الكفر الأسود والحقد الدفين، وما يلغون فيه من الأذى ومظاهرة الباطل على الحق: أنه ما من قضية عرضت لها الآيات الكريمات تبياناً لأمر يتعلق بهم ويضع الأمور مواضعها في شأنهم: إلا أتبعت بإقامة الحجة عليهم والكشف عن تناقضهم بقضية أخرى هي من سماتهم اعتقاداً وأخلاقاً وسلوكاً، الأمر الذي يذكّر دائماً بقول المثل المشهور في مخاطبة المتلاعبين بالحقائق: (إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً).

وحين نلحُّ على تجلية هذه المقولة في كتاب الله الذي تحدث عن شؤونهم في عشرات المواطن، لا نغالي ـ إن شاء الله ـ أو نركب متن الشطط: لأن أخلاق الإسلام تأبى علينا ذلك﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾﴾ [المائدة:٨] .

هذه واحدة، أما الثانية: فكيف يقع هذا الشطط وتلك المغالاة ـ أو كيف يسمى وضع الأمور مواضعها بتجرد وإنصاف كذلك؟! ونحن نرى أمتنا اليوم تعاني ما تعاني ـ وهم يعيثون ـ إلى جانب إجرامهم اليومي ـ فساداً في الأرض المباركة وقُدسِها ـ من سيطرتهم الإعلامية هم وذيولهم في عديد من بقاع العالم، الأمر الذي أوقع الكثيرين في أحابيلهم، وبخاصة أولئك الذين داخلهم الاقتناع بأن مصالحهم ترتبط باليهود، ناهيك عن غيرهم ممن يفترض أن يكونوا وهم يحملون أمانة الحكم في غير هذا الموقع الذي يرتفع بهم ـ أن لو أدّوا الأمانة وأيقنوا بما عند الله في ذلك ـ إلى حيث المعافاة من أن يطولهم قول الله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿ يا أيُّها

الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

وفي عود على بدء: ها نحن اولاء نقرأ في سورة البقرة بدءاً من الآية التاسعة والتسعين قول الله في شأن المغضوب عليهم: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ٩٩-١٠١].

وبعد أن جاءت الكلمة الهادية على كفرهم وضلالهم واتهامهم سليمان عليه السلام بالسحر: قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٣].

وقد جاءت هذه الآيات التي نسعد بالإلماح إليها بعد الآيتين السابعة والتسعين من سورة البقرة نفسها، وهما الآيتان اللتان أسعدنا اصطحاب الهداية فيهما فيما سبق من البيان، وكان من عطائهما توجيه النبي ﷺ ـ ومن ورائه الأمة ـ إلى ما فيه قطع الحجة وإماطة اللثام عن تناقض اليهود الذي لا يخفى على ذي بصيرة، بادعائهم انهم لا يؤمنون بالرسول عليه الصلاة والسلام وما جاء به من عند الله تبارك وتعالى، لأن جبريل الذي ينزل بالقرآن عدوهم: فهو ملك الحروب والدماء والدمار، ولو أن ميكائيل هو الذي ينزل بالوحي، لآمنوا لأن هذا الملك سِلْمٌ لهم.

إن الآيات ـ كما هو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار ـ تشير إلى أن هؤلاء الأناسي عندما يعمدون إلى تسويغ كفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام بدعوى عدائهم لجبريل عليه السلام: لا يعني ذلك أن هذه هي الموبقة من فكرهم ومعتقدهم وكفى: فالمنطلق كما تدل الآيات: أنهم فاسقون خارجون على الحق، مصرُّون على

كفرهم بالرسول ﷺ وما أنزل عليه من عند الله. علماً بأنهم يعرفونه ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ من التوراة كما يعرفون أبناءهم ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: ٩٩] والمراد بالفاسقين هنا: الخارجون على الحق الذي نزل به الكتاب الكافرون بمحمد ﷺ ودينه.

هبهم تذرعوا بغير عدائهم لجبريل، أو أية قضية أخرى من تلكم الترهات: فالأصل انهم متجهون تلك الوجهة الهابطة التي هي الجحود والعناد، مع أن الآيات بينات، والكتاب الذي يؤمنون به يحمل ـ كما جرت الإشارة غير مرة ـ البشارة بالإسلام محتوى الرسالة الخاتمة، وبالرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم إنهم لا يعرفون الوفاء: إذ كلما عاهدوا عهداً نقضوه، فهم يعاهدون اليوم وينقضون غداً.

وجاءت الآية الكريمة ـ ولها نظائر كثيرة ـ صريحة في الكشف عن هذه الخصلة الذميمة من خصالهم، فقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[البقرة: ١٠٠].

إن الدروب التي على المسلمين أن يسلكوها في مواجهة أعداء الله والحق، يهوداً كانوا أو غير يهود: دروب شائكة ومعقدة بلا ريب، كفاء الانتصار على صعابها وعُقدها مع الإيمان المقترن بالوعي والأخذ بالأسباب ـ والتصديق الجازم بثوابت القرآن والسنة ــ: وعي دقيق وثيق لما عليه العدو، وإعداد متكامل يبنى عليه الفرد المرشح للإسهام في حمل العبء بأمانة وكفاءة، والاتجاه بالمجتمع وجهة التحول إلى ما هو الأقوم في ميادين الفكر والثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد وكل ما هو من ضرورات البنية القوية المتكاملة التي تواكب التطور العلمي، ولا تنأى عن سنن الله في هذا الكون، والإحاطة بالواقع الإقليمي والعالمي بالقدر المطلوب!

والملاحظ ـ على وجه اليقين ـ أن عناية القرآن بالتنهيج لهذه البنية المومى إليها عناية فائقة لا تدع زيادة لمستزيد، وجاء بيان السنة في هذا الموضوع بالغ الأهمية، فكان نوراً على نور.

وإنها لأمانة في الأعناق، يضطلع بها أهل السعادة الذين تؤرقهم ـ في نور الإسلام وهديه ـ هموم المجتمع والأمة، ويحفزهم إلى العمل والجهاد ـ بشتى أنواعه وصنوفه بهه تصديق بوعد الله للمؤمنين المجاهدين الصابرين، ورغبة صادقة في أن يلقوه ـ جلَّ ثناؤه ـ وهو عنهم راضٍ في يوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، والله المستعان.



مع أعداء جبريل..
في رحلة البناء

في حديث موصول بما جرت الإشارة إليه فيما أسلفنا من القول: لعل من الخير أن نعمل على الاستزادة من عطاء المعلم القرآني في أن الكتاب العزيز الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير: لم يدع ـ وهو يخاطب الناس بالرسالة الخاتمة، ويوجه الرسول الكريم ـ وهو يقود رحلة البناء الإسلامي العتيد على هدي من نورها الرباني ـ أن يضع أيدي البناة العاملين الذين خاض بهم الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام معركة البناء، وتنمية فاعلية الأمة.. لم يدع أن يضع تلك الأيدي على الحقيقة في شأن اليهود، وما درجوا عليه منذ عصر النبوة من تضليل إعلامي، يهدفون من خلاله إلى تسويغ جحودهم وتكذيبهم بمحمد عليه الصلاة والسلام مع كونهم أهل كتاب يفيض بالتبشير به وبرسالته الخاتمة، وأن يجمع إلى ذلك الكشفَ عن منهج السوء الذي يحكم تصرفاتهم ـ على وجه العموم ـ وسلوكهم في الوصول إلى مبتغاهم الآثم بشكل خاص.

كل أولئك كيما يكون المؤمنون، على تطاول الزمن ـ في رحلتهم الطويلة ـ وتقلب الليل والنهار، على بينة من أمرهم، وهم يرتادون للإنسانية ـ التي ابتليت بأولئك الأناسي الذين يسيئون استخدام انتمائهم الكتابي ـ : مسالك البناء السليم الذي يحقق للإنسان وجوده الحضاري كائناً من كان، ويعملون على إزالة الركام، والتعفية على كل ما من شأنه أن يعوق الوصول إلى تحقيق حضارة مثلى هي حضارة الإسلام.

ومن الآيات التي جلّت هذا الواقع كما هو عند اليهود، ونهجهم في مواجهة الرسالة الخاتمة والرسول: ما رأينا في سورة البقرة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولقدْ أنزلْنا إليْك آياتٍ بيّناتٍ وما يكْفُرُ بها إلاّ الْفاسقُون (٩٩) أو كُلّما عاهدُوا عهْدًا نبذهُ

فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ٩٩-١٠١] إلى أن قال سبحانه موجهاً إلى ما يجب أن يكون البديلَ لما هم عليه، وهو الإيمان والتقوى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[البقرة: ١٠٣] .

إن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلَق على كثرة الرد.. تبدو هدايته اليوم ـ والمسلمون على ما هم عليه من واقع يبعث شديد الأسى، ويذيب القلب من كمد، ويتطلع المخلصون فيهم ـ على ما هم عليه من مصاب الحيلولة دونهم ودون العمل المجدي ومصادرة حرياتهم ـ إلى إنشاء واقع جديد على نور من الهدي الرباني، تستأنف فيه مسيرة الخير الظافرة التي لا يعوزها الأسلوب الحكيم، والتساوق مع سنن الله في الأرض.

أجل تبدو هداية هذا الكتاب اليوم ـ والحال هي الحال ـ القاعدة الأساسية التي ما بدٌّ من أن تكون منطلق البناء من جديد، مهما أصمَّ الظلمة أصحاب النفوذ أسماعهم عن صوت الحق فيها ـ وجمع شتات الأمة، وإزالة الأوضار التي ليس أقلها العدوان على العقيدة وحرية الإنسان وكرامته، كيما يتسنى وضع الطاقات البشرية والمادية والمعنوية على طريق الغاية المرجوة، والهدف الأسمى الكبير!!

هذا: ومن صور هذه الهداية في تعرية المواقف المعادية، وشحذ الهمم لمواجهتها بوعي وموضوعية، والتسلح لها باللغة المناسبة: ما دلت عليه الآيات الآنفة الذكر﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [البقرة:٩٩].

أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالات على نبوتك، فيها ما حواه كتاب الله من خفايا ما عند اليهود مما قد يظهرون خلافه، ومكنونات ما يسرُّون ويبيتون من الأذى للمسلمين، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرَّف الأوائل والأواخر، وما بدَّلوا، واشتروا بذلك ثمناً قليلاً!!

ومع ذلك لم يكن من يهود إلا الكفر والتكذيب ﴿وما يكفرُ بها إلاَّ الفاسقُون﴾ [البقرة:٩٩].

وصدق ربنا العليم الخبير إذ يقول في سورة الإسراء: ﴿ ونُنزِّلُ من القُرآن ما هُو شفاءٌ ورحْمةٌ لِّلْمُؤْمنين ولا يزيدُ الظَّالمين إلاَّ خسارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢] حتى قال ابن صوريا الفطيوني ـ كاذباً ـ لرسول الله ﷺ : يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله ﴿ولقدْ أنزلْنا إليْك آيات بيِّنات وما يكفُرُ بها إلاَّ الفاسقُون ﴿٩٩﴾ ﴾.

أما عن نقض العهد: فحدث ولا حرج، قال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكَّر اليهود ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمدﷺ : والله ما عهد إلينا في محمدﷺ وما أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله تعالى: ﴿أو كُلَّما عاهدُوا عهْدًا نَّبذهُ فريقٌ مِّنْهُم بلْ أكْثرُهُمْ لا يُؤْمنُون ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة:١٠٠] .

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿ بلْ أكْثرُهُمْ لا يُؤْمنُون ﴿١٠٠﴾ ﴾: قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه، ونبذوه، يعاهدون اليوم، وينقضون غداً.

الا إن من إعداد القوة التي أمر الله بإعدادها بقوله جل ثناؤه في سورة الأنفال: ﴿وأعدُّوا لهُم مَّا اسْتطعْتُم مِّن قُوَّةٍ ومن رِّباط الْخيْل تُرْهبُون به عدُوَّ الله وعدُوَّكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠] تنمية الحسِّ بما ينطوي عليه أعداء الله والحق، مما كشف عنه الكتاب الكريم، وأكدته السنة المطهرة ووقائع السيرة النبوية، وما عاملوا به ـ انطلاقاً من تلك الثوابت ـ رسول الله عليه الصلاة والسلام والمسلمين وما صحب ذلك ـ ويصحبه دائماً ـ من خط إعلامي يقلب الحقائق ويكذب على التاريخ، ويزور الوقائع، يستخدمونه للوصول إلى إقناع العالم بشرعية ما اجترحوا ويجترحون من العدوان الظاهر والباطن، غير آبهين بما يعني ذلك من عبث بالعقول واستهتار بالإنسان من حيث هو إنسان.

ومن إعجاز القرآن أنه ـ وهو الكتاب الذي أنزله الله على عبده محمد ولم يجعل له عوجاً ـ كتاب لا يحدُّ هدايته الربانية زمان ولا مكان، ولا نوع من أنواع البشر: فهو للأزمنة كلها وللبشرية كلها ﴿وأُوحي إليَّ هذا القُرْآنُ لأُنذركُم به ومن بلغ﴾ [الأنعام: ١٨].

وليس لمسلم مكلَّف عذر في الإعراض عن ثوابت الكتاب والسنة في شأن هؤلاء. فهي حقائق لا خيَرة للأمة من أمرها في القبول، أو الرد...

والكل مسؤول بحسب الثغر الذي أقامه الله عليه، ويا ويح أولئك المناهضين للحق، العابثين بالسلطة والسلطان خدمة للباطل وأهله.. يوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون.

هنالك ترى المستهترين بحقوق الأمة وقد حقَّ عليهم القول، وباؤوا بغضب من الله وافتضح أمرهم على رؤوس الأشهاد، وصدق فيهم قول الجبار المستكبر في سورة إبراهيم: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥٠].



الذين حُمِّلوا التوراة.. ثم لم يحملوها
وسورة الجمعة

كان فيما أسلفته من الكلام على بعض مما هدى إليه القرآن في شأن من ناصبوا الرسالة الخاتمة والرسول عليه الصلاة والسلام أشدَّ العداء خلافاً لما أمرتهم به التوراة من الإيمان بالرسالة والرسول: أنه ما من قضية عرض لها القرآن وكشف من خلالها تناقض اليهود في دعاواهم، وأقام عليهم الحجة الدامغة، ووضعهم ـ بما يصنعون ويفترون ـ موضع المكذب للكتاب المنزل، الجاحد للّه وملائكته ورسله... ما من قضية ساقها الفرقان على هذه الشاكلة، إلا صحب ذلك قضية أخرى تشي بفساد المنطلق، وتؤكد أن مظاهر الانحراف عند القوم: مردُّها ذلك الفساد المستشري جيلاً بعد جيل!!

وهذا موطن آخر من مواطن العظة التي سلكها المنهج القرآني، نقع عليه في سورة الجمعة حيث النسب الواضح إلى السنن الذي حوله ندندن مما لا يختلف فيه الأبناء عن الآباء، إلا ما رحم ربك، ولا الآباء عن الأجداد.

يقول اللّه تباركت أسماؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة:٥] .

ففي هذه الآية ـ وسورة الجمعة سورة مدنية ـ ما ينبىء بكثير من الوضوح عن موقف اليهود من التوراة، وأنه ـ على وجه الحقيقة ـ موقف جحود وتكذيب: لأنهم لم يعملوا بها، وجحدوا ما أخبرتهم به في العديد من المواطن من أن محمد بن عبداللّه العربيَّ الهاشميَّ رسول اللّه.

إنهم حُمِّلوها تكليفاً بالخطاب الإلهي، ثم لم يحملوها: إذ لم يقفوا عند حدودها، ولا عملوا بمقتضاها، فانصرفوا عن العبادة والعمل، وحرَّفوا الكلم عن مواضعه، حين لم يصدقوا الأخبار التي منها البشارة بمحمد عليه الصلاة والسلام.

وكان مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وبئس ما صدر عنهم من التكذيب بآيات اللّه والإعراض عن الحق، واتخاذهم التوراة ظهرياً، حتى استحقوا هذا المثل، ولبئس مثلاً استحقوه ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة: ٥].

وبعد هذا البيان المستنير، عرض الكتاب الكريم لصور من صور العنصرية البغيضة التي ربطوها - ظلماً وعلواً - بقربهم من اللّه زاعمين أنهم أولياء اللّه وأحباؤه من دون الناس، معرضين عن حمل التوراة بعد أن حُمِّلوها، هذا التعلُّل بالأماني القائمة على هذه الدعوى العريضة وهي أنهم أولياء اللّه وأحباؤه من دون الناس، فقال تعالى داعياً إياهم على لسان النبي ﷺ إلى تمني الموت إن كانوا صادقين في هذا المدعى، وإلا كانت دعواهم دعوى بلا دليل، وأين الدليل؟ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾[الجمعة: ٦] .

إنه التعالي المقيت، وسوء الأدب مع اللّه ومع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

لذا أكذبهم اللّه تعالى بقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾[الجمعة: ٧] .

إنهم لا يتمنون الموت بسبب ما قدَّمت أيديهم من المخالفة الصارخة عن هدي التوراة، وهم في ذلك ظالمون لأنفسهم، ظالمون - بكذبهم - للحقيقة، واللّه سبحانه عليهم بالظالمين فيؤاخذهم على هذا الظلم.

وقد جاء العدول عن المضمر بعد «عليم» إلى الظاهر بقوله: ﴿بالظالمين﴾ تبياناً لظلمهم، وأنهم سينالون عقابهم الأليم عليه.

ولم تقتصر الكلمات الهاديات على هذا الإيضاح، بل تجاوزته إلى تبيان أن الموت الذي يفرُّ منه اليهود قادم لا محالة، وهنالك يردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم إنباء توبيخ وتقريع وكشف عن أن ذلك سبب ما سيقعون فيه من النكال والعذاب الشديد.

ذلكم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأمر ليس مقصوراً على دعوى أنهم أولياء لله من دون الناس، بل كان من دعاواهم أيضاً أن العاقبة الحسنة في الدار الآخرة لهم من دون الناس، وتحدتهم الكلمة القرآنية أن يقيموا الدليل على ذلك، والدليل أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين، ثم أخبر الله تعالى عباده إلى يوم القيامة: أن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم: فهم ظالمون آثمون والله عليم بالظالمين.

ذلكم قوله عز وجلَّ في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة:٦-٧].

ثم أميط اللثام أن الأمر عندهم لا يقف عند عدم تمنيهم للموت بسبب ما تجترحه أيديهم من السيئات والضلالات، الأمر الذي يظهر كذبهم فيما يفترون على الله من أن الدار الآخرة عنده سبحانه خالصة لهم من دون الناس أجمعين، بل هم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا. فانظر أي كبيرة منكرة على الله يفترون؟!

ذلكم قول الله جل شانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

وبعد: فما أوضح ما تجد من النسب المشرق بين هذه الآيات الكريمات التي نحن بصدد الحديث عنها وبين ما سعدنا باصطحابه من قبل من بعض آي سورة البقرة.

فقد تبيَّن أنه بعد أن أبانت الآيات البينات في تلك السورة ـ وهي إحدى الزهراوين ـ عن سوء موقف هؤلاء اليهود من الروح الأمين جبريل عليه السلام، واتخاذ عدائهم له ذريعةً لكفرهم بآيات الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وكون ذلك عداءً لله والملائكة أجمعين.. جاء ما يظهر للنبي ﷺ وللمؤمنين، حقيقة ما هم عليه من تناقض فاضح، وتذرع اثيم..

إنهم يزعمون الإيمان، وفي الوقت نفسه يناصبون أمين الوحي العداء السافر، ويتخذون من ذلك مسوغاً يهودياً لكفرهم بخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

ذلكم قول الحكيم الخبير ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ: ﴿ ولقدْ أنزلْنا إليْك آياتٍ بيِّناتٍ وما يكْفُرُ بها إلاَّ الفاسقُون ﴿٩٩﴾ أو كُلَّما عاهدُوا عهْدًا نَّبذهُ فريقٌ مِّنْهُم بلْ أكْثرُهُمْ لا يُؤْمنُون ﴿١٠٠﴾ ولمَّا جاءهُمْ رسُولٌ مِّنْ عند الله مُصدِّقٌ لِّما معهُمْ نبذ فريقٌ مِّن الَّذين أُوتُوا الْكتاب كتاب الله وراء ظُهُورهمْ كأنَّهُمْ لا يعْلمُون ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة: ٩٩- ١٠١].

وبعد الإعلان عن انحرافهم في كونهم يحكِّمون الهوى المستكنَّ والحقد الدفين، فيدعون الآيات البينات والحق الأبلج، ويتبعون ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وبعد تبرئة هذا النبي الكريم مما رموه به من السحر، طالعتنا الكلمة القرآنية بتذكيرهم بالبديل الصالح لما هم فيه من الغواية والعدول الظالم عن الحق الذي نزل به الكتاب، فقال تعالى: ﴿ولوْ أنَّهُمْ آمنُوا واتَّقوْا لمثُوبةٌ مِّنْ عند الله خيْرٌ لَّوْ كانُوا يعْلمُون ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٣].

ولكم تسهم هذه اللمحة من المنهج الرباني الذي لا يجارى، مع الكشف عن مواقف هذا اللون من أهل الكتاب: بإيجاد الملكة الواعية، وتنمية وجودها عند المسلم الذي لا يرضى بالإيمان الصادق بالقرآن وما يشرق به من مضمونات بدلاً، ولا يبغي عنه حولاً.

وإنها للملكة التي تجعل منه ـ بعون اللّه ـ ذلك الإنسان القادر على التمييز بين الحق والباطل، واستكمال ما يجب استكماله من شرائط الحكم على التصرفات والمواقف، ودلالة ذلك على ما وراءه، مما تكن الصدور.. الأمر الذي يقفه على اليابسة في تجاوز الزخرف من القول، وما يقوم به الإعلام المضلّل من قلب الحقائق، وإحداث البلبلة الفكرية عند وضع الحدود الفاصلة بين الأولياء والمعادين!

وهكذا تظل معالم الكتاب العزيز نوراً على طريق هذه الأمة ـ التي حَرِج صدرها من ثقل التجارب والمفارقات بعيداً عن الإسلام ـ يهديها في حالك الظلمات، ويرد جانحها إلى سواء السبيل، ناهيك عن أنه يبصرها ـ على وجه اليقين ـ بمواقع الموالين والمعادين، وذلك من خلال الميزان الصادق الذي لا يعول.. ميزان العقيدة وصدق الوجهة في التزام مقتضياتها بإخلاص وثبات.

وذلكم ضمان ليقظة هذه الأمة على صوت النذير، واستئنافها ـ أن لو توافر لأبنائها حرية القول والحركة، مصحوباً ذلك بعلو الهمة وصدق العزيمة ـ مسيرة العودة إلى الأخذ الأمين الواعي بما كانت به خير امة أخرجت للناس. واللّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، ينصر من ينصره وهوالقوي العزيز.



بناء الحياة.. والإنسان

مفهوم شامل.. وسورة البقرة

«١»

المجتمع الإسلامي عندما يتحرك للبناء وتنمية الطاقات الذاتية فيه، في مواكبة للتطور، وتنوُّع الوقائع والأحداث: يتحرك ـ كما هو الأصل ـ ضمن مفهوم شامل لبناء الحياة والإنسان، لا يدع المادة للروح ولا الروح للمادة. كما لا يدع الآخرة للدنيا ولا الدنيا للآخرة، وإن كانت الحقيقة في ذلك أن العمل للدنيا إذا حسنت النيات، وحُكمت ضوابط الشريعة وأخلاقها: يصبح عملاً أخروياً في ميزان دين الإسلام والحمد لله.

وما حكاه القرآن على لسان قوم موسى عليه السلام لقارون يلقي الضوء على هذه الفكرة ويجعلها في غاية الوضوح ذلكم قوله تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٦- ٧٧].

هذه واحدة، وأما الثانية ـ وهي الأهم ـ: أن الله الذي خلق وقدر وسخر ما سخر للإنسان في هذا الكون: قد تعبَّد الخلق بطاعته فيما شرع لهم في أمور الدنيا والآخرة، من نظام يتسم بمنتهى الحكمة والدقة والإحاطة ووضع كل أمر موضعه في علاقة الإنسان بالكون والحياة، وفق سنن إلهية حكيمة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٢].

وذلك ما دلَّت عليه معالم الكتاب العزيز الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. وبيانها من السنة النبوية المطهَّرة في أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام وأفعاله وإقراره، ناهيك عن الواقع العملي الذي أنشأته حضارة الإسلام، والذي كان ترجمة أمينة لقيم الإسلام التي أوحى بها السميع العليم جل شأنه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام.

والمهم على سبيل القطع واليقين: أن يكون المنطلق في حركة البناء الشامل للفرد والجماعة: تحقيق العبودية لله عز وجل الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، والذي خلق وقدَّر وسخَّر، وأن تكون تلك الحركة على النهج الذي يحقق عمارة الأرض لخير الإنسان، والتمكين فيها للمؤمنين الذين يحملون رسالة الحق والخير، ويتيح الفرصة للإنسان في تحقيق وجوده الذاتي حريةً وكرامة وقدرة على وضع الطاقات في قنواتها المناسبة، وأن يكون على الجادة التي تضمن له السعادة في الدين والدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

والتنويه بهذه الحقائق نقع عليه في كثير من آي الفرقان الحكيم: من ذلك على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ ما نقرأ في سورة البقرة ـ بدءاً من الآية الثانية والعشرين ـ من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢١-٢٢].

إن العبادة الحقة عملاً بقوله تعالى: ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ إنما تكون بطاعة الله تعالى في أمره ونهيه، والوقوف عند حدوده فيما تعبَّد العباد وشرع لهم!

ففي الآية الأولى هنا: نداء منه سبحانه للناس وأمر لهم أن يعبدوا ربهم الذي يتولاهم ـ وهو العليم بما يصلحهم ـ بعونه ورعايته، وهو ـ جل شأنه ـ الجدير بالعبادة والإذعان لأمره: لأنه خالق البشر السابقين واللاحقين: لعلهم يظفرون بأن

يكونوا من المتقين، أولئك الذين يتقون الله بوضع وقاية ـ من الطاعة والبعد عن المعصية والمخالفة بحسن نية وإخلاص ـ تقيهم غضب الله وعقابه وتقربهم إليه ﴿والذين من قبلكم لعلكم تتقون (٢١)﴾.

فعبادته ـ وهو الذي يعلم ما يسرُّ عبادُه وما يعلنون ـ بتحقيق الطاعة المطلقة فيما تعبَّد عباده: هي الطريق لمرضاته واتقاء سخطه وعقله﴿ لعلكم تتقون (٢١)﴾.

والذي يدل على الشمول الذي سبق الإلماح إليه، وأن الله قد تعبَّد خلقه بما شرع لهم من منهج حكيم ينظم شؤون الدنيا والآخرة: قوله تعالى في الآية التي تلت:﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (٢٢)﴾.

وإذاً فالسعي والكدح، والأخذ بالأسباب لعمارة الأرض، والإفادة مما سخَّر الله للإنسان في هذا الكون العريض، كل أولئك من الأمور المقررة في منهج البناء الذي دعا إليه القرآن الكريم: ألم تر إلى هذه الآية الكريمة كيف تذكر بنماذج من النعم التي هي مقومات أساسية لحركة الحياة، وإقامة البنية الذاتية المحكمة للمجتمع في اقتصاده واجتماعه وقدرته على العطاء؛ ولكن لا بد أن يكون المنطلق ـ تصوراً وتطبيقاً ـ طاعة الله تعالى فيما تعبَّد به خلقه كما سبقت الإشارة من قبل.

فالذي جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لعباده ـ على سعة الدلالات التي تحملها هذه الكلمات الجوامع من منظور العلم ـ والذي استودعهم مفاتيح الإفادة من الخلق والتسخير الشامل: هو الجدير بأن يفرد بالعبودية، وأن يطاع فيما شرع من أحكام تنظم شؤون الدنيا، وتهيىء السبل لعمارة الأرض على الوجه الذي يضمن الحفاظ على إنسانية الإنسان وحريته وكرامته، مع تيسير الانتفاع بالوسائل العلمية والعملية مما أودع الله في الأرض من خيرات وثروات لله ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (٢٢)﴾.

أجل لا يصح بحال من الأحوال أن تجعلوا له أنداداً في العقيدة، ولا أن تجعلوا له أنداداً في الشريعة والأحكام.

والنتيجة الحتمية لهذه المقولة في الهدي الرباني ـ وهي مقولة سداها الحق، ولحمتها الحق ـ أن تتحرك خلايا البناء من هنا وهناك، أخذاً بالأسباب العلمية والعملية على قاعدة من الإيمان الذي لا تشوبه شائبة، واستنفاداً للطاقات البشرية والطاقات، وأن تبذل العناية، وتهيأ السبل الكفيلة بتنمية الحوافز التي تدفع إلى العمل تحقيقاً لطاعة الله تعالى فيما تعبَّد عباده.

وبذلك تأخذ عملية البناء عمومها وشمولها في ظل الروح والريحان اللذين تشيعهما العبودية الخالصة لله عز وجل.

ومن ألوان هذا العموم: السير مع أحقية الخطاب التكليفي في الشريعة الذي يشمل بشكل واضح المرأة والرجل جميعاً، والله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض، وهو وليُّ العاملين المخلصين.



الشمول والتكامل.. في منهج البناء
وسورة القصص
«٢»

كانت لنا في كلمات قريبات وقفة عجلى عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴿٢١﴾ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

وقد بدا أن من عطاء المعلم القرآني: ما دلت عليه الآيتان الكريمتان من أن حركة البناء للحياة والإنسان، لا بد أن تأخذ أبعادها شمولاً وعمقاً في ضوء العبودية الخالصة لله عز وجل الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد: وذلك طاعته فيما تعبد به العباد وشرع لهم من أحكام، تنظم لهم شؤونهم، وتصلح لهم دينهم الذي هو عصمة أمرهم، ودنياهم التي فيها معاشهم وحركتهم، وأخرتهم التي إليها معادهم.

وهم إن وقفوا بإخلاص عند حدوده بعمل الصالحات، ظفروا بالحياة الطيبة في الدنيا، وجزاهم الله أجرهم في الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون.

ذلكم بأنه ـ جلّ وعز ـ هو الخالق الرازق الذي أحسن كل شيء خلقه، ورزق عباده من الطيبات لعلهم يشكرون، وسخّر ما سخر من الكون لهؤلاء العباد، واستودع الأرض التي يراد عمارتها ما استودع من الخيرات والثمرات، ناهيك عما وضع في يد الإنسان من مفاتيح تيسير الإفادة من الخلق والتسخير بخاصة، ورزقه ما رزقه من الأهلية والقدرة على الانتفاع بما منّ الله به على الخلق في أنفسهم، وفي الكون الذي أبدعه على أحسن وأفضل نظام ـ بعامة ـ أياً كان الثغر الذي أقامه عليه.

ولقد يخيَّل للبعض أن توجيه البناء هذه الوجهة إنما بدأ في العهد المدني حيث توافر للنبي عليه الصلاة والسلام أن يقود عملية بناء المجتمع والدولة.. والواقع أن ذلك قد جاء في عهد مبكر من عمر الرسالة. فقد صحب الدعوةَ إلى التوحيد والتعفية على الوثنية في العهد المكي: إعدادُ الأيدي التي سوف يناط بها وبأمثالها بناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة بقيادة خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك بتهيئة النفوس لأن تكون على تصور صحيح لحركة البناء التي تجمع إلى بناء الفرد، بناء الجماعة لبناتِ المجتمع والدولة... تصورٍ صحيح لاتساع هذه الحركة وشمولها الذي يتسق مع شمول المنهج الرباني، حيث السلوك الأمثل للطريق التي توصل إلى قوة الحق وحمايته من العاديات، والقدرة على عمارة الأرض، والاستعانة عملياً وتنفيذياً بما أودع الله فيها من ثروات وخيرات، ومن كل ما سخر ـ جلت قدرته ـ في الكون الذي أبدع صنعه على أفضل نظام من طاقات وعناصر فاعلة وإمكانات!

ولست هنا بسبيل الاستقراء والاستقصاء: فالنماذج كثيرة وفيرة، ولكنني أبدأ بالتذكير بما أشرت إليه إشارة عابرة من قبل، وهو ما ورد في سورة مكية هي سورة القصص من الحديث عن قارون وقومه، حيث الآيات التي تحمل الإشارة الواضحة إلى تلك التهيئة في العهد المكي، وهي تهيئة النفوس، كيما تكون على تصور سليم، لعملية البناء في معارك يكون الأولون من جنودها.. أولئك الذين أكرمهم الله فكانوا الفئة القليلة المؤمنة في هذا العهد المكي.

أرأيتم إلى قوله تعالى في تلك السورة ـ كما ذكرنا من قبل ـ: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٦-٧٧].

وفي ظل لون من هيمنة الغرور، والاستخذاء، أمام تسويلات النفس والهوى، ونزعات الشيطان: كان من ردِّ قارون على هذا النصح الثمين ما حكى الله على لسانه في قوله سبحانه:﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص: ٧٨] .

هذه قصة تسير على النسق الذي يرمي إليه القصص القرآني من العبرة التي يرزقها أولو الألباب، كيما يفيدوا مما حصل في الماضي، إن كان خيراً أو غيره: فما كان من خير لزموه وثبتوا عليه، وما كان من شر أعرضوا عنه واجتنبوا أسبابه التي توصل إليه﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١] .

ففي قصة قارون وحواره مع قومه، وما قدموه له من النصح، وإبائه إلا العناد واستمرار السلوك المنحرف: عبرة أي عبرة للناس جميعاً.

وهي عبرة من أول الطريق لمن يأتون في المقدمة، وهم أولئك الذين شرح الله صدورهم لدعوة الحق، وكانوا الفئة القليلة المؤمنة التي تعدُّ سواعدها لحمل العبء العظيم، عبء الرسالة الخاتمة وبناء الإنسان والحياة على نورها، ومقارعة الشرك وأهله، وما كان ينوء به الفرد والجماعة من رواسب جاهلية، مشوبة بالوثنية حيناً، وبالخرافة حيناً آخر، وتحمل ـ على وجه العموم ـ عناصر التخلخل، وكل ما هو من تعطيل الطاقات عند الفرد والمجتمع بسبيل!!

فمن أول يوم ـ ومع الإيمان الصادق الذي لا تشوبه شائبة شرك أصغر ـ بله الأكبر ـ تؤذَنَ هذه الفئة قليلةُ العدد كبيرةُ الفاعلية والأثر: بأن حجر الزاوية في بناء المخلوق الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وكرَّمه وفضَّله وعلَّمه البيان، وبناء الحياة بناء متوازناً متكاملاً: طاعة الله ظاهراً وباطناً فيما تعبَّد به خلقه ديناً ودنيا، وأن ضلال قارون إنما كان بسبب نسيانه ربه الخلاق العليم، الرزاق ذا القوة المتين، الذي خلق فسوّى، وقدَّر فهدى، وأرزاق العباد، وآجالهم بيده سبحانه.

فالإنسان ليس محظوراً عليه أن يجمع المال من حلّه، وينفقه في الطرائق المشروعة، وأن ينمي الثروة من خلال هذه الطرائق كذلك.. ولكن المحظور هذا النسيان للمنعم، وبدل أن يشكر بالطاعة والإنفاق في سبيل الله، كُفرٌ واستبدال المنعَم عليه الذي هو أدنى بالذي هو خير. وذلك باستخدام تلك النعم في غير طاعته سبحانه، وادعاء أن ما أوتيه من المال الوفير، ليس من عند الله، ولكن أوتيه على علم عنده بكسب ذلك المال، أو على علم عنده بأن الله اصطفاه وهيأ له تلك الثروة: فهو هو أولاً وآخراً. ولولا أنه كذلك بدعواه واستكباره وتعاليه حتى على القدَر والعياذ بالله، لما كان هذا المال.

لذا وعظه صالحو قومه فقالوا له الكلمة العادلة المضيئة التي تجعله ـ أن لو عمل بها ـ يتمتع بطيبات الرزق في الدنيا دون مسؤولية في الآخرة، وأن يكون المال ـ وقد راح ينفقه في سبيل الله ومرضاته ويحسن كما أحسن الله إليه ـ: طريق السعادة يوم الدين: لأن الآخرة كانت منه بحسبان!

وكل ذلك في بُعدٍ عن الفساد والإفساد لأن الله يحب المحسنين ولا يحب المفسدين.

وهذه الكلمة العادلة المضيئة: هي قولهم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧] .

ولنا عودة ـ إن شاء الله ـ إلى هذه النقطة كيما نصطحبها بشيء من التفصيل بعد هذا الإجمال.

بناء الإنسان.. والحياة

التعامل والشمول وسورة القصص

«٣»

التحرك المثمر الفعَّال في تاريخ البشرية، ذاك الذي شهده العالم ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام في ميادين العقيدة والتشريع ـ ومنه الاجتماع والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك ـ: من وصول إلى أغوار النفس الإنسانية وإبعاد العقل عن سلطان الهوى ـ: كان ثمرة من ثمرات الجهد الجاهد في العمل على بناء الحياة وفق الرسالة الخاتمة، وما حملته إلى بني البشر من كشف عن المقومات الأساسية للوجود الذاتي للإنسان: لأن الإنسان هو المخلوق رفيع الشأن الذي كرَّمه الله تعالى، وأودع فيه أهلية الاستجابة لنداء الحياة الذي وجهه الخطاب الرباني من الله ورسوله إلى المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الأنفال:٢٤] كما جاء في سورة الأنفال، والسير في موكب البناء الشامل المتكامل على الوجه المطلوب!

والوجه المطلوب: أن يكون المنطلق تحقيق العبودية لله تعالى الجدير لله سبحانه ـ بهذه العبودية: لما أنه خالق الإنسان والكون والحياة، بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير، والذي سخَّر ما سخَّر من الكثير الكثير للإنسان في هذا الكون، وتعبَّد الخلق بأن يقوموا بطاعته وفق ما جاء في خطاب شريعته للمكلفين ذكورهم وإناثهم، وفيما رسم لهم من معالم شاملة لشؤون الدنيا والآخرة جميعاً!

ولقد جاءت الإشارة إلى الخلق والتسخير في عديد من المواطن في القرآن الكريم، أربت على العشرات من المواطن: من ذلك قول الله جل ثناؤه في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج:٦٣-٦٥] . وقوله في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣١-٣٤].

وكما تعبَّدهم سبحانه وتعالى بالتوجه إليه وحده بالعبادة التوقيفية الخاصة كما في الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وما إلى ذلك من أنواع تلك العبادات كما دلت على ذلك النصوص.

نعم.. كما تعبّدهم ـ سبحانه ـ بهذا اللون المبارك من العبادة التوقيفية، تعبَّدهم ـ وهذا من بالغ حكمته في عمارة الأرض والسير مع حركة الوجود ـ أيضاً بأن يعمروا الأرض ويستثمروا ما سخر لهم في كونه العريض الزاخر بالآيات في آفاقه، متعاونين على البر والتقوى آخذين بالأسباب المتوافرة بعلم ومنهجية، وسير مع سنن الله التي لا تتغيَّر ولا تتبدل، ناهيك عما يجب من وضع حقوق الإنسان موضعها المطلوب، كيما ينتفع بطاقاته وإمكاناته، في حرص على أن تسيَّر في قنواتها المنتجة التي تعود على الفرد والجماعة بكل ما هو خير، وكل ما هو نماء مثمر في خدمة الحق والإنسان.

وهذه المقولة اليقينية في دلالتها على الإحاطة والشمول، الصادقة في الرقي الدائم بالإنسان.. وضع أيدينا عليها المعلم القرآني ـ كما سبقت الإشارة من قريب، وهو واحد من المعالم الكثيرة التي دلت على ذلك ـ في قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢١-٢٢].

وإنها لمقولة فياضة بالهدى والخير. جاء التحضير لها، وإنشاء تصوُّر سليم لأبعادها، منذ العهد المكي في صدر الإسلام، وقد رأينا نموذجاً من نماذج هذا التحضير، فيما أخذ على قارون من أنه ـ وقد آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ـ نسي الله واستهتر بالواجب، وبدل أن يشكر الله بالاستقامة والإكثار من فعل الخيرات: طغى وبغى وأسرف على نفسه وكان من المفسدين.

وقد كان في قصته عبرة للفئة المؤمنة التي ما انفكَّ رسول الله ﷺ يُعدُّها لرحلة البناء مرحلة بعد مرحلة على كل صعيد: وهي عبرة توجههم ـ وتوجه الأمة من ورائهم ـ إلى أن على المؤمن تحقيق طاعة الله وتقواه فيما تعبده به، على اتساع ساحة التبعد وشمولها لكل ما هو من بناء الحياة في ميادينها المتشعبة، دونما جنوح عن سنن الله في الكون، ولا غفلة عن واقع التطور العلمي وغيره، وبناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ بناء يسلمه إلى التمكين في الدنيا، والفوز بما أعدَّ الله لمن آمنوا وعملوا الصالحات في دار البقاء.

ذلكم قول الله تعالى ـ كما أسلفنا ـ في سورة القصص: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص: ٧٦-٧٧].

أجل: ولقد أهلك الله من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً للمال، لما طغوا وبغوا، واستهتروا بالحقوق، ونسوا الله المنعم المتفضل بدل أن يشكروه. ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون، لعلمه تعالى بها، فيدخلون النار بلا حساب.

هكذا نرى أن الذي أخذ على قارون ليس الكنوز والثراء، ولكن الذي أخذ عليه أنه نافق وجحد، فأهلكه البغي والاستكبار، ونسيان أن الله الرزاق ذا القوة المتين، هو الذي رزقه وأعطاه ﴿فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ...﴾.

وأكثر من هذا: أنه ـ وقد تصاغر أمام سلطان الهوى والغرور ـ ادعى أن ما أوتيه على علم عنده، فبعد أن وعظه الصالحون من قومه ونصحوا له بما نطقت به الكلمات الهاديات قال: إنما أوتيته على علم عندي، وجاء الوعيد بإهلاكه جزاء صنيعه وطغيانه، شأن من سبقوه على هذا السنن بل كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[القصص:٧٨] وقد أشرنا إلى ذلك من قريب.

وليس من مكرور القول أن نعود مرة أخرى لتوكيد أن قارون لم يطع الله فيما تعبده وأنعم عليه، ولكنه جاهر بجحد المنعم سبحانه وتعالى، وكفر النعمة.

وفي موعظة أولئك الناصحين لهذا الرجل الذي خسف الله به وبداره الأرض، تلك التي نطقه بها القرآن في العهد المكي: ولتاليها المسلم بكل حرف عشر حسنات: ما يدل على ما رَمَتْ إليه معالم الكتاب العزيز من إنشاء التصور الصحيح عند المسلمين ـ في عهد مبكر ـ لما ينبغي أن يكون عليه العمل من تكامل في العمل للدنيا والآخرة، وأن يكون الصدر منشرحاً أبداً لكل ما هو من الإحسان بسبب، مصحوباً ذلك بالبعد عن الإفساد في الأرض، لأن الله لا يحب المفسدين. إن الله قد أحسن إليك أيها الإنسان فأحسن، والله لا يحب المفسدين، فلا تكن من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

وبعد: فإن هذا الإنشاء المبكر للتصور الإسلامي عن البناء في عقول وقلوب من حملوا أمانة البناء بعد أن حُمِّلوها: يؤكد المرة تلو المرة ما يجب من أن يكون المنهج الرباني معتصم أولئك الصفوة الذين تضعهم الأقدار في ميدان الصراع مع التخلف عن أن تكون الأمة قادرة على استئناف الطريق إلى حياة حرة كريمة، تحمل طابع الوجود الذاتي، وأن يكون لها استقلالها في صنع قراراتها المصيرية والله من وراء القصد .

الفهرس

الموضوع | **الصفحة**

